رواية

خمارة المعبد

الطبعة الثانية

بهاء عبد المجيد

خمارة المعبد

رواية

بهاء عبد المجيد

الطبعة الأولى 2011.

(c) دار ميريت

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5797710 (202)

www.darmerit.org

merit56@hotmail.com

الغلاف: الفنان أحمد مراد

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **2011/2355**

الترقيم الدولي**: 978-977-351-569-4**

بهاء عبد المجيد

خمارة المعبد

رواية

دار ميريت
القاهرة 2011

إهداء

"إلى النور الذي سطع في ظلمات روحي فطهرني"
إلى زوجتي و ابني ياسين .

شكر

كل الشكر و العرفان لجامعة ترينتى كولوج دبلن
Trinity College Dublin, Ireland (TCD)
لدعوتى للدراسة بها و أيضًا لجامعة عين شمس العريقة.

سنلقى عليك حدثًا ثقيلا
انحنِ
وبخشوع وتقوى ادخل المعبد
ألق البخور على الجمر
وقدم القرابين وتناول الخبز والماء المقدس
وتجرع الخمر ولا تخشَ
فلن تذل و لن تسكر .
فالحب السماوي
لن يذهب بعقلك و لا بجسدك
فالروح هى المقصد..

بزوغ القمر

Moon Rising

1

القاهرة :2003

أخذت المياه تهطل بغزارة، منذ لحظات سمع نقراتها على زجاج النافذة، قام من مكانه ورفع الستائر الزرقاء التي اختارتها والدته عندما جاءوا إلى هذا السكن فى المعادى بعدما تركوا شبرا وفتح النافذة وأخذ ينظر إلى المياه المنهمرة على الشارع الطويل، وتظهر كثافة القطرات على انعكاس أضواء النيون عليها. مرقت سيارة نقل كبيرة هزت أرجاء المنزل وأشعرته بالخوف وقرب النهاية.

المرأة السمراء التي تقطن في البناية المقابلة كانت تنظر أيضًا، ويحوطها أطفالها الذين لا ينامون أبدًا. ابنتها شروق "حالكة السُّمرة" والتي كانت تلعب دائمًا أكروبات مخيفة فوق حاجز الشرفة، وكل مرة يتوقع أن تسقط على الأرض الصلبة، مرددةً صرخةً طفوليةً حادةً يتردد مداها في الأفق، ولكن هذا لا يحدث أبدًا. أمها ممشوقة القوام قوية البنية، ربما جاءت من سلالة إفريقية نبيلة ولكن انتهى بها الأمر إلى أن تصبح لاجئة سياسية أو هاربة من مجاعة أو إبادة جماعية .

كان تفكيره في النهاية هو كل شيء فهو لا يريد أن يستمر. و هذا ليس بإرادته ولكن هناك رغبة مُلِحَّة بداخله فى أن يعذب جسده. سقوط الأمطار أحدث برودة غير عادية في أوصاله وكأن المياه قد أطفأت حمى جسده، تمامًا مثلما تسقط مياه باردة على لوح حديد ساخن طَرَقَه الحدَّاد منذ برهة.

يراوده شعور بأن يغرس جمرات من النار في أجزاء مختلفة من جسده، يضعها على فمه ويضغط عليها بأصابعه حتى يشاهد الدخان المتصاعد من تبخُّر سوائل جسده، ويشم رائحة تحوُّل لحمه إلى ثاني أكسيد الكربون. لماذا النيران الآن؟ ولماذا يريد أن يفعل ذلك؟

لم تكن النار هي الهاجس الذي يريد أن ينهي حياته بها فقط، بل أيضًا يريد أن يرى دمه مسكوبًا على الأرض، كان يراوده هذا الشعور كلما دخل إلى الحمام حيث الأرضية البيضاء الناصعة التي تشبه حجرة العمليات. سيحقق هذا الهاجس من خلال شفرة موسى حادة، أو نصلٍ مسنون وسيكون القطع أسفل نهاية الرقبة تمامًا بالقرب من الوريد النابض دائمًا، أو هناك فوق شرايين اليد. وبعد هذه الفعلة الجريئة سيتدفق الدم الحار، وسيتحرر الجسد، وستخرج الروح المعذبة وتذهب بعيدًا جدًّا. وسيرتاح هو، ويرتاح الجميع.

ولكن كيف يجرؤ على هذا الفعل، وهو يخاف كل شيء لقد أصبح قادرًا فقط على تأمل فكرة وضع نهاية متعمدة لحياته، ولكن الفعل هو المؤجل دائمًا. الآن فقط يمكنه أن يقول إنه قد تطور كثيرًا

وتغير لدرجة أن تواتيه فكرة أن يضع النهاية ؛ ليرحل هذا العذاب وهذا الوهم. لقد أجبروه أن يعيش وأن ينظر إلى وجهه في المرآة كل صباح أو كل مساء، ويقنع ذاته أنه حي، وأنه ناجح، وأنه شخص عادي مثل كثيرين ممن حوله. هؤلاء أقنعوه بأن المعاناة جزء من الوجود، وأنها لحكمة ما قد ولدت مع الإنسان، وأنها تكريم له لتجعل لحياته معنى، وأنها السبيل إلى تحقيق أحلام عائلته التي وضعته وسط الدائرة وجعلته بؤرة اهتمامها، والحلم الذي سيتحقق ليثبتوا للآخرين أنهم عائلة ناجحة، وأنها أخرجت هذا الفرد إلى الوجود.

يتأمل أحيانًا كيف ستتلقَّي والدته الخبر، وماذا سيكون رد فعلها. ربما ستكون أول من يُفاجأ به مُلقًى على الأرض، غارقًا في دمه، باردًا تمامًا كمنشفة مبللة، مُلقاة بجوار المغطس الإفرنجي أبيض اللون، والذي اختارته هي أيضًا؛ لأنه ا تحب النقاء والطُّهر. ستصرخ حتمًا هذه المرأة التي أنهت عقدها الخامس حديثًا، وأنهك عظامها مرضُ السكري، الذي أصابها بعد أن فقدت أختيها ووالدها في أقل من عام، وكأن الموت يختبر قدرتها على تحمُّل الوحدة، وكأن القدر يرسل إليها ا علامة لتستعد لترتيبات الموت.

ستذهل؛ فهو حلم العمر، وهو البناء الذي بنته بعيونها وسهرها وجسدها، وهو توأم وجودها وقصتها الحقيقية، مسطورة في عقله وعلى صفحات كراسته التي يخفيها وتقرؤها عندما يكون غارقًا في سُباته، أو في الخارج مع أصدقائه القلائل.و هذه أجزاء من حياته التى حاول معتز أن يسجلها فى دفتره.

***

2

Shall My Soul Pass Through Old Ireland .
Irish Ballad.

هل تحوم روحى حول أيرلندا العتيقة؟ أغنية شعبية أيرلندية.

"معتز"

سبع و عشرون سنة .
أعزب.
المعارف: كثيرون.
الأصدقاء: قليلون.

ماذا **أفعل لكي أهرب من هذه الشخصيات التي تحيط بي ؟ إنها تصاحبني في كل الأماكن، وفي كل الأزمنة. أصبحت أشباحًا تطاردني في يقظتي وغفوتي، وباتت مفردات أحلامي وطقوس هروبي، ومحتوى كلماتي. الشخصيات والبشر الذين قابلتهم في رحلتي في هذه البلدة البعيدة: "أيرلندا" "أرض المطر".**
وأصبحوا يجلسون معي ويتحدثون إليَّ، وباتت أجسادهم

وأرواحهم أحجارًا ثقيلة تجثم على صدري، أراهم يمشون معي في شوارع وسط المدينة بالقاهرة، تمامًا كما كانوا يتجولون معي في شوارع "دبلن" و"بلفاست" وأزقتهما، ويجلسون معي على المقاهي -كما كانوا يفعلون في خمَّارات دبلن وحاناتها – في شوارعها يضحكون ويثرثرون معي، ويتشاجرون في بعض الأحيان. في لحظات الحزن أستدعيكم، تأتونَ إليَّ فاتحين لي أيديكم. ابتساماتكم الحقيقية تزيل أعشاب الحزن الشيطانية الذائبة فى جذور روحي.

أستدعيكم في كل لحظة وأرسل موجات روحي إليكم عبر الهواء وعبر نجوم السماء، وأقول: تذكروني دائمًا، ولا تجعلوا ذكراي تُفْقَدُ منكم وتسقط على أرض هذا العالم المتوتر.

أنا هنا الآن، وحيد، ولكن بصحبتهم أحاول أن أخلق حياة موازية للحياة هناك. ولكني دومًا أفشل وأسقط بزلاتي وخيبتي.

كنت دائمًا أحاول أن أنسى أو أتناسى هذه الرحلة وكأنها لم تكن. وبغض النظر عن طول الرحلة أو قصرها، فالزمن هنا ليس مهمًّا ولا معيارًا. فاللحظة في عمر الإنسان -كما يُقال- يمكن أن تحوي دهورًا من الأحداث والذكريات.

في الحجرة ذات الطلاء والشراشف ناصعة البياض أجلسني المُعالِج وقال لي: صِف لي ما ترى حولك. كم عددهم؟ وما أوصافهم؟ وماذا فعلوا معك، وماذا فعلتَ معهم؟

وعندما لم أُجِب قال لي: إن لم تكن تستطيع الكلام يمكنك أن تكتب عنهم. عرفت أنك تهوى الكتابة ولك دراية بالأدب. إذًا لماذا لا

تكتب؟ الكتابة ليست علاجًا صدقني، ولكني أريد أن أعرفك وأتعرف إلى هذه الشخصيات. تبدو لي إنسانًا جميلاً ورقيقًا. وبالتأكيد من تعرفهم سيكونون كذلك.

كان الطبيب رءوفًا وممتلئ الجسد، وكان يبتسم أحيانًا.

في المساء كانت الحجرة مظلمة، ولم يكن بها أحد سواي، والأجساد التي تحيط بي. هذه المرة كنت خائفًا، ونظرت إلى القمر من النافذة. كاد يقترب مني. وكاد يهبط بجوار سريري، وكأنه سيتخطفني، لولا أني تشبَّثت بأعمدة السرير، وبكيت كثيرًا. وجلست على الأرض أنادي -بأعلى صوت- على أخي "نادر"؛ لكي يجيء ويأخذني من هنا، وأن يبعد القمر عني، ولكنه لم يسمع صوتي ولم يجئ. ودخل المُمرِّض وأعطاني اللبن مخلوطًا بالمهدئ. فَرُحْتُ بعيدًا وتطايرت الأجساد مع القمر بعيدًا في السماء.

***

3

ثم وقف بلوم على قمة الشارع فترة، فتذكر أن " ليها " ستمثل فى هذه الليلة شخصية هاملت، اسمها السيدة بندمان بالمر. أحب أن أشهد تمثيلها ثانية كما شهدتها أمس لأنها تجيد تشخيص الرجال، لعل هاملت كان أنثى، وإلا فلمِ انتحرت أوفيليا؟!

جميس جويس :عوليس. ترجمة: محمد لطفى جمعة.[1]

قصة حب .

أمشي **في شوارع وسط المدينة .القاهرة الساحرة العامرة، المدينة التى لا تنام و التى يسهر عليها القمر ليؤنسها، شارع طلعت حرب بميدانه الفسيح، لافتات لحزب الغد والمطالبة بإطلاق سراح "أيمن نور". بجوار "جروبى " تجلس مجموعة من رجال الأمن وعلى مرمى البصر عربات أمن مصفحة تطل من فتحات نوافذها الضيقة رءوس جنود مرهقة. على الجانب الآخر يتظاهر أشخاص من جماعة كفاية يحملون شعارات تنادى "بالتغيير" و يحملون صورًا ل "جمال مبارك". أتلفت ورائي خائفاً وأتسلل تجاه شارع محمد محمود. أدخل مطعم "الجريون"، هناك قابلت بالصدفة صديقًا قديمًا، فجلسنا.**

قال: مثلما ذهبت مثلما عُدت، أنت معتز ولن تتغير، احكِ لي ماذا رأيت، وماذا فعلت، حياة "جنان"، أليس كذلك؟ آه ... باريس.

قلت له: لم أكن في باريس، بل في أيرلندا، وهذا هو الفارق.

- سألته: أخبارها؟

- قال: من؟

- قلت: ألا تعرف؟ سهام؟

- قال ببرود: تزوجت.

- من؟

- شخص مغمور ،كعادتها فى الرجال... كما تعرف.

أتركه في ذهول،أخرج من ممر الجريون، أقف قليلاً أمام مبنى نادى السيارات المصري، أمشى تجاه قاعة أرابيسك، يواجهنى المتحف المصرى بأضوائه الباهرة، فندق كليوباترا، على شمالى مطعم كنتاكى أعبر الطريق إلى الجانب الآخر أصل إلى كشك جرائد "عم رمضان" أقف أمامه أتصفح الجرائد و المجلات، مجلة المسرح، أتمنى رؤية "سهام" صُدفةً، لا أبذل مجهودًا حتى أراها، فقط أستدعيها في ذاكرتي، تأتي إليّ، ربما مُحمَّلة بمشاعر الإهمال تجاهي، أو ربما تتظاهر، أو ربما تعشقني وتتجنبني، مثلما أفعل أحيانًا مع أخريات. فجأة وجدتها واقفة أمامي، مثل إيزيس في جمالها و بهائها، لم يخبُ سحرها القديم، بل ازدادت حُسنًا، وبسطت عطرها على المكان، فألبستني نشوةً .

كانت ترتدي معطفًا أزرق داكنًا، وتضع قبعة حمراء مثل لون غليان الدم، عندما علمتُ بخبر زواجها الثاني. تمسك في يديها ابنها، قالت: سلم على "عمو" معتز.

رد بلهفة: "عمو معتز الذى يرسل لنا الزهور ".

ظهر زوجها ,أصلع الرأس, داكن البشرة،، حاد الملامح. تبادلنا تحية الصوت والأيادي، استخدمت نبرة درامية تعلن عن فرحي وسعادتي بزواجهما، متمنيًا لهما السعادة.

عندما رآني اقترب منها وكأنه راعٍ فقد إحدى شياهه، فاتجه نحوها ليجنبها الأخطار. وأنت أدركتِ ذلك جيدًا، فالتصقتِ به وأمسكتِ يديه كعادتك مع من تحبين من الرجال، ونظرتِ في عيني، وكأنك تريدين أن تقولي لي إنك سعيدة، ولست وحيدة. ولكن أعتقد أنها لحظات تمثيل شعورية مقصودة منك تمامًا مثلما تفعلين على خشبة المسرح الذي تعودت عليه، تأكيدًا لدور الزوجة المطيعة المُحبة، التي يجب أن يراها كل الطامعين والحاسدين والعشاق السابقين، وأنه يجب عليهم وعليهن أن يفرحوا لأن هذا دائمًا حال المحبين أن يتمنوا للمحبوب السعادة حتى مع الغير، ولكن ما تفعلينه كان بعيدًا عن الصدق، وذلك عندما نظرت في عينيّ بكل سن وات الود وأخذت بيد ابنك الصغير، والزوج باليد الأخرى، ثم ذهبتِ وبقيتُ أنا مكاني أتوجس خيفةً وأتتبع رائحتك.

سأظل أكتبك بكل كلمات الخير غير المعدودة، وسأبقى دائمًا العاشق الذي لم تلمَّحي لوجوده في حكاياتك أو في واقعك .

وستبقى أنت دائمًا مشروعي الوجودي الذي أستمر من أجله. تجمعنا معًا لحظات من الغفلة فتقترب، وتسقط عن أجسادنا ملامحها، وتتهاوى أيديولوجياتنا وطبقاتنا على مرفأ مسمى واحد، ألا هو الروح... وألا وهي المحبة.

ستظلين هكذا دائمًا، أستدعيك حينما أريد. وتدخلين عليّ دون استئذان فتجعلين لحياتي معنى، ومن ظلمات روحي نورًا. وهكذا سأكون، وهكذا ستكونين، نتقابل مصادفة. وستكونين دائمًا مع آخر، وسأكون دائمًا وحدي. ولن نسمح بأن يتعدى أي منَّا حدوده. فقد ارتسمنا لأنفسنا هذا المصير. وقد ختمت الأقدار بقلبها على مصائرنا. ربما لا تدرين أنني أكتب عنك، وربما لم يكن لديك وقت لقراءتي، أو حتى معرفتي. وربما ستلومينني على استباحتك وتحرشي بك على وريقات هذا الدفتر، وستقولين لماذا يجعل مني أسطورة، وأنا إنسانة عادية، وربما ستشعرين بالزهو وستُلقين بكتابي على الطاولة في الصباح؛ ليقرأ زوجك عنوان الرواية – "أرض المطر"- ويقرأ اسم المؤلف فيزداد شغفه بقراءة الكتاب، ربما ينظر في عينيك تأكيدًا على أنه لا يبالي. ويخرج ليبحث عن الكتاب في مكتبة "مدبولي" أو "الشروق" ليبحث عنكِ بين السطور، أو ربما سيُصعَق عندما يعرف الحقيقة، وهي أنني أحبك من طرف واحد، ومنذ زمن بعيد، وأنني أعاني الإهمال منك، ولا أستطيع الاقتراب؛ لأنك امرأة خطرة، وأنك تبلعين الرجال كما تبلعين الهواء، أو ربما سيفرح لأنه لم يستطع أن يتوصل إلى الحبيب المجهول، وسيقول لذاته إنها مُصادفة أن يجد الرواية على

الطاولة في الصباح. وسيعود حتمًا ليلاً، ليمارس دوره الرجولي معك، محاولاً تأكيد خرافة الفحولة لديه، قاصدًا بذلك تحدي جميع الرجال الذي خُيَّل له أنك تشتهينهم.

***

- تتزوجينني ؟

قبل أن أتفوه بها، أعلم أن الرفض هو الإجابة، لذلك ترددت أن أقولها لك، وربما لم ترد هذه الفكرة على خاطري.

ولكني قَدمَّت لك قربان حبي من قبل.

أتذكرين الحرف الذهبي الذي قدَّمته لكِ هديةً في عيد ميلادك، الذي يحمل أول حرف من اسمك "س"؟

لقد سهرت ليلتين حائرًا... ماذا أشتري لكِ؟ اقترضتُ النقود من أختي الطيبة، واقترحت هى أيضًا فكرة الحرف، وفضلت أن يكون ذهبيًّا. حُمْتُ فى شوارع عديدة فى الدقى حيث متاجر الذهب لأشترى لك هذا الحرف. وربما في ذلك الوقت كنت تتزينين لآخر، غير مبالية بي. هكذا أكتب عنك. ليس استهزاءً بما فعلتِ، ولكنها رغبةُ أن تبقى ذكرى شراء شيءٍ لكِ يكون دائمًا معك. حرف تضعينه على صدرك، بجوار قلبك، ليتلصص ويسترق السمع لما يدور بداخلك، وأن يتوغل في أعماقك ويطلعني على أسرارك. أما زلت تحتفظين به، أم أنه غرق بداخلك ولم يعد له وجود ،أم ربما ألقى به الآخر جانبًا في لحظة عشق، غير مصدقٍ أنه صاحب الرُّخصة لاعتلاء هذا الصدر واكتشافه؟

كنت أحاول في كل مرة أن أعترف لك بمحبتي ورغبتي في الاقتراب أكثر منك، شوقًا لمعرفتك والتواصل مع روحك. في هذه الفترة كنت متحققةً، تعتلين خشبة المسرح، وتكتبين نصوصًا يهتم بها كثير من الرجال، بينما أنا ضعيف وفقير، ولا أحد يهتم بي. فانزويت، وكان مفهومي عن علاقة الرجل بالمرأة مُبهمًا غيرَ واضح. كنت أتساءل: ماذا أفعل لأجذبها إليّ، فأنا لستُ وسيمًا، ولم أجرب الحب مطلقًا، وفقير أسكن في بيت متواضع بشبرا قبل الانتقال إلى ا لمعادى يصلح فقط كفضاء لرواية بطلها بائس، ويقترب من الجنون أو الانتحار. كان قلبي يشدني إليك، وجسدي يبتعد عنك، ولا يفهم ما تريدين، ولساني غير مُدرَّب على صياغة مفردات الإطراء أو الإقناع. كنت تتفوقين عليَّ في كل شيء، وكنتُ أسقط في منطقة اللاتحقق، والتردد، والخيبات.

طلبت نصائح أصدقائي، فقالوا: "أنت غير صالح لها، وهي لن تقتنع برجل مثلك، ومن الأفضل أن تندمج معنا، وأن تصاحبنا كثيرًا؛ لعلك تتعلم أصول الرجولة، و"تخشن شوية"، و تقوى عزيمتك، وتصبح قادرًا على إقناعها.

اقتحم عالم الرجال أولاً، فآدم خلق وحيدًا واكتفي بذاته، ثم جاءت بعد ذلك الأنثى لتكمل فيه إنسانيته وأنوثته، واكتشفت فيه مَواطن الضعف.

فهمتُ معهم، وسهرنا معًا، وافترشنا المضجع نفسه، وكتبنا قصائد نثرية، وقرأنا كتابات تروتسكي و يوميات جيفارا، وكفاحي لهتلر، والغثيان لسارتر، و الحرافيش لمحفوظ ، ووكالة عطية

لخيري شلبي، والتجليات للغيطانى ، واقتسمنا رغيف الخبز وقبلة الشفاه للمرأة نفسها، ولكن كل هذا لم يُثنِني عن محبتي لك.

ولكني لا أستطيع الاقتراب، وكأن هناك حائطًا يحول بيننا، فأنا ساكن وأنت متحركة، أنا متردد وأنت عازمة على تحقيق ما تتطلعين إليه.

صديقى الذى يعرفها أيضًا قال لى: لا تقترب منها؛ فستحرقك، ولن تعود "معتز" مرة ثانية، ستكون مجرد "كومبارس" في حياتها، ولن تكون بطلاً أبدًا... ولكنهم لا يعرفونكِ كما أعرفكِ.

إنهم لا يستطيعون إلا أن يروا هذه النظرة التائهة في عينيك، والحركة الواثقة في خطواتك، ونبرة صوتك الجادة، ولكني أحس بدفئك وتوتر روحك، ورغبتك في الوصول إلى الكمال والاكتمال مع الرجل المثالي، فأنت خجولة جدًا، ومترددة جدًا، وضعيفة جدًا، وكل ما تفعلينه هو قناع من أدوات المسرح.

ولكن في النهاية لدي قناعات بأنني سأظل ألعب في حياتك دور المُلقِّنِ، والذي سيسمع الجمهور صوته خافتًا، ولن يراه أبدًا، ولن يعتلي خشبة المسرح ليحيي الجمهور.

أمر بجوار مقهى "التكعيبة" مُحمَّلاً بشجن السنين الضائعة، فأرى أخرى تجلس في جانب المقهى تفرد شعرها الأسطوري، وتُميل جسدها، على إحدى حواف المقعد، تنظر لي بعيونها الآتية من صحارى الأزمان التائهة، فأحاول أن أبتسم وأطرد شبح المرأة الأولى من حياتي. أعرف بعد ذلك أن اسمها "حنان"، وأنها

تدرس الآثار فأمزح معها و أقول: بمقابلتى لكِ عثرتُ على أسرة فرعونية كاملة بكل كنوزها ومومياواتها. فتقول: أنت كنز كبير..

كانت "حنان" تذهب إلى مهمات تنقيبية مع البعثات الأجنبية إلى الواحات ودهشور، وكنا دائمًا نلتقي في المتحف المصري، حيث كان يلقي "زاهي حواس و على رضوان" محاضراتهما عن الآثار المصرية القديمة، وكانت تلميذة مجتهدة تحاول بإصرار أن تحصل على منحة لدراسة المصريات بجامعة "ليدن" بهولندا، وأحيانًا تطلب مني أن أساعدها في مراسلاتها لهذه الجامعة، حيث إن خبرتها قليلة بالبريد الإلكتروني، وتطلب مساعدتي ٌ لأتقان اللغة الإنجليزية أيضًا. تحب توت عنخ آمون، وإخناتون، بينما تكره المومياوات، وتشاجرت ذات مرة مع زاهي حواس لسماحه بإجراء تجارب عليهم، وقالت: كيف تنتهك حرمة الموتى هكذا، حتى لو كانوا من قوم فرعون، وحتى لو كانوا استباحوا اليهوديات وقتلوا أطفالهم؟

قالت لى: إنها أحبت الأهرامات، ولكن عندما أدركت أنها مقبرة كبيرة لملوك طغاة قالت : لا أحب الملوك ولا الطغاة ولا المقابر، ومع ذلك عندما يلبسني الحزن والهم أذهب إلى الهرم فتطير أوهامي وآلامي. وتسكن أحجاره وصخوره، وتهرب داخل حجراته. دعتني لنتاول الشاي و"الجاتوه" في ا لأمريكين بطلعت حرب، وقالت وهى تضع لي السكر وتبتسم: إنني سعيدة بعودتك إلى القاهرة، كانت تنقصها أشياء كثيرة وأنت غائب. هل تعلم أنني كنت دائمًا أذهب إلى أتلييه القاهرة؛ لعلِّي أراك، وأحيانًا أذهب إلى

"الجريون" على مضض، تعلم أنني لا أحب هذا المكان؛ كله خمر ونميمة، والواحدة يُظَنُّ بها السوء لمجرد أنها تذكره، ولكنني كنت أذهب مع صديقتي "عفاف"؛ فهي أجرأ منى، وتعلم جيدًا كيف تتعامل مع هؤلاء. تخيَّل هى تجلس وسط هؤلاء الرجال المثقفين والملحدين ولا تحتسي الخمر! غريبة، أليس كذلك؟!

ثم قالت: أريد أن أعرف سر حزنك وشرودك ؛ أنت شخص مثير لي، تمامًا مثل الأسرار الفرعونية، تعلم أنك تشبه التماثيل الفرعونية... جبهتك، ذقنك، عينك، حكمتك. فقلت: كل هذا؟ أنت تبالغين. يمكنك أن تكتبي شعراً. ثم قالت: انظر حولك وسترى أفضل. قلتُ: نصيحة؟ قالت: آسفة، ولكني مهتمة بك، وأعرف أنك مختلف وحساس ومبدع وهذا النوع من الرجال سهل جرحه واللعب به... أقصد لا تُعطِ قلبك لأحد لا يستحق هذه المحبة؛ فمشاعرك غالية وراقية، فكثير من الرجال يحكمون على المرأة بطريقة خاطئة، فالمرأة لديها كثير من الكذب والأقنعة، ولديها نهر من العطاء ولكنها تعطيه لمن تريد... ومتى تريد فقط. في لحظة شعرت أنها تلمح بشيء، مثلاً أنها معجبة بي، وأنها مستعدة أن تكون معى. أو ربما تريد أن أقول إنني مستعد أن أكون معها، وأن نكتشف مشاعرنا أكثر، ولكني شعرت بضيق وشعرت بثقل اللحظة وثقل مشاعر حنان. لم أكن في هذه اللحظة مُستعدًا لوجود شخص في حياتي، كنت أريد أن أكون أنا، وأن أكون وحيدًا. شعرت هي بالخجل ولكنها كانت سعيدة بالمواجهة ولم ت تململ في جلستها وقالت: سنتقابل كثيرًا ولن أتركك حتى أتعلم منك اللغة والثقافة والإنسانية، فضحكنا ودفعتُ الحساب ثم خرجنا. كانت تُمطر في

الخارج، قالت:هل تعلم ما طموحي؟ قلت: "وزيرة ثقافة"، قالت: أن أمشي ساعات معك تحت المطر. فأمسكت يدها ونحن نعبر الشارع، وقلتُ: ربنا يوفقك... عليك بنزار قباني، حيشوف لِك حل.

أرض المطر

Hibernia.

4

لم أَعُد شاباًّ وقلبى بسبب سنوات عديدة من الحزن والبكاء على الموتى نسى الضحك والبهجة ، وفوق ذلك فإن جدران قلعتي منهارة والظلال كثيرة والرياح تزفر برودة من خلال الفجوات و الكوابى. أحب الظلام والظل حيث يتاح لى أن أكون وحدى مع روحي و أفكاري و قتما أشاء.

برام ستوكر: دراكولا.2

دبلن 1998:

كنت أنتظر أي شخص أن يساعدني على حمل حقيبتي، ولكن لا مُجيب.

قال لي شاب -وهو متذمر- من سؤالي له: إن حقيبتي هي مسئوليتي. وامرأة أخرى اقترحت أن هناك حقائب ذات عجلات لا تحتاج إلى مجهود في جرِّها. ثم ضحكت؛ فسأعرف بعد ذلك أن هناك هلعًا من الغرباء والحقائب التي ربما تكون بها مفرقعات، حيث إن العمليات الإرهابية منتشرة، وخصوصًاً في "بلفاست" في شمال أيرلندا.

لم تبدُ دبلن مدهشة لى تمامًا ، فلم تكن كما توقعت دولة أوربية؛ فالشوارع ضيقة، البيوت الإنجليزية المتواضعة، الكباري

الأثرية القصيرة، المحلات البسيطة، الأطفال المتسولون، العجائز، والشباب المُتهور من المواطنين والمهاجرين.

انتظرت في محطة الأتوبيس أكثر من ساعة، متوقعًا وصول الحافلة التي ستقلُّني إلى كلية سانت بتريك بمدينة "مانوت Maynooth بمقاطعة كليدر Kildare حيث سيُعقَد مؤتمر عن الأدب الأيرلندي، وعلاقته بمفهوم الأرض.كانت أغنية سيلين ديون "سيظل قلبى مخلصًا لك " My heart will go on تنبعث من مكان قريب وسرحت مع أنغام الفلوت وتفا علتُ ؛ لأننى أحب فيلم "تايتنك" بوغم نهايته المأساوية للأيرلندي يِن الفقراء، انشغلت بقراءة الصحيفة التي لا تقول شيئًا سوى المشكلات التي تحدث في البرلمان، وعن معاهدة "الجمعة المباركة" "Good Friday"، وعن نزع سلاح الجيش الأيرلندي الجمهوري في شمال أيرلندا. أمام المحطة كان هناك فندق غاية في الجمال والروعة، انجذبت إلى عمارته التي تنم عن طراز العصر الفيكتوري: فندق Fitzgerald لويس فيتزجيرالد. مدخله الخشبي القديم ذكَّرني بالمشربيات والأرابيسك في منطقة سيدنا الحُسين وخان الخليلي. جاء الأتوبيس وتحرَّك الرُّكاب تجاهه ببطء وثبات. كانت هناك بعض الابتسامات المطمئنة من بعض الراكبين.

استمتعت بالنظر إلى السهول، والوديان، والتلال الخضراء التى يغطيها البرسيم، والقنوات المائية. ومع هذا الجمال كانت هناك سحابة من الغيوم تغطي الأفق فتخلق إحساسًا بقر ب النهايات، ولحظات من الكآبة المعتادة.

كانت الشمس قد اقتربت من الاختفاء، للذهاب لبلاد أخرى، ومع ذلك كنت أستطيع أن أُميز طبيعة مدينة "مانوت". مدينة هادئة بها بعض البيوت، لا يزيد ارتفاعها عن طابقين. طريقها الرئيس صاعد تجاه كنيسة قوطية كبيرة تسمَّى "سانت ماري "، تعلوها أبراج، وفي مدخلها صليب كبير، وأمامها ساحة كبيرة على شكل ميدان يتوسطه تمثال للسيدة العذراء، ومحطة بنزين على أحد جانبي الطريق. بدت مدينة هادئة ومختلفة عن "دبلن"، ولكني شعرت بالانقباض فهى مدينة يملؤها العجائز والشيوخ، أما الشباب فكانوا مخلوقات قليلة وربما نادرة، ولم أرَ طفلاً واحدًا في عربته أو آخر يمشي بجوار والديه.

سألت عن عنوان مقر المؤتمر. فأشاروا إلى الكنيسة الكبيرة، كنيسة "سانت باتريك"، أو القديس باتريك، قاتل التنين والمبشِّر الأول بالمسيحية في أيرلندا.

عندما دخلت من الممر كانت الخضرة على الجانبين تبهر الأنظار من قوتها وحضورها، وكانت الكنيسة تقف شاهقةً بأبراجها وصُلبانها ونوافذها قوطية الشكل.

قادني حارس البوابة إلى مدخل الكنيسة، وقابلت مسئول المؤتمر. لم يبتسم وأمرني أن أسير معه، فتتبعت خطواته التي كان صداها يدق في قلبي. صعدنا السلالم التي انتهت بدور يقترب من سطح الكنيسة، ثم دفع مزلاج الباب. كانت الإضاءة خافتة لدرجة أنني لم أستطع تبيُّن ماهية المكان.

قال: ستنام هنا ونتقابل غدًا. ثم أضاف: اقطن في الدور السفلي لو احتجت إلى شيء، وهناك هاتف داخلي في الممر. سألته: أين باقي ضيوف المؤتمر؟ قال: لم يأتوا بعد سيأتون غدًا. لقد جئتَ مبكرًا.

تركني ورحل، وبقيت وحدي في الحجرة، فتحت النافذة لم أرَ غير الظلام، وكأن الخضرة التي بهرتني عند دخول الكنيسة لم تكن سوى أشباح وبحر لُجي فيه ظلمات. خفت، وأغلقت النافذة بسرعة. ثم فجأة سمعت صوت دبيب أقدام. فرحت. ثم قمت لأفتح الباب؛ لعلِّي أرى أحدًا ولكني صدمتُ، فلم يكن هناك أحد.

جلست على جانب الفراش، نظرت إلى السقف والحوائط ، ثم فجأة انبلج زجاج النافذة ودخل تيار من الهواء، وخبطت السماء وكأن هناك برقًا ورعدًا. أغلقت النافذة بسرعة. لم أدرِ ماذا حدث، فجأة سارت القشعريرة في جسدي وأحسست بدبيب خفيف يسري في فروة رأسي. قلت: سأقرأ كتابًا.. شعرت بالجوع والبرد. ثم قلت: سأنام. وأطفأت النور. تقلَّبت في فراشي، شعرت أن يدًا تلمسني. فتحت عيني، ورأيت النافذة تُفتَح مرة ثانية. لقد هرب منها شخص ما. ارتعدت. صرخت مناديًا أمي كما اعتدتُ دائمًا في كوابيسي. قفزت من مكاني وجريت تجاه زر المصباح. أُضيئت الحجرة. دقات قلبي تتسارع بأعلى درجاتها، وريقي جاف كأني في "سقر"، سمعت أصواتًا غريبة.

جريت بأقصى سرعة تجاه النافذة وأغلقتها، شعرت بيد تلمسني, يد غريبة, ناعمة وباردة وصلبة. صرخت ثانية ثم هرولت

تجاه الباب أنادي المشرف. ولكنه لم يسمعني. وبعد برهة جاء إليَّ بهدوء. حكيت له، قال: إنها الريح. أنكرت: لم تكن هى. كان هناك أشخاص. فجأة ظهر عامل من أهل الكنيسة فرسم على صدره علامة الصليب، وقال: فليبارك الرب شهداءنا ورسلنا.

ثم سألني:

- هل سمعت أصواتاً أنت أيضًا؟

- أنا أيضًا!

إذًا هذه حقيقة. هذا المكان مسكون. ارتعدت كطفل صغير واستغرب المشرف، ثم قال: سأتصل بأمن الكنيسة.

قلت له:

- من هؤلاء؟

فقال: إنها أرواح الرهبان الذين كانوا يدرسون هنا منذ فترة. معظمهم انتحر أو ذهب إلى المصحة، وبعضهم اختفى. وبقي هذا المكان معزولاً. ولم يعد يأتي إليه أحد من الرهبان أو دارسي اللاهوت، فقررت الكنيسة والبلدية تحويله إلى نُزُل مقابل أجر زهيد. تذكرت صديقى الذى كان يدرس في "جامعة الأزهر" ويقيم في مدينة الطلبة، وحكى لي كيف أن المدينة كانت م ملوءة بالأشباح، وخ صوصًا عندما تنقطع الكهرباء ؛ فكان الطلبة يصرخون: "عوض... عوض". وعوض كان اسم الشبح الذي يقال: إنه يظهر لهم، ويقال إن عوضاً هذا اسم "فني الكهرباء" الذي صعق أثناء إصلاحه لعطل في الكهرباء، أو إنه أحد الطلبة،

قتله أحد أصدقائه في الظلام بسبب ثأر قديم. وكان اسمه عوض أيضًا.

وظل شبحه يظهر للطلبة كلما انقطعت الكهرباء، وأصبحت عادة أن يرددوا اسمه.

عندما طلب المشرفُ أفراد الأمن ، جاءوا طبعًا. وأُعلِنت حالة الطوارئ. ونظر لي رجل الأمن نظرة إشفاق. واقتربت مِنّي سيدة الأمن وربتت على كتفي وكأني طفل صغير.

قالوا: احكِ ماذا رأيت وماذا سمعت؟ حكيت لهم.

كانت تعبيرات وجوههم وأنا أحكي تخيفني؛ لأن تصديقهم لي أرعبني. إذًا الأشباح حقيقة.

- قالوا: ماذا تريد؟

- قلت: أريد أن أغادر هذا المكان فورًا.

- قالوا: الوقت تأخر، ولا توجد وسيلة نقل تذهب بك إلى دبلن، وتاكسي الأجرة غالٍ جدًّا.

قلت: ليس مهمًّا.

فاتصلت مشرفة الأمن بتاكسي من محمولها.

فجاء بعد برهة. كان كتلة من اللحم، ولكنه طيب الوجه بشوش.

- ثم قال: أين هو؟

فأشاروا إليَّ.

فنظر ثم قال: ليست عادتهم أن يظهروا للغرباء، كيف حدث ذلك؟ ثم أضاف: أنت مُباركٌ وتقيٌّ لذلك سمعت هذه الأصوات.

وكنت أشعر بالنعاس والإرهاق ، وأريد بشرًا حولي فقط، واستأنستُ بوجودهم، وبخاصة المشرف وسائق التاكسي الذي قال لى: ساعات قليلة وسيظهر النهار، والجو الآن بارد وعاصف وممطر في الخارج، وأخشى أن تمرض، فأنت مثل ابني، يمكنك أن تعيش في نُزُل الطلاب للجامعة المجاورة.

فكرة أن أمكث في "مانوت" كانت فكرة عبثية؛ فهناك أشباح، وخيال دراكولا، وأسنانه لا تزال عالقة في أعناق ضحاياه، ولكني من فرط الإعياء وافقت على المثول لرغبتهم. وكان الخوف يملؤني آنذاك.

***

5

عندما تركت "سانت مانوت"، لم أدرِ ماذا أفعل؟ وأين أبيت؟ وحيدًا، ومعي حقيبة ثقيلة تكسر كاحلي، فذهبت إلى بيت طلبة جامعة ترينتي كولوج حيث سأدرس، ولكني وجدت سعر الإقامة مرتفعًا جدًّا، ثلاثين جنيهًا أيرلن ديًّا (أي ما يعادل ثلاثمائة جنيه مصري) في الليلة، وهذا فوق طاقتي. خرجت حزينًا، ولكني فرحت بهذه الجامعة العريقة التى بنتها الملكة إليزبيث عام 1562 وأننى أشاهد مبانيها القديمة الراقية، والتماثيل التي تتوسط حرمها .

دخلت متحف الجامعة، وشاهدت (The Book of Kells) كتاب "الكلز" الذي وجد في دير "كلز" بمقاطعة "ميت" في أيرلندا، وهو أقدم كتاب ديني في العصور الوسطى، كتبه الرهبان الكولومبيون في مقاطعة "أيونا"، وعلى هوامشه رسومات قديمة، وحروفه تحفة فنية، وهو يسجل أعمال الرسول "متى".

تذكرت والدي الذي نسخ المصحف الشريف في سنة كاملة لصديق أمريكي اسمه "جيمس" وكان له أصل أيرلندي أيضًا، كان جميلاً وكريمًا. كان يأتي لأبي كل يوم يحمل له زجاجة المياه المعدنية وعصير البرتقال. ويجلس معه بعض الوقت. كان ينبهر بخط أبي الجميل و بخاصةً النسخ منه. كان أبي يجلس بعد صلاة

الفجر حتى الضحى ومن أفول الشمس حتى بعد صلاة العشاء ينسخ المصحف. كان مثل الطالب الأزهري الريفي المجتهد الذي جاء لمهمة يجب الانتهاء منها. أخذ "جيمس" المصحف وذهب إلى أمريكا ولم نره ولم نسمع عنه مطلقًا. قال لوالدي إنه سيسمي نفسه أحمد إبراهيم. ولكن لماذا أحمد ، ولماذا إبراهيم فلا نعرف! انبهرت بالمكتبة القديمة، وأيضًا خَطَوتُ على الخضرة في ملاعب الكروكيت –اللعبة الإنجليزية الشهيرة.

خرجت من الجامعة، وأكلت سمكًا وبطاطس fish and chips، واتصلت بأستاذتي رئيسة القسم، وأخبرتها أنني لا أجد مكانًا آوي إليه. سألتني عن المؤتمر، فقلت لها: عندما أراكِ سأحكي لكِ، فطلبت مني الحضور إلى الجامعة لتدبر لي أمر مسكني. ثم دعتني إلى بيتها وقالت: سنتناول الغداءً ثم أصطحبك إلى منزلك الجديد. كانت ممتلئة الجسد، شعرها يسترسل على كتفيها بحرية. ورغم من أنه دب فيه اللون الرمادي فلنه يعلن عن حضوره الأنثوي.

كانت لديها طريقة في الكلام تنم عن شخصيتها القوية، ولكن كانت تتلعثم في حديثها، عندما تكون متحمسة لشيء ما. عيونها بها طيبة مثل عيون كل الأمهات الحانيات. أخرجت من الفرن دجاجة كانت قد طَهتها قبل ذهابها إلى الجامعة،كما قالت، تناولناها مع البطاطس المهروسة وكان يتوسطنا ابنها "رافائيل" الذي بدأ يتحدث فجأة عن "ألف ليلة وليلة"، وهذه الجنيات التي تسكن العوالم السُّفلية والبحار والمحيطات، وأن هناك تشابهًا بين أيرلندا

والشرق في إيمانهم ا بالجن، وقال: إن هناك جنيَّة تسمى ساحرة كلكانى" Kilkenny" تسكن جبال أيرلندا وتحوم في كل أرجائها، وإذا قابلتك صُدفةً، فإنها تقع في غرامك، وإذا عشقتك تصاحبك في كل شيء، وهي الدنيا ربما تعطيك كل شيء، ولكنها في النهاية تغضب عليك، وتأخذ منك كل شيء، نظرتْ إليه والدته وسألته: هل لك أن تتحدث في موضوع آخر؛ ربما شعرتْ أنني قد شرد ذهني ورأيت الجنيَّات يتراقصن على مزلا ج النوافذ في الحجرة، وجلست تشاركنا الطعام على جدائل شعرها الأسطوري. قالت بعد أن شعرتْ بتوتري: هل تريد أن تسمع بعض الشِّعر؟ فأجبتُ: لِمَ لا؟ قليل من الشِّعر لا يضر. قالتْ: هناك شاعرة أحبها كثيرًا اسمها EiLean Ni ChuiLLeanain

وسأقرأ لك قصيدة من ديوانها "الثعبان البرونزي" عنوانها:

درس في اللغة

أيام الآحاد شاهدت النُّسَّاك خارجين

من صوامعهم إلى قلب النور.

كانت بقعتهم مزدحمةً مثل بيت النَّحل

احتشدوا جميعًا بجوار أكتاف من الصُّخور-....

قطع قراءتها للقصيدة صوت الهاتف وقالت : آسفة مكالمة مهمة من زوجي.

أستاذتي هى أيضًا شاعرة من مدينة "كورك" في أيرلندا الجنوبية. متزوجة من شاعر كبير، ذات طبيعة متفتحة، تعشق الشرق وتتمنى زيارة مصر. هي التي دعتني للحضور الأيرلندي

بعدما تراسلنا لفترة طويلة عن طريق الإنترنت حيث أقوم ببحث في الأدب الأيرلندي، و خصوصًا في كتابات "شميس هيني" و"جيمس جويس" وعلاقتهما بالأرض والمستعمر، ومقارنته بالأدب الفلسطيني، وبخاصة في أشعار محمود درويش. فرحَّبت بي وسهَّلت لي مهمة السفر بأن خاطبت السفارة الأيرلندية في القاهرة التي كانت ترفض سفري ؛ نظرًا إلى عدم توافر النقود اللازمة للدراسة، وأعطتني الفرصة لأستمع إلى المحاضرات واستخدام التسهيلات المكتبية والجامعية. وهي أيضًا طلبت أن أترجم لها بعض القصص التي أكتبها؛ لكي تتسنى لها قراءتها، وهي التي نبهتني أن هناك مؤتمرًا في "مانوت" سيحضره "شيمس هيني" وسيقرأ شعره هناك. فقررت السفر أسبوعًا مبكرًا لكي أحضر المؤتمر وأراه، ثم أذهب إلى "دبلن" حيث الدراسة لمدة سنة. ولكنى بسبب ما حدث فى مانوت لم أستطع أن أراه. .

6

لحظة دخولى المنزل الذي سأقطن فيه، تصطحبني أساتذتي، كانت هناك سيدة عجوز, تجلس وحيدة على أريكة، كنت دائمًا أخاف من العجائز وأهرب منهم وأرهب نظراتهم التي تذكرني دائمًا بالخرف.وملأني إحساس بالرعب من هذا الشعر الأبيض الذي يذكرني بشعر سيدنا نوح وهو يجمع أهله لحظة الطوفان. وكأن عطر القبر يسكن هذا المنزل فتشاءمت وشعرت بالغثيان، شَعرَتْ أستاذتي بما يراودني من أحاسيس قالت: "معتز، هذا مكان مؤقت لحين البحث عن سكن آخر". ثم ساعدتني على نقل حقائبي من سيارتها إلى مدخل المنزل.

فور رحيلها صعدت أنا وصاحب المنزل إلى الحجرة. رجل وصل السبعين، ولكنه قوي البنية، صارم الملامح، جهير الصوت، أبيض الشعر مثل والدته أرشدني إلى كيفية استخدام عداد الغاز، وذكر أنه يجب أن تضع نصف جنيه لتطهو وجبة واحدة ولتدفئة الحجرة لمدة ساعتين، ونصف جنيه لاستخدام الكهرباء ليومٍ واحدٍ. ونصف جنيه للاستحمام مرة واحدة أيضًا. وكلما استهلكت الطاقة، دفعت أكثر. تذكرتُ خبرًا قد قرأته في جريدة الأهرام أن "أيرلندا تستورد الغاز الطبيعي من مصر عن طريق أنابيب غاز تمتد تحت البحر"، وأن إسرائيل أيضًا تأخذه بثمن بخس "شيكلات

معدودات". عندما خرج أغلقتُ الباب وراءه، وشعرتُ ببرودة القطب الشمالي تسري فى جسدي، وكأن الوحدة هي البداية، والغربة شبح ابتلعني.

عازفات الهارب.

Harp players.

7

كأني أسقط من السماء،
أو يهوي بي الطير في مكان سحيق،
وكان السقوط مدويًّا وعنيفًا.

هكذا حالي بعد أن تسربتِ مِنِّي
وانسكبت محبتك
على أرضك الخائنة.

ملابسي **مبللة من أثر المطر المنهمر. خلعت عن جسدي المعطف الذي أعطتني إياه أمي قبل سفري. وقالت: معتز، هذا سيقيك من برد الشتاء، ولكنها أعلنت بنبرة تحذيرية: "حافظ عليه فإنه ملك لأخيك، وعُد به".**

وضعت المعطف على الطاولة التي تتوسط ممرَّ بهو الكلية، وذهبت لأحضر كوبًا من الشاي من الكافيتريا؛ لعلَّه يبعث الحرارة ويمحو رائحة البرودة من عروقي.

في عودتي ووسط زحام الطلبة والمترددين على الجامعة رأيتها، بيضاء البشرة، ممتلئة الأرداف، وواضحة التكوين، تظهر سمنتها بوضوح وبخاصة لارتدائها البنطلون الإسترتش الضيق.

ابتسمت وتعمدت أن أحدثها.

فقالت: هل يشاركك أحد في هذه الطاولة؟

ومن دون أن أرد نهضتُ من مكاني وأفسحتُ لها الطاولة، وأبعدتُ حقيبتي ووضعتُها جانبًا. وابتسمتْ دون أن تعطيني فرصة أن أتأملها، كانت ودودةً جدًّا وسألتني من أي بلد أنا، فأجبتها على الفور: من مصر.

فردَّتْ بفرحة ودهشة:

أوه... مصر – الأهرام- حلمي أن أزور مصر.

مُلئتُ زهوًا. نظرت إليها وهي تلتهم طعامها، واستمعت إليها وأنا أطبق يدي على كوب القهوة الذي ازدادت حرارته.

اسمي "سيمون"، أدرس الموسيقى وأمارس الغناء، وأقوم أيضًا بإدارة فرقة غنائية تهتم بالموسيقى العالمية، هدفها أن توحِّد شعوب العالم من خلال الموسيقى . نختار من كل قطر أغنية وننشدها في حفلاتنا، فقلتُ: الموسيقى الأيرلندية تتشابه كثيرًا مع الموسيقى العربية، ربما لاشتراكنا في المأساة نفسها ، لنا مع الحزن والمعاناة طريق طويل، الإنجليز، دمرونا .. أقصد احتلونا أيضًا. مشينا ثم استرحنا وافترشنا الخضرة. كانت سعيدة، جاءتني شهوة الغناء فغنيت، ويبدو أنها كانت سعيدة، وقالت بلهفة وحماسة: "صوتك جميل".

ازدادت الثقة بداخلي.

قالت: أريدك أن تدربني على أغنية من هذه الأغاني، ثم استرسلَتْ بفرحة:

أحفظ أغنية عربية كان قد علمني إياها صديقي السابق. كان مغربيًّا:

آه يا زين آه يا زين العابدين

يا ورد مفتح بين البساتين

ضحكتُ وقلتُ: "المغرب طريقنا إلى العالمية".

خرجنا من الجامعة.

قلت: جائع.

سألتنى: "أتريد أن تأكل في مطعم "سوبر ماكس" بشارع أوكونل؟.

قلت: "لا".

أريد أن أطهو الطعام بنفسى. فلقد سئمت الطعام الجاهز.أفتقد والدتى؛ كانت دائمًا تجهز لي الطعام حتى بعد منتصف الليل.

قالت: كل الرجال يحبون أمهاتهم، ثم أضافت مبتسمة: وأنا أيضًا. وضحكنا.

خرجنا من الجامعة وذهبنا إلى متجر" ماكس آند سبنسر" في شارع جرافتون. شارع جميل، بوغم الزحام تشعر أنه هادئ وحزين.

نتجول في السوبر ماركت، أشعر بالإحباط، البضائع المتراصة في كل جانب تستفزني، وأقول لنفسي: ثقافة استهلاكية.

عند خروجي من المتجر أنظر إلى عازفي الأكورديون الرومانيين. موسيقاهم تبعث فيَّ الحياة، يقفز قلبي بين ضلوعي وترفرف الروح محلقة عالية تتراقص على أعمدة الإنارة في الشارع وتتسلق مظلات الحوانيت، ثم تطير وتهبط على أصابع الأكورديون تغازل أصابع العازفبن الرومانيين ، ويضحكون لي بعيونهم المرهقة وبشرتهم الخمرية.. نشعر أننا أبناء عالم واحد.. يتحمسون للعزف أكثر، وكأني أنا ابنهم الوحيد، وكأنني أنا اليد الوحيدة الحانية التي تعطف عليهم في هذه الغربة. ألقي إليهم نصف جنيه أيرلنديًّا، فيبتسمون، وأهز لهم رأسي طربًا، وتمشي الموسيقى ورائي تحفظ ظلي.

وتذهب "سيمون" مُسرعةً وأراها وهي تبدل دراجاتها ويختفي ظهرها وأردافها في الزحام في شارع "وليم".

قبل أن تذهب تبادلنا أرقام الهواتف، وقلت لها: يجب أن تتصلي بي من فترة ما بعد الظهر ؛ حيث إنني أقرأ حتى ساعة متأخرة، وأنام بعد مشاهدة التليفزيون لفترة قصيرة. فأكدت أنها ستتصل بي لأنها تريدني فعلاً. شعرت بوجودي مرة ثانية بعد الغربة، وأن هناك امرأة تريدني وتريد تأكيد صلتها بي وبوجودي.

8

جميلات دبلن

في بداية وجودي فى جامعة "ترينتي كولوج" لم أكن أستطيع أن أميز طبيعة فتيات الجامعة ؛ فلم أكن أدرك هل هن متحفظات وخجولات، أم أنهن لا يرحِّبن بصداقة شاب مغترب. كُنَّ لا يتحدثن معي، ولم أكن أجد الحوار المناسب لكي أبدأ معهن. ربما كنت أنا أيضًا خجولاً، أو ربما معرفتي بالنساء ضئيلة أو لديَّ أفكار مسبقة وخاطئة عن المرأة الغربية، بأنها سهلة ومتاحة. إذًا لماذا هناك صعوبات في التعرف إليهن؟ كانت الفتيات الصغيرات يهرولن دائمًا نحو المكتبة أو قاعات الدرس. كانت عاملات الكافيتريا طيبات، وكن يضحكن معي كثيرًا وعندما أقابلهن بوجهي الحائر والتائه كن يبذلن أقصى جهدهن ليخرجنني من هذه الحيرة؛ لذلك اعتبرتهن صديقاتي. ومن حين لآخر أخرج من المكتبة؛ لكي أتحدث إليهن وأحتسي الشاي أو القهوة أو أتناول تفاحة. كن في أحيان كثيرة لا يقبلن نقودًا، ويقلن: "هذه تحية لصديقنا المصري الذي يفتقد والدته كثيرًا".

***

قالت "سيمون": مظهرك يدل على انك غنى، وأنا بنت فلاحة فقيرة، أعتقد أنني لا أناسبك، أليس كذلك؟

- قالتها وضحكت، ثم سألت نفسي: لماذا تعتقد أني غني؟

حاولت أن أصارحها بأحوالي، فحكيت لها قصة احتياجي إلى المال، وأخبرتها: أنا هنا لأدرس وليس للنزهة. نعم أريد مقابلتها في كل لحظة، ولكن ليس هناك وقت ولا نقود للإسراف والإنفاق عليها، ولا أتذكر أنني يومًا أغدقت عليها أو أنفقت عليها، على العكس، فقد أبدت تفهُّهَا لحالي وظروفي، وفهمت أنني دارساً للدكتوراه وأحتاج إلى المساعدة، وأظهرتْ من كرمها ما أخجلني منه. قالت لي مرَّة: نعم هناك نساء يعشقن الرجل وما يملك من نقود، وللرجل حق كفالة المرأة في كل شيء، ولكنها مختلفة. حيث إنها قد تحررت من صك العبودية والأفكار التقليدية، وأن الحب فقط هو العقد الذي يربطها بالرجل. نصحتني أن أعمل فشكوت لها أن الدراسة تأخذ معظم الوقت، وأنني لديَّ أبحاث يجب أن أنتهي منها فأضطر للمكوث في المكتبة حتى وقت متأخر للمطالعة، ولتصوير ما يلزمني من مذكرات، وأنني لا أريد أن أعود إلى القاهرة دون أن أحقق ما جئت من أجله، وأنني أحببت الحياة هنا برغم المعاناة، وتعودت على سلوك الناس، وبدأت أحصل على بعض الثقة في ذاتي.

***

قابلتني "سيمون" بجوار الجامعة، اعتلت دراجتها وأخذت تمسح العرق عن جبهتها، وقالت: لقد أرهقتني البروفة، لقد اقترب

ميعاد الحفل. كانت مبتسمة دائمًا، هذه المرة كانت ترتدي زيًّا غريبًا؛ تنورة خضراء واسعة (بليسيه) بكرمشات، وبلوزة حمراء مزركشة، فكانت تبدو كإحدى بنات البدو أو الغجر وقد عقصت ضفيرتيها حول رأسها فكانت تشبههنَّ تمامًا. قالت: سأدعوك للغداء، سنأكل طعامًا صينيًّا: "نودلز"، وأرزًا مطهوًّا بالبخار، و"سبرنج رولز"، وشوربة قمح بخضروات البحر، وجمبري بالأناناس و أيس كريم مقليًّا بالعسل، وسنشرب شايًا أخضر بطعم الياسمين.

لم أعلق على قائمة الطعام و لكنى قلت : إن السماء و الأرض و البحار و السحاب سيتعاونون فى صنع هذه المائدة. ثم أخبرتها أنني أريد أن أعمل ؛ حيث إنني أنفقت معظم ما لديَّ، وإن لم أجد عملاً فسأضطر إلى الرحيل.

قالت: لا تقلق؛ لست وحدك. معظمنا يعاني، البطالة مرتفعة رغم انتعاشة الاقتصاد وانضمامنا إلى الاتحاد الأوروبي ولا توجد غير الأعمال البسيطة، مثل العمل في المطاعم أو البارات.

قلت: لا أريد أن أعمل في بار؛ لا أحب الخمر، ولعن الله حاملها وساقيها.

قالت: سأحزن كثيرًا لو تركتني وعدت إلى القاهرة، لقد اعتدت عليك، ثم قالت: سأحاول أن أساعدك.

ثم قالت بحماستها المعهودة:

هل تدرِّس الموسيقى؟

قلت: لم لا؟

قالت: إذًا ستعطينني دروسًا في الغناء العربي؛ لأني أجمع الأغاني من مختلف أقطار العالم، من: نيجيريا و إسبانيا وكوستاريكا وتركيا والسويد، وأعلمها للفرقة التي أديرها، سأعطيك خمسين جنيهًا في الساعة. هل هذا يروق لك؟

قلت: أفضل من لا شيء.

9

"العالم مكتمل و أنا خارجه، أبكي وأصرخ : آه، أنقذنى من قذفى خارج حلقة الزمن." فرجينا وولف: الأمواج.3

أسكن في حجرة صغيرة تطل على حديقة خلفية، بها أثاث بسيط ولكن، ما أزعجني أن السرير لا يوجد عليه فراش ولا أغطية. وعندما ذكرت ذلك علقت أستاذتي بأنها ستدبر الأمر. كان بها مذياع، وأقرضني جاري تلفازًا "أبيض وأسود" كنت أتركه يعمل طوال الليل؛ كي يطرد إحساس الوحدة من حولي، وخيال السيدة العجوز. مكثت في هذا المنزل الغريب فترة لكي أتعود على كهف الوحدة، وعلى رائحة غرفتي الباردة. فقد كانت الكهرباء تنقطع فجأة، أو ينفد الغاز قبلما ينضج الطعام. أو يسقط على جسدي الماء البارد عند الاستحمام؛ نظرًا إلى عدم وضع النقود الكافية في عداد الغاز أو السخان. شعرت بالفقر والحاجة، والظلم أحيانًا من هذا المالك. تقاعست عن دفع الإيجار الأسبوعي للحجرة؛ لنفاد ما معي من نقود، وانتظار والدي لكي يرسل لي بعض الذى وعدنى به ، ولم يفعل . صاحب المنزل تضايق مني، وأخذ يتجهم في وجهي. وفي يوم ما صعد إلى الحجرة ونهرني

محذرًا: إن لم تلتزم بدفع الإيجار في موعده فسأطردك من الحجرة. صممت ألا أغادر المنزل واستدعيت البوليس، الذي قرر أنه من الأفضل أن أترك المكان فورًا، ولكني طلبت مُهلة لأبحث عن مسكن آخر، فوافق.

في رحلتي اليومية، أستقل الأتوبيس. أجلس دائمًا بجوار النافذة، أنظر إلى حدائق المنازل وأتأمل زهور الديفدوليز التي كانت تشبه النرجس. بريئة ورقيقة، أتذكر ابنة أختي الصغيرة وهي تبكي لحظة رحيلي من القاهرة! أمر بجوار جامعة "تري نتي كولوج". أنظر إلى الساعة في قمة المبنى. السماء قريبة جدًا، ومتوقَّع سقوط الأمطار، أختبئ من الأمطار بجلوسي في مقهى "بوليز Bewley's " أتناول الشاي، وأتجاذب أطراف الحديث لمدة ساعة مع سيدة عجوز وصلت الثمانين، فتحدثني عن الشعراء الأيرلنديين. تفضِّل "دبليو، بى، ياتس" و"بول مولدون"، ولا تحب " شيمس هيني"، وترى أنه يهتم بالصور البلاغية أكثر.

قالت إن "ياتس " أحبها وكتب عنها قصيدة "وردة أيرلندا "، مثل "مود جن Maude Gonne".! حدثتها أنا أيضًا عن سعد زغلول و"دي فليرا" ورسائلهما السرية الخاصة بمحاربة الإنجليز وطردهم من أيرلندا ومصر عام 1916 وعام 1919.

أخرجُ من المقهى، أمرُّ على كوبري "أوكونل"، أرى بائعات الزهور ينادين على زهورهن، وأبتسم لهن فيبادلنني التحية. أطلب

منهن أن آخذ صورة بجانبهن فيتأهبن لوضع سينمائي ؛ واحدة منهن لا تهتم، والأخرى تبتسم مثل "مارلين مونرو". أسرح في شارع "أوكونل"، أدخل مكتبة "أيسون Eason" أتجول بين أرففها. أهبط الدور السفلي وأقرأ لمدة ساعتين، ثم أصعد مرة ثانية أتخبط في أسماء وصور كثيرة، وتجذبني رواية "إله الأشياء الصغيرة The God of Small Things" وأتعجب من الروائية وأتساءل: أهناك إله للأشياء الكبيرة والقضايا الكبرى وإله للأشياء الصغيرة فقط ؟ هل هى من السيخ أم بوذية أم مسلمة؟، طاغور وأشعاره ،غاندى و مغزل الصوف وجسده العارى النحيف و الشجاعة امام الطغاة. أصبحت شغوفًا دائمًا بالكتاب الهنود ومعتقداتهم، وخطاب ما بعد الاستعمار – وأقول : لديهم الشجاعة لمناقشة علاقة الدين بالدولة، والمقدَّس بالخرافة، وفتح لهم "سلمان رشدي" الطريق بآياته الشيطانية، ول تذهب فتوى الرئيس الخميني إلى حيث تشاء.

أتأمل الكتاب برهة، ثم أقرر شراءه.

أخرج من المكتبة. وأمر بجوار "GPO" مبنى هيئة البريد العمومية، أنظر إلى التمثال التذكاري لشهداء ثورة 1916.

أتذكر الرجل الكبير الذي قابلني مصادفة في حديقة "ستفين جرين"، وأخذ يشرح لي تاريخ أيرلندا كله، عندما تجول معي في شوارع المدينة، يحكي عن أسرار كل بناء معماري وأسطورة كل تمثال في مي ادين "دبلن". وأخيرًا وقف طويلاً أمام هيئة البريد

العمومية، وقال: هنا فقدنا شهداء كثيرين. كان الموت تافهًا أمام تحقيق الاستقلال.

ثم قال لي: كل يوم أمر من هنا وأصلي لهم، وأرى أرواحهم تحوم حول أيرلندا ليلاً؛ تحرسها من الأعداء وعودة الإنجليز مرة ثانية، وأضاف: لا تعتقد أن أيرلندا كلها مُحبون؛ فهناك خونة يريدون بيعها مقابل حفنة من الجنيهات.

أرغب في إرسال خطابات إلى بعض أصدقائي، ولكنى أؤجل الفكرة إلى الغد.

أصطدم باللاجئين من إفريقيا ومن ألبانيا ومن رومانيا و من أرمنيا، ومن العرب، و خصوصاً الجزائريين الذين تعودت على وجودهم وأتعرف إليهم بسهولة، عن طريق اللغة أو الشكل، وهم كذلك يفعلون. أيضًا يبادلونني التحية، ويقولون: "أهلاً يا مصري".

قلت: كيف عرفتم؟

قالوا: عرفنا من عينيك ونبرة صوتك ولهجتك ياخويا.

-وأنتم من الجزائر؟ ثم سألتهم: هل تحبون وردة الجزائرية؟

-رد واحد منهم: نحب عبد الحليم حافظ وأم كلثوم، وعمرو دياب "حبيبي يا نور العين" .

-ثم بدءوا الغناء وشاركتهم. تحدثنا عن السياسة وعن الوضع في الجزائر، وعن الحركة الإسلامية هناك، ثم تحدثوا عن السادات و عن زيارته لإسرائيل، فأقول : كانت المعاهدة قرار شخصى منه فقط ،ولم يكن يريد حربًا أخرى، فرد أبو علم : و لكن

ماذا فعلتم بالآرض هذه هى المشكلة الكبرى ؟ فقلت له: السياسة صحراء يملئها الشوك و الغموض، وعلى العموم فى حالة السلم هذه نحن افضل مما كنا عليه فى الماضى، كفانا حروب ودمار. وأضفت قائلاً : معرفتى بسياسة الرئيس السادات ليست عميقة ويجب أن أقرأ عنها كثيراً ، فقد اغتيل وعمرى عشر سنوات، والفائدة الوحيدة التي أخذتها من معاهدة السلام هي منحة "الفولبرايت" التي تقدمها المعونة الأمريكية للباحثين في مصر لتطوير أبحاثهم،الصراع في مصر الآن ليس فقط سياسيًّا، بل أيضًا كيف تكسب قُوْتَكَ اليومي؛ لقد أصبحنا في صراع من أجل البقاء و أعتقد أيرالندا لديها نفس المشكلة . وعلى العموم هي غلطة الاستعمار الذي خلَّف أنظمة متخبطة ، لقد ذهب الاستعمار من الجزائر، ولكن فرنسا موجودة فيها وكذلك الإسلاميين الجدد."

كانوا يستمعون إلي باهتمام، ولكن لم أكن أريد أن أتحمس أكثر من ذلك حتى لا يتضايقوا. وقلت لنفسي: إنك لست في محاضرة.. عش لحظات إنسانية طبيعية. فابتسمتُ لهم، دعوتهم لتناول الغداء معي في المنزل.

"أبو علم " الشاب ذو الوجه الأسمر رحَّب وقال بحرارة: لِمَ لا؟ نريد أن نأكل طعامًا مصريًّا. ولكن الآخر رفض متعللاً بأن الوقت قد تأخر. فحددنا موعدًا نتقابل فيه لاحقًا.

***

10

"الأشياء السرية والمخزية دائمًا ما تكون جميلة بشكلٍ مرعب"

دى.إتش. لورانس: رواية قوس قزح.[4]

هل أتحقق مع امرأة أخرى غير حبيبتي "سهام" ؟، حقيقي إن لها عالمها المختلف عني تمامًا، ولكن ربما نتقابل يومًا.

"سيمون" جاهزة لعملية العشق ومستعدة، وفاتحة لي كل أبوابها لكي أحتلها. فقد سلمت لي كل مفاتيحها ، وحكت لي عن كل أسرارها.

بعد عدة لقاءات قالت: إنها كاثوليكية ، وأحيانًا تذهب إلى الكنيسة، وتعترف أمام الكاهن. ولكن قالت بخجل وابتسامة: لقد عرفت ثلاثة رجال من قبل، ثم قالت فجأة: أحترمُ الإسلام؛ يحافظ على إنسانية المرأة. منذ أن عرفتك وأنا أقرأ عن الدين الإسلامي.

ثم قالت: "معتز"... أنت تروق لي ؛ فأنت عطوف، وذكي، ومثقف. أرجو أن تسامح أخطائي السابقة، سأبدأ من جديد.

توترت. إذًا هي تقرأ عن الإسلام من أجلي ، و لكن ما سبب اهتمامها بى؟.

قالت بصوتٍ مرتعشٍ :اغفر لي ترددي في إجابتي لك عن حالتي العاطفية منذ بداية لقائنا. لقد كنت مشوشة في مشاعري ؛ فلم أكن قد أنـهيت علاقتي تمامًا مع خطيبى. لقد اتفقنا على كل شيء. سأترك له المنزل وسيعطيني بعض النقود التي أنفقتها في تجديده. أظن هذا سيريحك؛ حتى تطمئن إلى أنني أنـهيت علاقتي به مطلقًا. فنحن مختلفان تمامًا.

أعتقد أنـها فهمتني خطأ، لم أقصد أن أتورط معها في علاقة عاطفية. ربما معاملتي المترددة معها أوصلتها لذلك. لم أقصد أن تترك خطيبها ولا حبيبها. فقط أرتاح لها. ليست هذه المرأة التي أريد، هي مختلفة عني تمامًا. نعم ، هي فنانة ولماحة، ولكنها مختلفة. حاولت أن أوضح لها وجهة نظري ، ولكنها لم تعطني الفرصة. فجأة ضمتني وعانقتني وسط الشارع، وزاد ضغط صدرها عليَّ وقبلتني في رقبتي، كنت أشعر أن المارة -وحتى راكبي السيارات- يلاحظوننا. ولكن قلت لنفسي: ليس من الذوق والحضارة والرجولة أن تحضنك امرأة فترفع يديها و تنسحب إلى الوراء.

قالت: هل تحبني؟ فلم أُجِب. نظرت بعيدًا فى الأفق، فجذبتنى برفق من ذقنى ونظرت إليَّ بحب، ومدت يدها في حقيبتها وأعطتني بعض النقود، وقالت: هذه ثمن السيارة الأجرة، أعتقد أنك تأخرت ولن تلحق الحافلة الأخيرة.

- وأنتِ؟

- سأركب دراجتي، توفِّر عليَّ مصاريف كثيرة.

-ثم قالت بحماسة:

-يجب أن تشتري دراجة.

خفت أن أصارحها بأنني لست ماهرًا في قيادة الدراجات. فلم أتعلمها وأنا طفل صغير؛ لأن أبي كان يخاف أن تصدمني سيارة وأموت.

كعادتي دائمًا عندما يصيبني الإحباط واليأس أهيم على نفسي في الشوارع والحارات، أتجول دون هدف، أنظر إلى الحوانيت، أتحدث للأغراب، أسألهم عن الوقت لأفتح معهم حديثًا، أتجه نحو النهر أنظر إليه؛ لعله يعطيني إجابات. أنظر إلى مياهه، وأتعجب من طوله والمراكب التي تمر به، أجلس بجواره ساعات، أتذكر نهر النيل وكوبري قصر النيل وكوبري أكتوبر ليلاً، والسفن تمرق من تحتهما بأضوائها الباهرة، والناس يرقصون ويغنون بها.

في أوقات أخرى في "دبلن" كنت أستقل الأتوبيس، لم أكن أعرف خط سيره، ولكني رأيت مجموعة من الناس يصطفون أمام المحطة، فصعدت سألني السائق:

-إلى أين ؟

-قلت له: أعطني التذكرة فئة ثلاثة جنيهات.

-إلى أين ؟

-لم أرد.

-إذًا ستنزل في Sugar love

-لم أرد.

فضَّلت الجلوس وحيدًا. نظرت إلى المزارع والمنازل. حاولت أن أقرأ فلم أستطع، قلت أقرأ الطبيعة، رأيت جبلاً عاليًا تعلوه سحابة، وبدا كأن قمته يندلع منها بركان، فنهضت من المقعد واتجهت إلى السائق.

أريد أن أنزل هنا. نظر إلى الخلف ثم توقف، ثم فتح الباب وقال:

مع السلامة، كن حذرًا.

كان يبتسم وهو يغلق باب الأتوبيس.

تساءلت: هل أتى "وليم وردزورث" شاعر الرومانسية الأعظم الذي عاش في إنجلترا في القرن التاسع عشر إلى هذه المراعي الخضراء، هل كتب قصائده التي تمتدح الطبيعة في هذا المكان، بجوار البحيرة الساحرة؟ هل أتى "جون كيتس" ورأى العندليب وكتب أغنيته الخالدة إليه؟ هل عندما كتب جبران كتاب "النبي" كان في هذه البقعة، واقترب كثيرًا من روح الله، وجاءه النور الذي سطع على الطبيعة؟

مررت إلى الجهة المقابلة، رأيت بعض الأغنام ترعى في مزرعة مجاورة، نزلت معي فتاة، كانت تنتظرها سيارة، تعمدت أن أسألها عن الطريق طمعًا في الحديث معها، ورغبةً في الحصول على نقلة مجانية، وحدث هذا بالفعل؛ فقد تجاوبت معي، وأوصلني أخوها بسيارته حتى منتصف الجبل.

صعدت الجبل. ضد الجاذبية الأرضية يزداد ثقل الجسم.

تعمدت إيقاف البشر في الممر المؤدي إلى قمة الجبل للحديث معهم لقتل الوقت. قالوا: يجب أن تُسرع قبل أن يحل الظلام. وحذرتني امرأة من أنني لن أستطيع أن أصل إلى قمة الجبل قبل الغروب؛ من الأفضل أن أعود لأن السير على الأقدام سيستغرق وقتًا طويلاً، قلت: يجب أن أصعد حتى أصل على الأقل إلى منتصفه. ولكن بالتأكيد في قمة الجبل، تشعر بالراحة، تشعر بالحرية، تشعر بالروح تملأ المكان، وتحس الله في كل شيء.

سمعت صوت أحد الخراف يناديني، كأنه يعرف اسمي. ولبيَّت نداءه مقلدًا صوته: ماء... ماء، ونظر إليَّ الحمل، كأنه يشكو لي وحدته، وتفاهمنا فذهبت إليه، لم يكن هناك أحد بجواره، كانت عيناه تنظران إليَّ. أعتقد أنه ائتنس بوجودي ، وأنا كذلك أردت أن أبقى بجواره مدة أطول، ولكن رأيت أن الظلام قد دق أجراسه وكان عليَّ أن أستمر في السير، فتركته وحيدًا يناديني، قلبي رقَّ لحاله وتذكرت أنني يجب أن أصمت وأمضي حتى ينساني.

على جانبي الممر تعلن قطعان الأغنام عن وجودها. تذكرت "وردزورث" وسمعت أغنية الفتاة الوحيدة لوسي Lucy التي تغني أغنية حزينة. لم أصل إلى قمة الجبل فقد حل الظلام وخفت أن أُفقَد هنا، وعدت أهبط الجبل بصعوبة، ورأيت أضواء الفنادق الصغيرة، والاستراحات تملأ قاعدة الجبل. وشعرت بأنني أهبط من السماء. وفي طريقي قابلت مجموعة من الغجر قالوا لي: تعالَ معنا وستجد ما تطمح إليه، وستصل للراحة التي تنشدها، وأخذوا يهتفون ويغنون:

نحن رجال الجبال
ونساؤنا أشجارنا
رحيق الجنة شرابنا
وزهورها طعامنا
لا تفكِّر في المصائر
فالحياة رحلةُ عابرٍ
والراحة غاية المهاجر.

ثم أشعلوا النيران، وأطعموني حساء، وناولتني امرأة منهم تفاحة وقبَّلتني عند مفترق الطريق، وظل رحيقها في فمي أسابيع عديدة.

11

(تحذير):

"*إذا* قفز أحد في هذا النهر، فعليه التوجَّه إلى الطبيب فورًا؛ حيث إن هذا النهر ملوث ببول الفئران، وهذا البول إذا شربه الإنسان فإنه يصيبه بالحمى وربما يؤدي إلى الوفاة".

قرأت التحذير الموضوع على طوف النهر. أريد أن أقفز في نهر "الليفي". أشعر بالرغبة في السباحة، ربما يقودني هذا إلى نهر النيل.

" أتفكر في الانتحار؟"

"لا، مطلقًا"!

هكذا فاجأني السؤال. وهكذا رددت بسرعة عندما سألني رجل يبدو أنه قد تجاوز الستين، وقال: الحياة جميلة وأجمل ما فيها أن تقابل البشر الطيبين، لا تمل من الحديث إلى الناس، ولا تجعل في قلبك ذرة كره لأحد ؛ فالموت فناؤه في المحبة. سكت ثم اختفى، وتساقط المطر بشدة. وابتعدتُ بسرعة عن النهر الذي كانت الفئران تقفز فيه بفرحة.

***

كلما دخلت منزلي في "هرولد كروس" أسأل نفسي: هل سأموت هنا؟ فعيون السيدة العجوز تلمِّح بأشياء كثيرة عن النهاية ، وعن تحولات الإنسان من القوة إلى العجز.. كنت أراها عند دخولي وخروجي من المنزل تجلس على مقعدها وتنظر لي، وكأنها القدر القاسي الذي أتوقع انتقامه مني في أيّ لحظة، وبخاصة عندما يفيض إحساسي بالذنب وخجلي من سقوطي غير المبرر في الخطيئة. كنت أظن أنها تشفق عليَّ من هذا العناء وهذه الوحدة ؛ فهي مثلي تبقى وحيدة بعدما يخرج ابنها مع زوجته، ولكن قلت: هي لا تزال حية، إذًا فهذا المنزل يحافظ على الأرواح. ودع الأيام ترينا ماذا تفعل! صعدت إلى غرفتي، وسمعت طرقًا على الباب، وعندما فتحته وجدت صاحب المنزل أمامى الذي بدأ يصرخ في وجهي قائلاً: "أريدك أن ترحل من هنا، لا أريدك في بيتي ؛ أنت غير ملتزم بدفع الإيجار، وخلاصة الأمر أنني لا أريد عربًا في منزلي".

قلت له: أين سأذهب، وأين سأضع حاجاتي؟ لقد بحثت في كل مكان، ولم أتوصل إلى أيِّ غرفة أسكن فيها، وإعلانات الجرائد عن المساكن الخاوية لا توصل إلى حل؛ فقد اتصلت بالعديد من أصحاب الشقق، ولكن عندما يعلمون أنني عربي يرفضون، ويتعللون بأنها قد أُجِّرت، وأيضاً وضعت إعلانًا على مدخل الجامعة أطلب فيه سكنًا و لكن لم يستجْب أحد.

كدت أبكي لولا رغبتي في أن أتماسك أمامه.

ثم توسلت إليه، قلت: سأنتظم في دفع الإيجار، ولن أحدث أي ضجة ليلاً، وسأضع دائمًا العملات في عدادات الطاقة، ولن تشعر السيدة العجوز بحركتي أثناء دخول المنزل، ولن أسمع الموسيقى بصوت عال، ولن أزعج جيراني ليلاً، ولن أطلب منهم أيَّ مساعدات ولا ماعون ، إن كان هذا يرضيك. لا أريد أن أبيت في الشارع. وأرجوك ألا تخبر رئيسة القسم في الجامعة؛ حتى لا تنزعج من سلوكي فتحرمني من الدراسة في الجامعة.

ولكنه كان متجهمًا ولم يستجْ ب، ورد بعنف وكأنه أحد النازيين الجدد قائلاً: "لا أريدك في منزلي ، وأيضًا السيدة العجوز تخاف منك، وتخاف من دبيب أقدامك ليلاً. وصوت تلفازك يسبب لها الذعر... فهمت؟ لا أريدك، ألا تفهم"؟

***

يسأل معتز أحد الشيوخ ،الذي يقف دائمًا ويراه كل يوم ويحييه بجوار بائعة الجرائد العجوز عند نهاية كوبري "أكونل"، إن كان يرغب في وجوده بالرغم من أنه مصري ومغترب ، فرد بابتسامة وود: إن أيرلندا تتسع للجميع، وبذوق قال له إنه يرحب به ضيفًا عزيزًا على هذه الأرض حيث إننا كلنا ضيوف عليها، ورغم من أنه كان يشك أنه مجذوب لعدم وقوفه ثابتًا ويهز أصابعه ورأسه بحركة عصبية فإن في صوته حنان الأجداد وفي نظرته رقة الأطفال..

***

مررت ليلاً بالشارع الذي أقطن وكأن الجنيَّات يرقصن على أفرع الأشجار، وتخلق أشباحاً وخيالات تبعث الرهبة في النفس، أتوجس خيفةً، أشعر بخطوات أقدام تتبعني فأسرع من وضع المفتاح في فتحة الباب ؛ فيصدمني الضوء: وجاري الشاب الذي يقطن الدور الأرضي، الذي يتحدث دائمًا في الهاتف كان مخمورًا هذه المرة، ابتسم ومد يده لي وسلم عليَّ، ثم فتح موضوع الرحيل عن المنزل.

وسألته عن الحل، قال: سأصعد إليك حالاً. رتبت الحجرة لاستقبال الضيف، ووضعت حقيبة السفر جانبًا، وعدلت من الكنبة، وأزحت سروالي جانبًا.

دخل الحجرة يترنح، فأجلسته على الأريكة ، كان يرتدي "شورت" و"تي شيرت".. عندما جلس ظهر الشعر الكثيف الذي يغطي سيقانه، ومع وجود الشعر يبدو جلده الأبيض الأملس... ابتسم وضحك كثيرًا.

–سألته: أتريد كوبًا من الشاي؟ رد: لا... لا أريد. لقد شربت كثيرًا، ثم نهض ووضع يده على كتفي. شعرت بيده ساخنة، وأحسست بعدم الراحة والتوتر؛ فدعوته أن يجلس برفق. قال وهو يترنح:

–ليس من حقه أن يطردك من هذا المنزل. هو يكره العرب ليس إلا. الأيرلنديون أصبحوا عنصريين. نظر في عيني كثيرًا. ثم نهض و نظر حوله وقال: حجرة في غاية السوء. لماذا يريد أن يطردك منها؟ ليست الجنة! كاد يسقط فنهضت وأمسكت به. قال

وهو يمسك بذراعي ويكاد يحتضنني ثم أعلن: أنت شخص طيب القلب. ثم قال: اتصل بالمذياع RTE. احكِ لهم مشكلتك فهم متفاهمون. ولكن أرجو ألا تخبره أنني نبهتك إلى هذا الأمر . ثم انصرف. راقبته وهو ينزل الدرج. وجلست في حجرتي وحيدًا. أفكر فيما حدث، وأحزم ما تبقى من احتياجات.قلت لنفسى : هل أصارح سيمون بمشكلتي و أننى سأصبح بلا مأوى فى خلال أيام ؟ هل أطلب منها المساعدة؟ بالتأكيد ستطلب منى الانتقال للعيش معها . كيف وسوس لى الشيطان بهذه الفكر ه، فهى ليست زوجتي ، ولم تنهِ علاقتها بصديقها؟!.

حاولت النوم و لكن لم أستطع. كانت الحجرة شديدة البرودة ورطبة، وازداد الصقيع و جمد أطرافى. من نافذتي رأيت السماء خاوية من أيِّ سحب، وكان القمر غائبًا هذه الليلة. انتظرته كثيرًا ولكنه خذلني.

وضعت بعض النقود في عداد المدفأة الكهربائية، قربت الأريكة الكبيرة بجوار المدفأة وسمحت للدفء أن يتخلل قدمي، فسافر الدفء في كل جسدي. ورأيت من وراء النافذة الأشباح تقفز فوق النجوم وتتأرجح. فدثَّرت نفسي ونمت.

في الصباح جاء الشرطي طويل القامة يرتدي قميصًا أزرق بلون عينيه.

وقال: الحل الوحيد أن ترحل عن هنا؛ الرجل لا يريدك. ماذا فعلت له؟ أخذت أشرح له موقفي ومن أنا، وماذا أفعل، وكيف عانيت حتى أتيت إلى أيرلندا، وحكيت له عن خوفي من غضب

أساتذتي وعدم تجديد مدة البعثة. لكنه بدا وكأنه لا يفهم ما أقول. وانصرف بهدوء بعدما طلب من صاحب المنزل أن يعطيني فرصة ثلاثة أيام؛ لكي أجد مكانًا آخر أسكن فيه. جلست في حجرتي وكدت أبكي... و تذكرت أمي.

ذهبت إلى الجامعة فقابلت "جوانا" سكرتيرة القسم. سيدة تجاوزت الستين من العمر ولكن بها حيوية شديدة. حزنَتْ كثيرًا عندما علمتْ ما حدث لي مع صاحب المنزل، وقالت: أيرلندا مملوءة بالكثير من هؤلاء البشر هذه الأيام، برغم أنها لم تكن هكذا في الماضي، لا أعرف ماذا حدث. ولكنها وعدتني أنها ستبحث لي عن سكن في جريدة الـ Evening Herald؛ حيث تحتوي على جزء كبير للإعلان عن العقارات، ثم اقترحت : لماذا لا تذهب إلى المركز الإسلامى فى كلونسكى فهو يقدم خدماته لكل المسلمين، وبه أيضًا نُزُل للشباب؟ ثم أعطتني بعض الخطابات التي تسلَّمتها من المكتبة ومن البريد الخارجي. ونصحتني قائلةً: حافظ على نفسك ولا تحزن. وقالت: الأدباء دائمًا حساسون ويعانون أكثر من غيرهم؛ فتجلد ولا تفقد عزيمتك.. ثم قالت: لا تكن متشائمًا. وأنا أغادر بوابة الجامعة لأتناول غدائي قلت لنفسي: لن أهجر هذه البلدة. سأبقى في هذا المكان حتى أحصل على ما أريد، حتى لو نبذني. سألح عليكم حتى تفتحوا لي الأبواب أو تعرفوني جيدًا، وأن تزيلوا هذه القشرة التي تسمى الجلد وتتعرفوا على روحي.

سأتحدى "العنصرية"، هذه الكلمة القبيحة التي حاربها وقتلها ودفنها أحرار العالم الذين يدركون معنى الحرية والمساواة. ألم

تسفك دماء المسيحيين، والمسلمين لتحقيق المساواة؟ ألم تُرَق دماء في حجم البحور أثناء الثورة الفرنسية، والثورة البلشفية؟ هل نسينا دماء "مارتن لوثر كينج"؟ لماذا إذًا نكرر هذه الكلمة ونمارسها بوحشية؟

***

الشاب الباكستاني الذي قابلني في إدارة المسجد طلب مبلغًا من المال يُدفع "تحت الحساب" لحجز الحجرة. خمسة جنيهات أيرلندية في الليلة، ثم سلمني المفتاح، وقال: الجامع يغلق أبوابه الساعة العاشرة..فقلت لنفسى : ولكني أحب السهر، ولا أُقبِل على النوم مبكرًا. أنا مخلوق ينشط ليلاً. ثم إن المتدين قدوة، والنوم في الاستراحة المجاورة للجامع أيضًا التزام!.

كانت هناك مكتبة في الممر المؤدي لحجرة الإدارة ممتلئة بكتب في الفقه الإسلامي. لمحت إعلانًا عن ندوة عن كتاب "في ظلال القرآن" لـ"سيد قطب"، ورحلة إلى لندن لحضور خطبة الجمعة للشيخ "أبو حمزة المصري"، وفي ركن هناك رف عليه مصاحف ذات أحجام وطبعات مختلفة. وكان هناك أيضًا رجال ملتحون ونساء منتقبات لا يتحدثون العربية، ربما جاءوا من أفغانستان أو الهند. كُن يرتدين النقاب، ولا تظهر غير عيونهن الساحرات المتوترات. قلت: وكأنك في القاهرة!

بعض الشباب ابتسموا لي وحيُّوني بتحية الإسلام. عندما دخلت الحجرة أحسستُ أنني في مستشفي ولستُ في سكن. الحوائط بيضاء، والسرير معدني أبيض، والمكتب أيضًا، وفي

جانب الحجرة هناك حوض للاغتسال. لم أشعر بالرغبة في المكوث في تلك الحجرة أو ذلك المكان. وتسللت دون أن أستأذن الإدارة، وقلت: ما دفعته تبرع للجامع، وخرجت من الباب الخلفي.

لم أستطع أن أبيت في سكن المجمع الإسلامي، وشعرت بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان. لست بالنقاء الكافي الذي يسمح لي بالعيش هنا.

نعم، كنت من فترة من فترات حياتي أرغب في أن أكون شيخًا أو قسيسًا، أخدم الجامع أو الكنيسة وأعيش في المحراب لا أبرحه. أو كاهنًا من كهنة المعابد لا وظيفة لي غير خدمة الله والفقراء والتقرب منه؛ حتى أتطهر تمامًا فأصبح صوفيًّا أو نورانيًّا. تغريني حياة الزاهدين الذين يحملون أمتعتهم وراء ظهورهم، ويتركون حياتهم بكل زحامها ويذهبون بعيدًا في جماعات يفترشون الأرض ويتقاسمون ملح الأرض وخبزها وزيتها . لم أكن أطمع في أن أسقي ربي خمرًا. هذا الحلم الذي حلم به صاحب سيدنا يوسف في السجن، ولكن أن أصنع الخمر الذي لا يُسكِر، وأن أتجول في أروقة معبد أو جنبات مسجد، وحيدًا إلا من الطمع فى محبة الله وعطفه عليَّ.

أو أقيم في دير على جبل بعيد،أعيش على الكفاف حتى يتعلم قلبي التقوى ويتعود جسدي على التقشف ولكن حتى الآن أنا إنسان أحمل معي خطيئتي الأولى ولم أتعلم الكلمات التامات، فأحصل على التوبة.

فكرت في العودة ثانية، ولكني تحججت بأن بُعده عن وسط المدينة هو السبب الرئيسى، وأيضًا خوفي من الظلام المحيط بالمجمع، وفكرة أن أعود إلى المنزل قبل العاشرة جعلت إقامتي في هذا المكان مستحيلة، فرغبتي المُلحّة في أن أكون حرًّ ا قتلت فكرة أن أمكث فيه، فقررت أن أعود إلى مسكني وبداخلي إصرار أن أحارب هذا المالك المتعصب. وسألت: لماذا تنبذني الدنيا بهذه الطريقة؟ ولماذا لا ترحب الغرف بجسدي؟ ولماذا تنبذني الطرقات؟

عندما غادرت الجامع كانت تمطر، وكنت أنظر إلى المدينة من نافذة الأتوبيس: الشوارع، المنازل الصغيرة، أعمدة الكهرباء، مساحات الخضرة الواسعة، البشر الذين يهرولون ويحملون مظلاتهم، أحب الحياة، وهذا العالم الجميل، القاهرة، "دبلن". الزحام والبشر. وبالرغم من قسوة هذه الأمطار التي فاجأتني عند نزولي من الأوتوبيس، فإننى أحببتها وشعرت بأنها تطهرني وتغسلني. أيرلندا... أرض المطر والخصوبة.

***

قال لي جاري الأيرلندي "براين" ذو الجسد الفارع والشعر الأحمر والذي يملأ النمش وجهه: هذا عنوان سيدة كنت أقطن منزلها، سيدة طيبة والبيت يُحاط بأشجار الصنوبر، سيعجبك المكان، ولكني أرجو ألا تخبر صاحب المنزل أنني أعطيتك العنوان وإلا سيطردني أنا الآخر. وطلب مني التلفاز الذي أعارني إياه. فأعطيته وشكرته على حسن صنيعه. كان جاري الشاب الذي يقطن في الدور الأرضي يجلس في حجرته. عندما رآني لم يهتم فناديت

عليه، وطلبت منه أن يساعدني على حزم حقائبي التي كانت ثقيلة وكأنها مُحمَّلة بذنوب البشر منذ أن خُلِقت البشرية. فلم يستجب، وكان باردًا في معاملته لي هذه المرة وكأنه استراح لرحيلي، و كأنه أراد أن يتظاهر بعدم الاهتمام بي بعدما صددته ليلة ما زارني في حجرتي و كان مخمورًا.

***

12

ذهبت إلى مسكن السيدة "أدنا" المقيمة في "وكنستون Walkinstown" كان فى شارع هادئٍ تتراص الأشجار على جانبيه، وكان الربيع قد بدأ يفرض سطوته عليها فنمت وتوحشت خضرتها.

عندما فتحت الباب لمحت كلبًا يجلس بجوار السلم المؤدي إلى الدور الثاني، يبدو عجوزًا، ورائحة غريبة تملأ المكان. فعرفت أنها رائحة الكلب ذي العيون الذابلة الحزينة. السيدة التي استقبلتني قصيرة القامة، بيضاء البشرة، شعرها "ال جرسون" مصبوغ بصبغة بُنيَّة، وتظهر بعض التجاعيد على جانبي عينيها، ترتدي "تي شيرت" أزرق و بنطالاً برمودة أبيض. أعتقد أن عمرها قد تجاوز الخمسين، سلمت عليَّ وأجلستني، شعرتُ بارتياح حتى مع وجودي في حجرة المطبخ.

-قلت: مصري. أدرس الدكتوراه في الأدب الأيرلندي، وكاتب قصة.

-قالت: "أحب قراءة القصص ولا أعرف مصريين هنا، هؤلاء المغاربة والجزائريون يملأون أيرلندا الآن. اتفقنا على مبلغ الإيجار ، خمسة وثلاثين جنيهًا أيرلنديًّا في الأسبوع وأدفع

أسبوعين مقدمًا. قامت وقدمت لي إيصالاً بالمبلغ، ثم قالت بحماسة: حجرتك في الدور العلوي. وتقدمتني وصعدت لتريني الحجرة الصغيرة التي كان بها سرير ومكتب تعلوه أرفف للكتب، ومدفأة، ودولاب للملابس. لم تكن الحجرة تتشابه قط مع حجرتي في "هارلود كروس" إلا في أن الشباك بجوار السرير تمامًا.

قالت: يمكنك المذاكرة بهدوء هنا. ثم أضافت: "لا يوجد أحد غيرى ومستر "مارك"، يقطن الطابق السفلي رجل في حاله. ثم قالت بهمس: "بخيل". ويحب كل شيء مُنظماً. أعتقد أنك مع ذلك سترتاح له، وكأنها نسيت شيئًا مهمًّا همَّت قائلة: ابنتي أيضًا تعيش في الحجرة المجاورة لك، ثم أشارت إلى الحجرة القريبة من الحمام الصغير: تدرس الكمبيوتر وتعمل في محطة بنزين". ثم قدمت لي شايًا، وقالت بلهجة تحذيرية وبصوت منخفض: يجب ألاّ يمكث أحد في حجرتك أكثر من يومين، وهناك مرتبة إن دعوت أحدًا للمبيت معك في الحجرة، ويمكنك مشاهدة التليفزيون في حجرة المعيشة في الدور الأرضي.

من سيأتي إلى حجرتي وأنا هنا وحيد ؟ حتى في القاهرة لم أتجرأ على دعوة أحد إلى بيتي؛ فقد كان والدي محافظًا، لا نساء ولا أصدقاء، بدعوى أن البيوت حرمات، وللسلامة "صاحبي وصاحبك على المقهى". ولكنه يريد أن يكون له أصدقاء يشاركونه في حجرته. ويعبثون بأشيائه ويقرأ لهم قصصه، ويستمع إلى آرائهم وحكاياتهم، ولِمَ لا؟ ولماذا لا يدعو صديقته أو حبيبته إلى حجرته؟ سيتحدثان فقط. وربما تنزع عنه ألم الغربة

التي يعانيها. في القاهرة لم يجرؤ قط على دعوة امرأة إلى حجرته. كان يريد أن يبقى النموذج الطيب والتقي كما كان يلقِّبه أبوه. فإنه من ذرية يوسف قاهر الغواية وصاحب الثوب الطاهر غير المدنس بالشهوة المحرمة، وهو آدم قبل السقوط، وإن عظمة الإنسان أن يبقى دون خطيئة تظهر بها عورته. ثم قال لنفسه: لديَّ كتب كثيرة أريد أن أقرأها، ورواية كبيرة أريد أن أكتبها.

-"أدنا... ناوليني المجراف" عندما سمعتُ صوته نظرتُ إلى الحديقة الخلفية لأرى صاحب الصوت. قالت لى: هذا صديقي يأتي أيام عطلة الأسبوع، سائق من مدينة "منوهن" أعرفه منذ خمس سنوات. وبدأت تحكي كأنها في جلسة حميمة مع صديق قديم لم تره منذ زمن بعيد.

-دخل علينا ثم سلَّم عليَّ. وذكر اسمه، "بتريك".

-قلت: مصري واسمي معتز، قال: لديَّ معلومات كثيرة عن "ليبيا" قلت له: إنني مصري . كانت "أدنا" تغسل الصحون، ثم سألتني إن كنت أرغب في تناول كوب من الشاي مرة ثانية، ثم اشتكت من سوء حالة الغلاية ، ووعدت وعدت بأنها ستشتري واحدة جديدة قريبًا.

قال "بتريك": عملت مع كثير من العرب و بخاصة من السعودية، وليبيا. السعوديون أغنياء والليبيون أيضًا.

كان الليبيون من دون العرب يتمتعون بشعبية كبيرة في "دبلن"، وشهرة القذافي" فاقت شهرته في أي مكان في العالم، يعتبرونه بطلاً حقيقيًّا؛ لأنه الوحيد الذي تحدى الولايات المتحدة

الأمريكية والغرب وخاصة بعد حادثة "لوكيربي". ويقولون: إن له أسبابه في عدائه لبعض الدول التى لا زالت تحكم العالم بال قوة الطاغية كمستعمر، ثم سألني: هل تحب القذافي؟ لم أجب، وقلت : أحب الأدب.

لم يسأل "معتز" نفسه وهو يحتسي الشاي إن كان يحب القذافي أم لا ، ولم يسأل نفسه إن كان يحب رئيس بلده أم لا؟ ... يعلم أن أخوه يحبه و يفتخر انه فتح الطريق للأقتصاد الحر .. وكان" معتز " يعلق و يقول: أليس للعِشرة دور في خلق حالة التقبُّل والمحبة؟ فقد تعود على وجود رئيسه منذ فترة طويلة، وهو لم يعرف السادات جيدًا. ولم يره مطلقًا في شاشة التلفاز الملون، دائمًا يرى صورته بالأبيض والأسود.

ثم قال معتز لنفسه: لماذا سأله "بتريك" عن القذافي ، ولم يستفسر عن الرئيس مبارك"؟ كان معتز يرى القائد معمر القذافي كثيرًا في نشرات الأخبار وهو في خيمته مُحاطً بحاشيته وبعض الجِمال المتفرقة هنا وهناك، وأمامه فرقة بدوية ترقص وتحمل السيوف في أيديها، وكان يذكِّره بعَمْرو بن العاص عند دخوله مصر وإقامته بالفسطاط. يعترف معتز أنه حاول أن يقرأ الكتاب الأخضر الذي كتبه القذافي، والذي اشتراه من معرض القاهرة للكتاب، والذي يتحدث عن تأسيس الجمهورية الديمقراطية الاشتراكية، القائمة على العدل و المساواة و توزيع الثروات، وعن وحدة العرب، ورفض هيمنة الصهيونية الأمريكية على المنطقة العربية، ولكنه لم يفهم منه الكثير، مع أنه معجب بموقفه البطولى

فى إيمانه بالوحدة العربية و حبه لعبد الناصر حتى إن تحفظ بعض المثقفين حول تقييد القذافى للحريات و قلة الأحزاب، هو معجب بأبنه سيف الأسلام وأبن عمه " قذاف الدم" و خصوصًا لجرأتهما ورغبتهما فى الإصلاح بمنطق جديد. من سيكون الحاكم الجديد .. سيف الأسلام أم قذاف الدم ؟.. اسم غريب لشخص جميل الملامح، ولكن ما علاقة التوريث بشاب أنيق ووسيم؟ الحكم شيء آخر.

تكلمنا عن الإسلام، وعن المصريين، وعن عاداتنا وتقاليدنا. وسألني عن صديقاتي الإناث، وكم واحدة أوقعت منذ قدومي هنا، قالت "أدنا": "لا تكلم صديقي كثيرًا في مثل هذه الأمور"، ثم خرج برأي إلى إما مُتحفِّظ وإما خجول.

قالت لى "أدنا": لا تتحدث مع "بتريك" عن الإسلام لأنك ستفسده، تحدثا عن أي شيء آخر، سأل "معتز" نفسه: ماذا عن الإسلام؟ وما الذي يفسد عقل "بتريك" إ ن سمع هذا الكلام مني؟ هل عندما تحدثت عن حُرمة الجنس قبل الزواج، أو خارج إطار الشرعية السماوية قد أهنتها بهذه المقولات؟ لم أقصد أن احوله عن دينه أو أدعوه و لكن كنت اجيب عن اسئلته فقط.

لم يعرف "معتز" لماذا أمرته أن يكفَّ عن الحديث في الدين، نعم ، كان يبدو متحمسًا وكأنه واعظ يعتلي المنبر، تمامًا يردد مقولات والده، التي تعلمها في الأزهر، والتي نقلها أبوه عن جده الذي كان إمامًا لمسج د يُسمَّى "الجانبكية" في منطقة "المغربلين"، ومات وهو يصلي بالناس. هو نفسه كان على شفا الخروج عن هذه التعاليم والتعامل معها بعقله الناقد الذي اكتسبه

من قراءته للفلسفة، ومن محاوراته مع العلمانيين الذين قابلهم في مصر و خارجها. من كلامها شعر أنه يتحدث عن محرمات اجتماعية، أو كأنها منطقة حمراء مضيئة بنار جهنم. فسكت وتساءل: لماذا خشيت من الإسلام بهذه الطريقة ، وهو لم يناقش ولم يتحدث عن الكثير منه؟

استأذنت وصعدت إلى غرفتي أستريح، وعندما ألقيت جسدي على الفراش شعرت لأول مرة أنني أصبح لي بيت يحميني وأناس طيبون يحتضنونني، ولعنت صاحب السكن في "هرولد كروس".

* * *

مرت الأيام. أذهب إلى الجامعة بعد الظهر، وأمكث بها حتى العاشرة مساءً، عمال المكتبة دائمًا يطلبون مني المغادرة حتى يتسنى لهم أن يغلقوا أبوابها. كنت أتلكأ حتى آخر لحظة وخصوصًا في مكتبة "ليكي"، ولكنهم على العموم أظهروا كرمًا كبيراً في تقديرهم للعمل وللعلم أيضًا. في البداية كنت متخوفًا منهم، وأعتقد أنني كنت استفزازيًّا إلى حد ما حيث أجلس حتى آخر دقيقة من الوقت المحدد للإغلاق أو فى اللحظات الأخيرة للانصراف. ولكن بعد ذلك بدأت أفهم النظام وأتعود عليه. وقامت بيننا صداقة قوية. أصبحت أفضِّل "بيركلي": لأن بها قسم الفلسفة والأدب الإغريقي، وتعمل حتى آخر دقيقة من الوقت، ليست مثل "ليكي" ، حيث يتعجل فيها الموظفون الانصراف. ثم أخرج من فتحة الباب الخشبي العتيق للجامعة، وكأنني خارج من رحم أمي، من الحماية والاحتواء إلى التشرد والضياع،

أحمل حقيبتي وأتجول في شوارع "دبلن" وأدخل حانتها وأتحدث إلى الناس في الشوارع، ولكن كان يجب عليَّ أن ألحق بآخر أتوبيس متجه إلى المكان الذي أقطن، تمامًا في الحادية عشرة ونصف، وإلا سأضطر أن أستقل "تاكسي" وهو غالي الثمن جدًّا، وميزانيتي لا تسمح، فقد أتيت إلى هذه المدينة على نفقتي الخاصة، ولكن بدعوة من جامعة "ترينتي" بأيرلندا، وكان عليَّ أن أرتب أموري المادية هناك. أخشى أن أنفق كل ما تبقى لي. أقتصد في طعامي وشرابي وملبسي، حتى الحذاء تمزق، وترددت في شراء حذاء جديد.

عند دخولي البار كان الجالسون ينظرون إليَّ فيعرفون أنني غريب، ولكي أكسر دهشة رؤيتهم لي ورهبتي من هذا الفعل كنت أتعمد أن أتحدث إليهم، فيدعونني إلى الشراب، فأقول: لا أحتسي الخمر وأفضِّل الكوكاكولا، فيقول النادل: لا توجد كوكاكولا، يوجد بيبسي. أوافق.

يبادر مضيفي بدفع حساب المشروب. فأشكره. الأيرلنديون كرماء جدًّا في البارات، ويصبحون أكثر إنسانية عندما يشربون حتى الثمالة، ولكن أحوالهم غريبة، فهم بالنهار عمليُّون، متجهمو الوجوه، يسرعون إلى أعمالهم، ويخافون من الغد دائمًا، أما في الليل فهم دائمًا يرتادون الحانات، ويتحدثون بحميمية، ويضحكون، ويغنون. في أحد البارات سألني :

-لماذا لا تشرب الخمر؟

-لا أحب الشرب.

-المسلمون لا يشربون. أليس كذلك؟

لا أستطيع أن أكذب، فأقول: ربنا حرَّم الخمر بالتدريج.

-ولكن المسلمين الذين يأتون إلى هنا يشربون ويضاجعون النساء، وكذلك يفعلون في تركيا.

-قلت: تركيا هي المشكلة الكبرى فى ماضى ومستقبل الشرق.

لم يدرك معتز لماذا قال ذلك. هل يكره الأتراك؟ لقد درس في التاريخ أن الأتراك هم سبب تخلُّف بلده ؛ و هذا ما أدعته ثورة يوليو،فالعثمانيون هم الذين قضوا على حركة التنوير في مصر، وأغلقوا المدارس، واكتفوا بالكتاتيب، وحرموا تدريس العلوم الطبيعية، وباعوا مصر للإنجليز، و أقنعوه أنه لولا ثورة "عبد الناصر" لظل الحكم التركي جاثمًا على صدر مصر إلى الأبد. و عندما أمتد التيار الأسلامى فى مصر حاولوا أن يقنعوا معتز إنهم ليسوا مسلمين ولا ينتمون إلى الإسلام بشيء، يتبنون العلمانية على يد "أتاتورك" كدين جديد ليرضوا الغرب، وينضمون إلى الاتحاد الأوروبي. ألم يتحولوا عن لغتهم ، واستخدموا الحروف اللاتينية تيمنًا بالغرب؟ هو أيضًا يتذكر أنهم لم يسمحوا له بدخول تركيا، وتركوه يبيت ليلة في المطار أثناء قدومه من باريس؛ فقط لأن معه جواز سفر مصريًّا وليس أمريكيًّا. و لكن أليس له الحق أن يعرف الحقيقة بدون تزييف و بدون تحامل؟

قال لي مضيفي في البار: هل عرفت طبيعة الأيرلنديين؟ قلت: نوِّرني. قال: الأيرلنديون يحبون الحديث ولا يملون منه، ودائمًا

يتقابلون في البارات، ولا تطمع في أن تقيم صداقة دائمة مع شخص أو امرأة، فحالهم دائمًا متقلبة، لا تطمع في أكثر من ليلة، وخصوصًا مع الغرباء.

فقلت: هذا تعميم وأفكار نمطية يجب أن أختبر البشر بنفسى، فليس كلهم سواء.

* * *

"أولادي كلهم رحلوا، الكبرى تعيش في ألمانيا مع زوجها الفرنسي، وابنتي الوسطى تعيش في كندا مع زوجها الأمريكي، وابني الأكبر رحل مع زوجته البلجيكية إلى إسبانيا، وابني الأوسط يعيش وحده في البرتغال" .

هكذا بدأت "أدنا" حديثها عن أسرتها، كانت تحكى وهي منشغلة بغسل الصحون المتراكمة في الحوض، وأعجبني طبق من الخزف، وأحببت لون الزهور الصفراء المحددة بالأزرق الغامق، وكانت ترتدي قفازًا أصفر يتناسب مع لون الزهور. وقلت لنفسي: إنه التيه الأكبر، كل ولد في بلد.

-لا تشعرين بالحنين إليهم؟

قالت وهي تخلع القفاز من يديها وتضع بعض الملابس في حلة الغسالة الكهربائية ذات الصوت العالي:

-لقد كبروا. وهم يعيشون كما يروق لهم. لقد تعبت طوال حياتي في تربيتهم، وحان وقت الراحة.

خرجنا من المطبخ ودخلنا حجرة المعيشة. حجرة هادئة تطل على الحديقة، بها مدفئة كبيرة، وتلفاز، ومكتبة وبعض الكراسي،

وأريكة مريحة تتوسط الحجرة، كانت أدنا تحب الاسترخاء عليها من وقت لآخر، مالت على البار الصغير الراقد في أحد أركان الحجرة وأخرجت زجاجة نبيذ وكأسين صغيرتيْن، ثم بدأت في صب النبيذ. بدأت بالكأس الأول ى، فالثانية ثم رفعت كأسها تجاهي وقالت:

-نخب الصداقة.

-رفعت الكأس بدوري ولكني لم أتذوقه ا، وبقيت ممسكًا به ا برهة، فنظرت لي نظرة استغراب محملقة بعينيها في وجهي.

وقالت: الدين... ممنوع الشرب، فهمت. ثم قالت: أنت غريب.

قلت لها إنني لا أمانع في أن أجالس من يشربون الخمر، وإن عدم الشرب ليس من منطلق تدين فقط، بل لأسباب أخرى. فأنا أريد أن أظل مسيطرًا على عقلي، ولا أريد أن أفقده، ولا أريد لحظة تعاطف ولا انتقاد من أحد.

أعرف جيدًا أنه عندما أكون مخمورًا، ستحدث أشياء كثيرة ربما أندم عليها لحظات الإفاقة واليقظة. وأقنعتها أنني عندما أشرب أدخل في طور من الكآبة والحزن، وت سيطر عليَّ حالة غريبة من البكاء والتساؤل تنتهي بطرح أسئلة عديدة ليس ت لها إجابة: عن الكون، والخالق، والحياة والموت، والخيانة، والقضاء والقدر، والنساء، والرجال.

كانت بالحجرة إضاءة خافتة صادرة عن بعض الشموع المنتشرة في أركان الحجرة. وكانت أدنا تحبها كثيرًا، وتقول: تجعلني أشعر بالراحة والبدائية. كانت رائحة البخور المنبعثة من

المبخرة السيراميكية تغطي على رائحة الكلب العجوز. لم أعلم لماذا سألتها عن فكرة زواجها من صديقها "بتريك". كنت حريصًا في شكل سؤالي ألا أبدو متطفلاً على أمورها الخاصة. قالت: لم نتحدث عن مثل هذه الأمور، ثم استمرت قائلة: "باتريك" كان متزوجًا، وله ابن عمره عشرون عامًا.

كان "بتريك" يصغرها على الأقل بعشر سنوات. ابتسمت، وبصوت حنون رنان قالت:

-أتريد نبيذًا؟ ثم نظرت إلى الكأس ولم تردد السؤال ثانية، قالت:

-آه ... نسيت أشياء أخرى.

-وزوجك ألا يزورك؟

-أحيانًا، عندما يريد رؤية ابنته "برتنى". لقد انفصلنا منذ فترة طويلة، لم أكن سعيدة معه. كان وطنيًّا وعضوًا في جماعة تحريرية تابعة للجيش الأيرلندي الجمهوري، ودخل السجن لفترات طويلة. وتحمَّلت مشقَّة رعاية الأبناء وحدي. صمتت برهة ثم تناولت علبة سجائر صفراء ماركة الجمل، ثم فتَحتْها وسحبت منها سيجارة ووضعتها بين شفتها الرقيقتين، ثم ناولتني سيجارة فأخذتها. وبحركة تلقائية تناولت علبة الكبريت وأشعلت لها سيجارتها فاحتضن كفَّاها يديَّ، ثم زفرت دخانًا تجاه السقف وأشعلت سيجارتي.

قالت: أتريد أن تشاهد فيلمًا؟ ثم أدارت فيلم "بيانو "، عبَّرت عن عشقها لهذا الفيلم، وأخذت تتحدث عن العلاقة بين البحَّار

وعازفة البيانو وعشقه لها. كانت البطلة تعشق عزف البيانو، ولا ترضى بغيره بديلاً، وتعيش مع ابنتها الصغيرة، وكانت العازفة خرساء، وتساعدها ابنتها في اتصالها بالعالم، وكانت عازفة البيانو تريد أن تبحر مع آلتها إلى مكان ما. ولم تجد أحدًا من البحَّارة لينقل لها البيانو غير رجل في منتصف العمر. ولكنه اشترط عليها أن تعزف له كل يوم مقابل هذه الخدمة، عشقها البحَّار، وعندما علم زوجها بهذه العلاقة قرر أن يضع حدًّا لنزق هذه الزوجة، فقرر أن يقطع أصابعها التي تسببت في هذه الخيانة، وهذا الحب... أثناء الفيلم تحدثنا في أشياء كثيرة. وفجأةً راودتني الرغبة في أن أحتويها بين ذراعيَّ وألمس شعرها وأتحسس ملمس شفتيها، ولكني رهبت الموقف. شربت هي كثيرًا أثناء الفيلم، وثقل لسانها فنهضت من مكانها تكاد تسقط بسبب سُكرها. أخذتُها بين ذراعيَّ واحتضنتها بقوة، ومالت برأسها على كتفي وكانت حانيةً ودافئةً.

قالت: "أنت متوتر، ومشدود" فاحتضنتها أكثر.

فقالت بصوت يشبه المواء: أنا في مثل سن والدتك ولست عشيقتك. وربتت على كتفي بحنان وقالت: يمكنك أن تسهر كما تشاء. ثم صعدت لتنام، عندما دخلتُ حجرتي. قلت لنفسي:يجب أن أترك هذا المنزل قبلما أقع في المحظور.

* * *

13

في مطار القاهرة، أحمل حقائبي، تقف أختي الكبرى على باب المطار تبتسم، فأوجم في وجهها. لقد رجعت قبل أن أنهي مهمتي في "دبلن"، ثم أصرخ: أريد أن أستقل الطائرة العائدة إلى "دبلن". لا أريد العودة إلى القاهرة، فتضحك وتشدني من ذراعي، وتقول: يجب أن تغسِّل والدك وتدفنه فهو يحتضر، قطع هذا الحلم المتكرر صوت جرس تليفون يصرُّ على أن يجيب عن طالبه أحد.

أنهض من الفراش، يلبسني كسل غير مصدق أنني لا أزال في "دبلن" بعد هذا الحلم الغريب.

رفعت سماعة الهاتف. وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة:

- ألو. السيد معتز هنا؟

-نعم أنا معتز.

-أنا "سيمون" هل أنت بخير؟ لقد افتقدتك أريد أن أتحدث معك. سأقابلك عند مدخل الجامعة الساعة الخامسة.

-لم تعطني فرصة أن أرفض أو أستفسر عن سبب المقابلة.

كان المطر يغسل "دبلن" كلها ويتساقط بغزارة، ولحسن الحظ كنت قد استعرت مظلة "أدنا" وهي مظلة بنية اللون تتقاطع معها خطوط سوداء، كانت المظلة قابعة في سلة بجوار الباب، كنت

لا أحب حمل المظلة معي في الطريق كالعادة؛ حتى لا أنساها فأفقدها ونتشاجر، ولكن خوفي من أن يصيبني البرد اضطرني إلى أن أحملها معي. رأيت "سيمون" بجوار دراجتها، تنتظرني. جئت بعد الميعاد بنصف ساعة.

قابلتني بابتسامة، ولم تعلِّق على تأخري، شعرها مبلل وكأنها خارجة من البحر بعدما سبحت مسافة طويلة، جاءني إحساس أنه يجب أن أقبلها فوضعت قُبلة على خدها، ثم ضممتها إلى صدري، فارتحتُ إلى هذا الفعل واحتوتني هي أكثر.

"لقد وافقت الفرقة على أن تعلمنا أغنية جديدة من التراث الغنائي المصري " قالت ذلك وهى تنهج وتربط دراجتها في إحدى الدعائم الحديدية المنتشرة في حرم الجامعة. ثم سرنا تجاه ملعب "الكروكيت" الكبير الذي أنشئ منذ مائتي عام. كانت الخضرة بهيجة وقوية ومشذبة. ثم قالت وهى تنظر إليَّ بمحبة كبيرة وابتسامة تملأ وجهها كله:

"لا تخف فسنعطيك أجر ما تفعله لنا: خمسين جنيهًا في الساعة، أيروق لك هذا العرض؟. فتحت منظم الوقت ؛ وأخذت تحسب الأيام، ثم وضعت علامة بقلمها، وقالت:

– أيناسبك بعد أسبوعين –ربما يوم السبت –سأحدد معهم اليوم بالضبط وسأخبرك. قلت: لن أراك لمدة أسبوعين؟

– ابتسمت، ثم قالت: بالطبع لا. سنتقابل كل يوم.

فكرة أن يعلمها معتز الغناء لم تكن فكرته، ولكنها أحبَّت صوته كثيرًا وطريقته في الأداء. وأحبت الكلمات التي يترجمها

لها، وقالت له إنه حساس جدًّا. وله قدرة على إقناع الآخرين عن طريق أدائه، حتى وإن لم يفهموا معنى هذه الكلمات. معتز يحب الغناء ويشعر أنه الشيء الوحيد الذي يخرجه من حال الوحدة والشجن اللذين كان يعانيهما طوال غربته في هذه البلدة.

غنى لها ذات مرة أغنية "يا حبيب الروح" لليلى مراد، ومن بعيد لبعيد يا حبيبي سلم. ورغم من أن "سيمون" لم تكن جميلة، فإنها كانت حنونًا وبسيطة، وكانت دائمًا تقول: إنني فتاة ريفية، من مدينة "ويكلوا" Wicklow، لست متعلمة ولا نابغة مثلك. لا أقوم بأي أبحاث. فقط أحب الموسيقى والغناء. الغناء والعمل الخيري هما حياتي ؛ حيث أتطوع كثيرًا من أجل مساعدة الفقراء وذوي الاحتياجات الخاصة. في نهاية عطلة الأسبوع أسافر إلى "ويكلوا" للعمل في مكتبة لبيع الكتب. ثم سألتني: أتريد كتبًا بعينها؟ فأنا لي حرية الاستعارة والشراء بسعر منخفض جدًّا، فقلت لها: إن موضوع الدكتوراه في الشعر والسياسة. قالت: أحب الشاعر الذي تقوم بالبحث في شعره. أعطيتها بعض القصائد للشاعر، ثم قلت لها: اقرئي لي هذه القصيدة – من فضلك.

كانت قصيدة "At Patato Digging" "حاصدو البطاطس" تتحدث عن الفلاحين الذين يجنون البطاطس والمتاعب التي تواجههم في جني البطاطس، والبرودة التي تجمد أطرافهم في ليالي الشتاء الباردة، وعن نكبتهم في إصابة البطاطس بالعفن بعد طول انتظار هذا المحصول، وعن إهمال إنجلترا لهم أثناء المجاعة الكبرى An Dor 1845-1852، قالت سيمون بتأثر : إن هذه

المجاعة قضت على مليون من الأيرلنديين العُزَّل بسبب الوباء الذي أصاب محصول البطاطس (الذي كان الغذاء الرئيسي للأيرلنديين في ذلك الوقت)، ثم اصابهم المرض بسبب سوء التغذية ، وأصيب الآلاف بالتيفود و الكوليرا والإسهال فمات وا من الجوع في "سفن الموت" للولايات المتحدة الأمريكية، وتركتهم السلطات الإنجليزية يموتون جوعًا أو غرقًا في البحر عندما يحاولون الهروب إلى أمريكا، أو أي بلد قريب. ثم أضافت بحزن: نصف أجداداى ماتوا فى هذه المجاعة. نحن لا ننسى الموتى ، و الحزن فى قلوبنا بناء خالد مثل الأهرامات لديكم. فى قلب دبلن و على ضفاف نهر الليفى أمام مبنى الجمارك توجد تماثيل تجسد هذه المأساة الحاضرة فى و عينا حتى الآن.

ثم عادت إلى قراءة القصيدة التى تأثرتْ بها مرة ثانية، وشرحتها فأفاضت وأفهمتني.

ثم قالت: وكأن هيني يعبر عني. أنا أيضًا أشعر بالأحاسيس تجاه الأرض، نحن من أصول قروية واحدة تعني "هيني" ، وأهل الريف، بسطاء ولديهم القدرة على فهم الطبيعة ووصفها، ليسوا كأهل المدينة الذين أفسدهم الضجيج والصراع.

تناولنا القهوة، وخرجنا من كافتيريا الجامعة وتعانقت أيدينا.

* * *

14

أخذت معي زهور القرنفل البيضاء، اشتريتها من سوبر ماركت "Spar" بجنيهين، نادتني الزهور وتوسلتْ أن أشتريها ففعلتُ، رغم من أني لم أكن أرغب في إعطاء الزيارة صفة الرومانسية، أو المطالبة بمزيد من الاقتراب الجسدي ؛ فالزهور تقصر المسافات بين الأجساد، وتسمح بتدخل لغة انفعالية غير لغة العقل ؛ لذلك أصبحت لغة العشاق ولغة التجانس والإحساس. بحثت عن المنزل، قرأت العنوان "حي راثجر" "Rathegar"، شارع "كونش". بيوت متراصة على جانبي الطريق بنظام، وأشجار تعلن عن وجودها بهدوء. هذا هو المنزل. تقدمت، كانت بوابة المنزل مغلقة، هتفت مناديًا باسمها، طلَّت برأسها من النافذة، ابتسمت كالعادة، وأمرتني بالصعود، فتحت البوابة ذاتيًّا، صعدت السلم.

كانت بمفردها، قادتني إلى حجرة المعيشة، أجلستني على أريكة مريحة، كان البيانو يأخذ ركنًا ملحوظًا من الحجرة، وشمعة وحيدة مثلي تضيء المكان تستند إلى شمعدان فضي فوق البيانو. نظرت إلى السقف كأنه السماء مُرصعة بالنجوم، اللون الأزرق بألوانه، منه الصارخ ومنه الحزين، مكتبة تحتوي على عدد لا

بأس به من الكتب، وجهاز ستريو كبير تنبعث منه موسيقى هادئة وحزينة، وعدد لا نهائي من الأسطوانات ومكتبة تأخذ حيزًا من الحائط، وبعض اللوحات، وبعض المقاعد الخشبية. جلست بجواري، فرحة، لم أنظر في عينيها بل إلى سقف الحجرة، ثم سرحت في اللامُنتهى. قطع صوتها إحساس التيه قالت :

لقد طلاه صديقي السابق بيديه. لمدة شهرين لا شيء لديه سوى هذا السقف.

تذكرت "ليوناردو دافنشي"، وسقف الكنيسة.

–أكان يحبك إلى هذا الحد؟

–وأكثر من ذلك!

–وماذا حدث؟

–السياسة أفسدت عقله. يحلم بأيرلندا مُوحَّدة ، ومغادرة الإنجليز لشمال أيرلندا. ثم أضافت: أحب السياسة، ولكني لا أشغل بالي بها. أفضِّل الغناء وأعتقد أنه هو القو ة المحركة لهذا الكون، وهو القادر على التغيير وليست الحرب. هل تفهم ما أقصده؟

– تحدثنا عن الموسيقى كثيرًا وعن بتهوفن وباخ، والموسيقى الأيرلندية الشعبية.

– ثم تجرأت وسألتها :أيشارك في أعمال إرهابية؟

–لا أعلم، نحن في أيرلندا لا نناقش هذه الأمور، إذا علم أحد أنني أتحدث معك فسأُقتل أو أُدفن في الطين. ليس ت لدينا رفاهية الحديث عن الوطن وما يحدث فيه .

–قلت: أريد أن أستمع إلى عزفك.

كانت هناك آلة كمنجة تسكن على مقعد قريب.

قالت وهي تقدم لي مشروبًا من العنب الأحمر: لقد قضيت اليوم بأكمله أنظف المنزل ؛ احتفالاً بقدومك، لا أهوى التنظيف، ولا إعداد الطعام، ولكن فعلت هذه الأشياء من أجلك. أنا خير تطبيق لمفهوم المرأة الحديثة. دائمًا أتناول طعامي خارج المنزل. وكما تراني فأنا وحيدة لقد انفصلنا أنا وصديقي حيث ينام كل منا في حجرة منفصلة. لا يربطنا غير المكان. وسنسوي الأمور قريبًا. نتشاور الآن في ترك أحدنا الشقة للآخر. هذه هي شقته، ولكني دفعت مبلغًا كبيرًا من المال لكي أجددها كما ذكرت لك من قبل .. نظرتُ إليها ففهمت.

منذ دخولك حياتي قررت أن أتخذ خطوات إيجابية تجاه علاقتي به، أعلم أنك تكره الازدواجية، تعشق الصراحة وعدم الخيانة، ولست ترضى بأن يشاركك آخر في جسدي وروحي، ثم قامت واتجهت نحو المنضدة وأخذت بعض الحلوى وقدمتها لي، كانت قطعًا من الشيكولاتة على شكل قلوب منشطرة، ترددت في أن أتناولها؛ خفت من لونها. هذه القلوب البنية التي قتلتها الوحدة. لم أكن أخاف الحلوى، ولكن ما بداخل الحلوى، ربما كان سمًّا. ربما تريد أن تقتلني، هكذا أتوجس من النساء دائمًا. مخلوقات جميلة للتأمُّل فقط، أما دخولها فهو الجحيم والجنون. لم أكن أخاف الدخول. بل في الواقع السم. هذا ما صوره عقلي في هذه اللحظة، المرأة الشر، أخاف أن لا أعود، كما أنا.

أخذت يدي بين كفيها، كانت باردة، وقالت: يداك ناعمتان وساخنتان، وعيناك عميقتان وبنيتان، ثم سألتني عن لون عينيها.

قلت: عسليتان، ربما يتغير لونهما في ضوء الشمس.

شعرت بإرهاق، وكأن مشاعرها المتدفقة قد أثقلتني، لم أستطع أن أصارحها بأنني لم أحبها بعد، أو أنني أشتهيها أو أننى متعلق بفتاة اخرى فى القاهرة، ثم قالت بصوت يملؤه الحنان: معتز، أنت بريء، وحزين، وهذا ما جعلني أنجذب إليك، أريد أن أنفض عنك حزن الغربة وكآبتها، أعطني الفرصة.

مددت يدي لتحضن يدها ؛ رغبة في التواصل، حركت داخلي الرغبة في إرضائها، حتى لو لحظات قليلة، أسلمت لها أصابعي، اقتربت أكثر، دق قلبي، وتدفقت دماء الحنين في أوصالي، جذب وشد بين الرغبة في إكمال الفعل وإنهائه عند حد معين. ولكن ظهرت لي حبيبتي "سهام" في سماء الغرفة بأجنحتها الفضية، وتراءت لي دموعها تتساقط فوقى فأغرقتنا و أيقظتنى فأفسدت كل رغبة في التواصل مع "سيمون".

طلبت الاستئذان على أمل الاتصال. خرجت وتركت قطعة الشيكولاتة بجوار الشمعة الوحيدة فوق غطاء البيانو، ونزلت الدرج.

* * *

أمشي في الطريق وحدي تائهًا ، مثل بلوم في رواية عوليس.أتذكر حبيبتي الأولى ؛ عيونها هي عيون كل النساء، وجدائل شعرها حبل النجاة الذي ينقذني دائمًا من أن تسقط روحي

في علاقة لا يرضى عنها قلبي وعقلي. ورغم من أنها تزوجت بآخر فإنها لا تزال تسكن قلبي، وترسم بصوتها عالمًا من الشجن لا زلت أعيش فيه حتى الآن.

أصدقائي يقولون: " أنت مجنون لأنك تعيش في وهمك القديم"، فدائمًا أطلبها في الهاتف وأستمع إلى صوتها ثم أغلق الهاتف. وهي تردد: ألو ألو. وكأنه لحن سماوي يعطر أذني لأيام طويلة. ولكنها متزوجة الآن وليس لك حق فيها. هكذا أبرر لنفسي الحرمان والضعف، ثم أتذكر "سيمون" ومستقبل علاقتي بها، ثم أهِّون على نفسي الأمر وأقول: لم أجئ إلى "دبلن" لأحب، لقد جئت لأدرس.

* * *

15

"*معتز* ... أنت تسكن هنا فقط، وما تدفعه من أجل الإقامة فقط، وليس لتسرق طعامي. من فضلك لا تمد يدك إلى الفاكهة أو الطعام الموجود في الثلاجة ؛ هذا شيء لا يليق".

وجدت هذه الرسالة مُلصَقة على منضدة الطعام في أحد أركان المطبخ. ثم أصبحَتْ بعد ذلك عادة المراسلة بيني وبين "أدنا" التي لا أراها كثيرًا.

فعلاً التهمت الموز الخاص بها، وكنت جائعًا ولم أجد شيئًا أتناوله وأنا أذاكر ليلاً، فنزلت الدرج خائفًا من الأشباح التي تسكن وراء النافذة في حديقة المطبخ، تذكرت أمي التي كانت تُعِدُّ لي الطعام الطازج كل ليلة، وتقول لإخوتي: إن " معتز" يبذل مجهودًا في المذاكرة ويجب أن يتغذى جيدًا، معتز ضعيف وطعام الشارع يمرضه.

بكيت في حجرتي وحيدًا ، وبللت الوسادة التي أنام عليها ، وكتبت لوالدتي خطابًا أشكو "أدنا" لها.

* * *

أصبحت حريصًا على طعامي ؛ فقد كانت "أدنا" تأخذ مني طعامًا ولا تحب أن تعطي. أنانية أحيانًا ، وأحيانًا كريمة، لكنها

علمتني ثقافة الاستئذان، فعلاً أنا أدفع ثمن إقامتي فقط، وليس ثمن طعامي. هي امرأة وحيدة وتعيش على أجر إقامتى، والإعانة التي تعطيها الحكومة إياها. هي الأخرى تعيش على الكفاف، تسدد الديون التي تغرقها، حتى هذا المنزل الذي تقطنه ليس ملكها وحدها، بل لأولادها نصيب فيه أيضًا، وهي التي تسدد أقساطه ؛ ولذلك وافقتْ على تأجير حجرة في المنزل لي وأخرى لماستر مارك.

صديقتها البدينة "جولى" التي صاحبتها منذ أن كانتا في الملجأ معاً، باتت تزورها من حين لآخر، وذكرت أنها الصديقة الوحيدة التي يمكن أن تأتمنها على سر، وأنهما هربتا من الملجأ في إحدى قرى "كورك".كانت جائعتان و خائفتان و نجت "أدنا" من حادثة اغتصاب بأعجوبة، فقد أعتدى عليها ثلاث قطاع طرق، و نزفت و كادت تموت، لولا أهل القرية التى مررنا بها و الذين اتصلوا بالطبيب، وبعدما تماثلت للشفاء، مشيتا من "كورك" حتى وصلتا "دبلن"، وهناك تعرفت صديقتها على أحد أصحاب البارات، الذي وفر لهما عملاً في تنظيف الحانة، ثم ما لبثت "أدنا" أن أصبحت نادلة فيه، وفي هذا الوقت تعرفت إلى زوجها، ولم تكن تعرف نشاطه السياسي، ولكنها ساعدته كثيرًا ؛ فقد كانت تسمح له ولأصدقائه من أعضاء "الجيش الأيرلندي الجمهوري" بالاجتماع في القاعة الداخلية للحانة. وعندما علم صاحب الحانة بذلك طردها من العمل، ثم صدر قرار من الحكومة بمنعها من العمل في أي وظيفة حكومية ؛ بسبب تعاونها وتورُّط زوجها في

أعمال تخريبية في إحدى محطات القطار في لندن عام 1972 إبّان وقت الاضطراب السياسيIrish Troubles.

* * *

اقتربت من بنك أيرلندا. كان هناك صفٌّ من البشر. أخذت مكاني أراقب سيقان الفتيات وملامح الرجال. أثناء نظري لشاشة ماكينة النقود (ATM) كانت هناك أصوات بشرية تتداخل. لا يهربون من نظرات عيني، على العكس يبادلونني الاهتمام نفسه. أخرجت من حافظتي كارت الفيزا ؛ متأهبًا لوضعه في ماكينة البنك الآلي.قرأت على الشاشة:

– بنك أيرلندا يرحب بكم.

كانت هناك أحاديث آتية من خلفي.

– سيذهب إلى ديسكو "كاتشين".

– لديَّ بحث عن العنصرية في أيرلندا.

– هي عاهرة. she is a bitch

– صديقي سيذهب إلى أمريكا، فاز بلوتري، سيلحق بـ 44 مليون أيرلندي هناك.

– الأجانب في كل مكان في "دبلن".

– فَك أوف Fuck Off.

بنك أيرلندا يقدم لكم كل الخدمات المصرفية .

– ضع الكارت من فضلك.

– ضع رقمك السري، ثم "اضغط إدخال".

– اذكر المبلغ المطلوب مُضاعفًا العدد 10، ثم "اضغط إدخال".

– انتظر من فضلك.

– نأسف لعدم إتمام عملية سحب النقود.

– ليس لديكم رصيد.

– اسحب كارتك من فضلك.

لقد أنفقت معظم المال الذي معي، ولم يبقَ غير القليل.

أتساءل: هل لهذه الرحلة والغربة من فائدة ؟ لقد تركت وطني وأصدقائي وعائلتي، ثم أتيت إلى هنا، الحنين هو الإحساس الذي كان يملؤني دائمًا ، ووسط الناس، أشعر دائمًا بالغربة. عرفت العنصرية في أيرلندا، وكرهتها. يضربك أحد على خدك، فتصرخ، ولكن في اللحظة نفسها تجد امرأة أو رجلاً أو صبيًا أو فتاة تقترب منك، وتقول: لا تبالِ به أو بها ليس كلنا هكذا.

الآن تتحدث عن العنصرية هنا ! أليست موجودة في كل العالم، حتى في وطنك! أم الغربة تضخِّم من إحساسك بالأشياء والأفكار؟ أنت الوحيد الذي يمكن أن يتحدث عن العنصرية، أليست النوبة معزولة تمامًا عن القاهرة ؟ أليس- يحكم على البشر بالمظاهر ولون البشرة وموديل السيارة، وأناقة الملابس ؟ ألست تضهد أحياناً لأن اسمك يحمل ديانة مختلفة وعرقًا مختلفًا؟

حتى أنت عندما تتحدث لا يفهمك الناس. الناس يتحدثون بلغة المال والحاجة، وأنت تتحدث بلغة الثقافة والتغيير وقبول الآخر

والتنوع فينظرون إليك ويضحكون، وربما يتهمونك بالجنون والمغايرة.

هل لوجودي هنا معنى؟ كان من الممكن أن أمكث في القاهرة وأستمر في بحثي عن الأدب الأيرلندي. ولماذا أيرلندا بالذات؟ نعم ، كنت أتوق للسير في شوارعها متخيلاً نفسي "بلوم" (بطل عوليس) رواية جويس الشهيرة، وهو يمر بشوارع "دبلن" يبحث عن هويته ويثبت للأيرلنديين حتى بالشِّجار أن الوطن هو المكان الذي تعيش فيه، وتنتمي إلى أفراده بغض النظر عن الدين واللون والعِرق. أو أنا "ستيفن ديدليوس" الشاب الذي يبحث عن الحقيقة، عن جذوره، عن طبيعته النفسية والجنسية، الشاب الذي تعذبه الشهوة، ويصارع لفهم فكرة الدين الحقيقي. أنا مختلف عنهما. جئت لدبلن لأني سئمت وجودي في القاهرة. زحام دائم وتلوث، إرهاق، عدم القدرة على الإنجاز، تعطيل في كل شيء ؛ في المنزل شجار دائم بسبب أو دون سبب وتدخّل إخوتي في نمط حياتي وأسلوبها.

حرية مشروطة في القاهرة، اعتقدت أن رحيلي إلى "دبلن" فرصة لأبحث في هويتي عن وجودي وعن جذوري، بعيدًا عن كل المؤثرات. سأكون أنا.

* * *

كنت أسهر حتى ساعات متأخرة من الليل، أشاهد التلفاز أو أقرأ كلاسيكيات الأدب، أكمل ثقافتي، وأتعرف أيضًا على جديد السينما العالمية أدمنت مشاهدة أفلام مارلون برندو و خص وصًا

فيلم "عربة تسمى رغبة". "A Street Car Named Desire"، و أحيانًا يراودني الحنين إلى حبيبتي في القاهرة ؛ فأكتب كل يوم قصيدة لها. الحنين إليها جعلني أمتهن الشعر ، وأصبح خيالها الملهم هو الملاك الذي يوحي إليَّ بأجمل الخيالات، وأن أكتب هذه الأبيات المنثورة:

في ظلام النفق الذى أسير فيه
منذ ميلادى
كُنتِ أنتِ الشمس والشجرة في نهايته
و كنتِ دائمًا وجهتى نحوهما.

حلمت أنها جاءت إلى حجرتي، وجدتني نائمًا على فراشي الذي لا يسع إلا فردًا واحدًا، قبَّلت جبهتي، ثم وضعت رحيق شفتيها على أحد جفوني. عطرها فجَّر ينابيع الشهوة، غمرنى هذا الإحساس، غضبت من تحول العاطفة السامية إلى شبق وغلمة، وهي تفعل ذلك لمستْ يداها أسفلي، فتراجعتْ وقالت: أنت تشتهيني، فبعدت. ورأت خجلي، وضحكت، ثم عادت لي ثانية، وهي تحمل رغبة جميع النساء، ثم استلقت بجانبي نمارس الحب.

شعرها بكثافته وطوله يحتوينى، وعطرها يتخلل كل مسامي ، وعيونها ترسلني إلى عوالم من السحر والرغبة لم أتذوقها من قبل. قلت: لقد أنرتِ لي الطريق ورسمتِ لي عالمًا من النور سأعيش به، سيملؤني إلى الأبد. وامتلأت الحجرة نورًا من جسدها، ورأيت فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا.

قلت: أريد أن يكون وجودي حقيقيًّا في حياتك. لم تُجِب، ونظرت إليَّ بعيونها الشاردة المتأملة، ثم قالت:

اليوم الذي ستكون في حياتي سأخسرك إلى الأبد. دعنا هكذا دائمًا أستدعيك وتستدعيني.

قلت: أنا أستدعيك، أما أنت فلا، أين أنا من حبك واهتمامك؟

قالت: الدليل جسدي ملك لك.

قلت: لا، ليس هذا كافيًا. أريد روحك.

وفجأة صرخت طفلة صغيرة، وامرأة تميل إلى الامتلاء، ورجل أسمر يشبه القوقازيين، فسحبتْ جسدها. وخلّصتْ شعرها، وقبّلت بطن كفي، ورحلت. وأخذت معها النور.

في الصباح شعرت بالسعادة. دخلت الحمام، تطهرت. كان الجو باردًا. شعرت بالفرحة تملؤني لمدة يومين.

* * *

16

ولعل روحي تمضى قدمًا و تسير هنا و هناك ، و في كل موضع يبعث السرور، و لعل اسمي يُنَّادى ، و عسى أن يوجد على سطح مائدة القرابين فى حضوري مثلما تقدم لأتباع " حورس" لعله قدُأعد لي مقعد في زورق " الشمس " فى كل يوم يبزغ فيه نور الإله ، و عسى أن أُستقبل في حضرة " أوزوريس "فى أرض الانتصار (أرض العدل و الحق).

بردية آنى _ كتاب الموتى[5]

كلما **مر الأتوبيس على "هارلود كروس" Harlod Cross، لمحت البوابة الحديدية الكبيرة وممرًّا طويلاً ينتهي بالكنيسة. ويوما السبت والأحد من كل أسبوع أرى مئات من البشر: الشيوخ والشباب والأطفال يدخلون من هذه البوابة فسألت راكبًا يجلس بجانبي: ماذا وراء هذه البوابة؟**

-رد قائلاً: إنها المقابر!

وفي يوم قررت زيارتها ، توقف الأتوبيس ، واتجهت ناحية البوابة الحديدية إلى "مقابر مونت جيروم"، ابتعت بعض الزهور. خرج الحارس مهرولاً، قائلاً: لقد تأخر الوقت، سنغلق البوابة

الساعة الخامسة تمامًا. نظرت في الساعة قلت : لازال هناك متسع من الوقت، خمس عشرة دقيقة. ابتسم لي ودخل عرينه.

أخذت طريقي في الممر. كان الجو يميل إلى الاعتدال. شعرت لأول مرة بالراحة والهدوء، وزال عني الإحساس بالغربة. ابتسمت عندما رأيت بعض المقابر على شكل أهرامات ومسلات.

وضعت الزهور على أحد القبور وقرأت الفاتحة. تذكرت الشهداء من أهلي ومن أهل بلدي، عرفت معنى الموت عندما مات أخي الصغير "حسين"، كان يصغرني بأربع سنوات، أصابه الجفاف فذبل ومات، كان جميلاً، عيونه واسعة ولوزية، وبشرته ناصعة البياض، مشربة بحمرة، كان يضحك ويلهو ويلعب، كان حديث العهد بالمشي، وكان يسقط كثيرًا ؛ فأهرول إليه وأحتضنه، فتنهرني أمي وتقول: "اتركه فهو صغير". عندما ضرب أبي أمي تركت البيت، ولكي تعاقبه رحلت من دون "حسين"، ومن دونى، وبقينا نحن في المنزل مع أبي. لم يكن يعلم ماذا يفعل بنا، أصابت "حسين" الحمى والإسهال، وفقد سوائله، ثم سكن إلى الأبد. لا أزال أتذكر أبي وهو يحمله في كفنه الأبيض، ويهبط به الدرج، وأنا وأمي نبكيه ونصرخ. عرفت البكاء منذ الصغر، ولم يفارقني حتى الآن، أما أمي فهي الآن تكفر عن ذنبها بمزيد من الحماية والمحبة لي ولإخوتي، ودائمًا تتذكر "حسين" وتبكي، وتصر على أن تزور قبره في المواسم. لم أذهب معها مطلقًا ؛ لأنني أخاف الأرواح، وأخاف الجن.

لا أدري لماذا تذكرت قبر الجندي المجهول في مدينة نصر في القاهرة، حيث أمر عليه دومًا في طريقي إلى عملي، ودائمًا ما أقرأ الفاتحة للشهداء الذين بذلوا الدم من أجلنا. الجنود المجهولون ليسوا مجهولين ، وأرواحهم ترفرف على علم مصر، تحفظه من الانكسار والذل.

أتذكر "علىّ" خطيب عمتي الشاب الجميل الذي أتى من عزبة " خضرا" بالعجمين إحدى قرى الفيوم، ومات وهو يحارب في أرض سيناء. كانت هناك أسابيع قليلة ليزف لعمتي، ولكنه استُشهد. كان مثل الشاب الأيرلندي في ملامحه حيث الشعر الأحمر، والوجه المنمش، وقصر القامة. تراءت لى ابنة أختي التي ماتت غرقًا وهي تلهو أمام قناة مائية فسقطت بها وهي ترتدي فستانها الأبيض القصير، بينما أبوها يغفو في حديقته. تجولت بين الأضرحة، قرأت شواهد القبور : هنا يرقد بطل أيرلندا الذي مات يدافع عن أرضها ؛ قتله الإنجليز في الاستاد عام 1916م.

ماذا لو مت الآن ؟ ماذا لو انفتح قبر من هذه القبور وسقطت فيه ؟ من سينقذني، ومن سينتشلني؟

الموت وعذاب القبور والثعبان الأقرع! ماذا سأقول إذا نفخ في الصور ؟ وماذا سأقول عن نفسي؟ وكيف سأبرر أفعالي يوم الفصل ؟.

الجحيم للأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا, لهم ماء كالمهل يشوي الوجوه، وشراب من صديد،

وشجرة الزَّقُّوم طَلْعُهَا كأنه رءوس الشياطين، والشجرة الملعونة، ورصاص مصهور، وحديد ونحاس، ولا مُغاث إلا من رحم ربي .

والجنة أو الغرفة حيث الرَّوح والرَّيحان ،والنعيم والخلود وأنهار من عسل مصفى وخمر لم يتغير لونه ولا يُذْهِبُ العقل ولا يجلب السقم والدوار، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين لا فيها غَول ولا هم عنها ينزفون, ورزق معلوم من فواكه كثيرة لا ممنوعة ولا مقطوعة، وحُور عِيْن وعندهم قاصرات الطَّرف، وِولدان مُخَلَّدون، وتين وزيتون، وأعناب ونخيل وظل وظليل، وسدرة المنتهى عليها ملائكة كرام يسبحون ليل نهار ولا يملون ولا يكلون .

وأين أنا من هذا؟

"كتاب الموتى" كتاب الفراعنة الأبدي كم أحتاج إليه في غربتي لعله يكون الونس لي في هذه الرحلة الطويلة المجهولة .

أبي دائمًا يكرر أن قبره سيسطع فيه نور الله الذي يستمد ضياءه من مشكاة كأنها كوكب دُرِّيٌّ يُوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية وذلك لأنه من عباد الله المخلصين ، ولأنه يقرأ القرآن وبخاصة سورة الرحمن.

أفقت على نعيق غراب يحط على أفرع الشجر و بدأ الظلام يحتوى ساحة المقابر، وازدادت السحب قتامة، ودبَّ الانقباض والخوف في أوصالي، وخفت من قيامة الأجساد. وتخيلت أن الحارس قد أغلق البوابة ورحل وتركني هنا وحدي أعايش الموت.

وندمت على دخولي هذا المكان من البداية ؛ فليست المقابر نزهة، وإن زرتها ففي ضوء النهار. وقرأت ألهاكم التكاثر. وأسرعت الخطى، وكأن الأرواح قد قامت من رقدتها وأخذت تلهث ورائي طالبة مني أن أفتح لها أيضًا بوابة الخروج. أخذت أصرخ وأتوسل للحارس أن يظهر وأن يلبي ندائي. وراحت روحي عندما لم يُجبْ ، وكدت أختنق.

* * *

قالوا إنها فقدت عقلها، وإنها تلتقط الرجال كما تلتقط الطيور الجائعة حبوبها، وإنها تجلبهم إلى حجرتها كل مساء، فهي تقف وتصطنع أحاديث غريبة لكي تجذب انتباههم. شعرها الذي يصل إلى بداية كتفيها، وعينها الغريبة الغامضة، وبشرتها الخمرية الرائعة، وقوامها المتقن، وابتسامتها المتفائلة، كلها كانت تجذب الرجال إليها.تقول لهم إنها وحيدة، ولا أحد يهاتفها أو يحدثها، وتحدثهم عن معاناة الغرباء وعزلتهم، فيذهبون معها وكأنهم مسرنمون، وتقول: إن الحب قد غاب من الكون، وإن زراعته في القلوب أصبحت باهظة.تخيلت أنني رأيتها أكثر من مرة في مكتبة "أيسون" تشتري رواية أجنبية أو جريدة الحياة، أو تجلس بالساعات في حديقة "ستيفن جرين" تنظر إلى الخضرة والزهور، أو الأوز الذي يختبئ من البرودة في أقفاصه الصغيرة، تضع معطفاً داكناً حول جسدها المنكمش، وترسل نظرة شاردة تجاه الكون.

وفي المساء أراها في "تمبل بار" مرتدية ثياباً أنيقة، وكأنها أميرة توجت حديثاً، وتمشي بجوار شاب أيرلندي يصغرها، ويشبه لوحات وجوه الفيوم في سحنته، أو فتاة من الريف ترتدي تنورة مزركشة.

قال لي "ماكنيز" صاحب المتجر الذي أشتري منه حاجاتى في شارع ديم إنه كان يعرف هذه الفتاة ؛ فهى مصرية كانت تدرس الأدب الأيرلندي في "ترينتى كولوج" منذ فترة و قال إن اسمها "داليا"، وإنها كانت جميلة جدًّا وغريبة الأطوار أيضاً. في بعض الأوقات كانت تمر عليه يوميًّا، تشتري بعض احتياجاتها، وتترك له بعض الحكايات عن بلادها البعيدة، وبعض الابتسامات من روحها المنطلقة، وبعض النظرات التي يملؤها الحنين للفهم والتواصل، وأحياناً أخرى تمر عليه ساخطة واجمة، لا تحدث أحداً، تاركةً شعرها وملابسها للمطر رغم من أنها تحمل في يدها مظلة تقيها كل هذا . كان ماكنيز يحملق فيها من وراء زجاج المتجر، وكان يريد أن ينادي عليها ويسألها عما بها، ولكنه إذا فعل فلا تلتفت إلى أحد، تظل تنظر إلى السماء التي ترمي بدموعها على اليابسة بغزارة، وكأن السحب تشكِّل أهرامات ضخمة، وشمسًا مشرقة برغم الضباب والرعد الساكن في السماء. وصف ماكنيز ملامحها الجميلة والغريبة، ولون شعرها الأسود بلون ظلام الأحلام، ورنة صوتها، وطريقة مشيتها، ورسم حاجبيها اللذين يشبهان حاجبي نفرتيتي فعرفت أنها هى، وقال: ولكني أحببتها برغم عدم معرفتي بها، وحاولت أنا أيضاً أن أنتظرها كل يوم، وأتمنى أن أقابلها، وصرت صديقاً لها برغم استحالة أن تأتي كما هيىء لي.

كانت تشتري منه مصاصة وحلوى وكروتاً كثيرة لمناطق مختلفة في أيرلندا. تحكي كثيراً عن أبيها الذي أرسلها إلى هنا حيث المعرفة والبرودة والبيئة المحافظة، ونسي أن الوحدة لا تولد

إلا التحرر، وربما الجنون. وأخرج الورقة من حافظته وقال: قالت لى احتفظ بهذه الورقة إلى الأبد. ثم أعطاني إياها فكانت بالعربية.

السماء بلون الزرقة.
والشمس كأنها الكهرمان.
ودقات قلبي ناقوس
يعلن عن مرور الزمان .
والنهر يجري في عروقي
ويصب في بئر النسيان .
ذكريات وآلام
حتماً ستطويها الأيام.
فتذكرني على الدوام.

"ماكنيز" اعترف لى أنه أحبها منذ أن رآها، وهو نفسه ذهب معها إلى منزلها، وأنه رثى لحالها كثيراً عندما رآها في هذه الحال، وسألني إن كنت أعرف عائلتها في القاهرة، وإن كانت الإجابة بنعم، فعليَّ أن أتصل بهم؛ كي يأتوا وينقذوها من هذه الحال المزرية التي وصلت إليها. وأثناء حديثه معي كان يلبي طلبات الزبائن من سجائر وشيكولاتة وقارورات اللبن والشيبسي، أما أنا فأخذت علبة "تشيكلتس" بين أصابعي، وأخذت ألهو بها في محاولة للتخلص من حالة الحرج التي وضعت نفسي فيها.

"ماكنيز" ممتلئ الجسد، أحمر الوجه، وعيناه خضراوان بلون مراعي "دبلن" بعد سقوط المطر عليها في يوم غير مشمس. يبتسم كثيرًا للزبائن. لم أستطع أن أشرح له أنه من

الصعب أن أتحدث إليها، وأنه ليس من مسئوليتي أن أراسل أهلها أو أتصل بهم، وأن تعاطفي يصل إلى حد الرثاء والنظرة التأملية للأشياء فقط. لم أرغب في سماع المزيد، أردت أن أمشي من شارع ديم، وأن أذهب إلى القلعة الأثرية هناك، وأتخيل نفسي جنديًّا من جنود العصور الوسطى يحارب من أجل الوطن، أو من أجل إنقاذ حبيبته من يد الغزاة.

* * *

أخذنا نتجول أنا و"أبو علم" في المدينة، نمرُّ على المحال. كان كثير من السياح و بخاصة الأسكتلنديون يسألوننا عن أسماء البارات، يرتدون زيهم الوطني (السلتيك): وهو تنورة قصيرة ذات مربعات وقميص أبيض وتتدلى حافظة النقود على مقدمة العورة، وجوارب رياضية طويلة وحذاء من الجلد السميك.

علق "أبو علم": أحلف أن هؤلاء الشباب لا يرتدون ملابس داخلية. تعجبتُ، و قلت الهواء البارد سيخترق مؤخراتهم بسهولة فضحكنا.

سرنا حتى وصلنا إلى سينما "سافوى" ك انت تعرض "الرقص في لونسا" عن مسرحية لبرين فريل ، وبطولة ميرل ستريب.

تذكرت "سهام " أول مرة رأيتها فيها وأحببتها، كانت تمثل دور "أوفيليا" في مسرحية هاملت، ومنذ تلك اللحظة وأنا مفتون بها. ولكنها لم تعطني فرصة للاعتراف، فقد تزوجتْ. شعرت بالإحباط عندما علمت ذلك، لم تكن تناسبه ، هكذا تراءى لي. هي

تناسبني تمامًا. كتبت عنها كثيرًا. وفرحت هي بهذه القصص، ولكن لم يحقق هذا أي نوع من التواصل. عندما رأيت طليقها وكان صحفيا من أصدقائنا أسمه سامح قال:-

- لقد قرأت قصتك، لقد صنعت من سهام أسطورة. ستكون ضحية مثلي، أنت لا تعرفها جيدًا. قرار الزواج كان قرارها ، وقرار الطلاق كان أيضًا قرارها، وعندما حملت مني، وحاولت الاقتراب منها في لحظة عشق وشوق حبيب لحبيبته وزوج لزوجته انتفضت من مكانها، وقالت : لقد انتهى دورك الآن، هذا ما كنت أتمناه. ولم تعد صالحًا لي بعد ذلك!!

ورحلت إلى والدتها، وتركتني وحيدًا.

وكأنه ممثل يردد مقطعًا مأساويًّا، قال: أنت مخدوع ومبهور بما تكتبه و تمثله، أو ربما مفتون بجمالها. أعتقد أن الكتابة والمسرح هما حياتها، وكل البشر الذين تعرفهم تستخدمهم كمادة للكتابة. الجنون هو هذه المرأة. لا تَحُمْ حولها كثيرًا فستحرقك. كان يائسًا ووحيدًا. أردت أن أستأذن وأذهب إلى بيتي حيث تأخر الوقت. طلب مني أن أبقى أو أن أدعوه إلى منزلي! لم يكن الوقت مناسبًا. تركته في ميدان التحرير. أوازن الأمر وأتس اءل: هل محبوبتي شريرة .. أم أنه يتجنى عليها؟ هكذا دائمًا عندما يفترق الأحبة يجب أن يكون أحد الطرفين فوق الصليب ، والآخر هو الذي يُلقي الحجارة .

أخذنى أبو علم من يدى و قال :" روحت فين".

وذهبنا نشرب قهوة فى بولويز.

وفي طريق العودة رأيت مبنى البريد العمومي، واشتريت بعض الكروت وأرسلتها لأصدقائي في القاهرة.معظم الكروت تعبر عن الريف الأيرلندي، حيث قطعان الماعز التي يتقدمها راع. أو بيت متواضع ريفي تحت نافذته بعض زجاجات الخمر. ألوان أبواب المنازل دائمًا تُطلى باللون الأحمر أو الأبيض أو الأصفر أو لون السماء.

جذبني كارت يحتوي صورة لتمثال "مولي مالون" الذي يواجه جامعة "ترنيتي" ومكتوب عليه قصة هذه السيدة.

كانت "أدنا" قد شدت بهذه الكلمات عندما دعاني صديقها للشراب في بار "شيري فيلد" "بواكستون" ملحمة رثاء "مولي مالون "، وتحكي الأغنية قصة "مولي" التي كانت تبيع السمك وأم الخلول وهي تغني، ولكن في يوم أصابتها الحمى وماتت.

تقول كلمات الأغنية:

In Dublin Fair City
Where Girls are Pretty

في مدينة دبلن الرائعة، حيث الفتيات جميلات .

وقعت عيني لأول مرة على "مولي مولون".

وهي تقود عربتها المتحركة، وفي الشوارع والأزقة الواسعة والضيقة ،

منادية: أم الخلول الطازج وبلح البحر.

وكانت بائعة سمك، ولا عجب فقد كانت مهنة أبويها من قبل.

فقد كانوا يقودون عرباتهم ذات العجل.
ويطوفون في الشوارع والأزقة الواسعة والضيقة.
ينادون : أم الخلول بلح البحر طازج.
ماتت بسبب الحمى.
ولم ينقذها أحد.
هذه كانت نهاية "مولي مالون" الحلوة.
ولكن شبحها لا يزال يقود عربتها.
خلال الشوارع والأزقة الواسعة والضيقة مناديًا:
أم الخلول، بلح البحر طازج طازج .

غنتها "أدنا" بتأثر، وكادت الدموع تنهمر من عينيها، ولكن أوقفت انزلاق هذه الدموع عندما بدأت أغني أغنية فيروز "وينين " التى أُعجب بها صديقها بتريك، ثم قال: حدثني عن الإسلام وعن ليبيا. قاطعته "أدنا" و بتحذير: لم نأتِ هنا لنتحدث عن الأديان، الدين في السماء، أو على الأرض لا أدري.

في الطريق سبقنا "بتريك". وسارت "أدنا" بجانبي،كان الضوء الأصفر للمصابيح يخترق الضباب منعكسًا على الأسفلت اللامع. الأشجار على الجانبين تقف صامدة تتحدى الريح، البيوت مظلمة إلا من بعض الإضاءة الخافتة. صمت كأن العالم ليس به أحد إلا نحن الثلاثة وخطوات أقدامنا. قالت "أدنا": انظر، هذه نجمتي، تمشي معي دائمًا، وهي وحيدة وسط النجوم ؛ ربما لأنها أكثر لمعانًا وبهاءً.

– قلت: لذلك هي وحيدة ؛ لأنانيتها وعدم احتوائها للآخرين.

– أنا وحيدة ،ولكني لست أنانية.
– أتؤمنين بالله ؟

لم تستغرب السؤال ؛ فقد كانت مخمورة، وسعيدة قالت: لا أعتقد. فضائح القساوسة جعلت من الدين أضحوكة. الناس تحب أن تعيش دون قيود. بعض القساوسة في أيرلندا ارتكبوا فضائح، من اختلاسات، وشذوذ، وزنى محارم. كنت أدرس الدين في الملجأ الذي نشأت فيه، وعندما تركته وأنا ذات خمسة عشر عامًا أغلقت الباب ورائي ونسيته في الملجأ.

قلت: فساد المؤسسة لا يعني فساد العقيدة، إذا انحرف القساوسة أو الشيوخ في الإسلام أو الأحبار فى اليهودية فلا يعني ذلك موت العقيدة أو خللها.النظرية الدينية قابلة للتجديد والتطبيق ايضًا.والأنسانية هى الحل.

ردتْ بغضب: أنت فيلسوف تعقِّد الأشياء. ربك في القاهرة. أنت مسلم. أما أنا فسعيدة بحياتي هكذا، نحن هنا في أيرلندا.

أثناء وضعها المفتاح في مزلاج باب المنزل قررت ألا أتحدث معها في هذه الأمور مطلقًا.

* * *

حنان

جا ءتني رسالة من القاهرة كانت في مظروف وردي معطر برائحة "ألترا فيولت" وعلى جانبيها رسومات لزهور الياسمين. عرفت أنه من حنان لأنها كانت تستخدم هذا العطر ، وأهدتنى أحد منتجات هذه الماركة" افتر شيف و ليسيون حلاقة".

معتز:

القاهرة فراغ، والوحدة عالم مخيف. ومن دونك لا أفعل أشياء عظيمة. لقد توقفت عن الدراسة ، ولا أذهب إلى مواقع أثرية منذ أن رحلت عن القاهرة. وكثيراً ما نتحدث عنك أنا وعفاف، لقد أرسلت لك " كارت" هل وصلك؟

أحاول كتابة بعض الأشعار، ولكن لا أستطيع أن أكمل فقرة واحدة ومعظمها يدور حول موضوع واحد هو الفقد. أعترف الآن أنني أفتقدك كثيرًا، والحنين اليك عظيم، ولحظات أشعر أنني أصعد إلى السماء.

ستتعجب كيف حصلت على عنوانك. لقد ذهبت إلى الجامعة و أستاذ من أصدقائك أعطاني العنوان. كنت أشعر بالإحراج ولكني ادعيت أنني قريبة لك، وأننا فقدنا الاتصال بك. كذبة بيضاء أرجو أن تسماحنى عليها.

متى ستعود. إنني في حاجة إليك، لا أعلم لماذا تضخم الإحساس بحاجتي إليك منذ أن سافرت فأصبحت أبكي كثيراً هذه الأيام، وتنتابني نوبات من الحزن ؟ وأحلم كثيراً بأننا معًا، وتأتني دائماً في أحلامي وأنت ترتدي أجنحة وملابس بيضاء. أرجو أن لا تزعجك أحلامي. إنني فقط قلقة عليك. أعلم أنك في مهمة عظيمة ودائماً فخورة بك. إن أردت شيئًا فأبعثْ لي فقط برسالة. بماذا أختم رسالتي؟

سأقول إنني في انتظارك على الدوام. فعد سالماً و لا تنسانا.

حنان .

17

استهلكت طاقتي كلها في التنقُّل من مكتبة لأخرى ؛ فقد كانت الجامعة تحتوي على عدة مكتبات للقراءة : ليكى وبركلي ومكتبة للكتب النادرة. كنت دائمًا أجلس في "ليكي" لأنها قريبة من القسم الذي أدرس به حيث يمكنني تناول مشروب في كافتريا المبنى والتحدث مع الطلبة أو الأساتذة، ثم أذهب بعد ذلك إلى مسرح أوسكار وايلد لأشاهد بعض العروض أو البروفات المسرحية.

أحيانًا كنت أذهب إلى مكتبة "أيسون Eason's" التي تقع في الحي الشمالي لشراء بعض الكتب، ودائمًا ما تكون مزدحمة بالزائرين. ولها أبواب عدة وكأنها الجنة، يقف على بوابتها بشر كثيرون وهذا لقربها من "ماكدونالدز" ومحل أحذية "كلاركس Clarks" وأيضًا "ماركس آند سبنسر".

الرجل الأيرلندي العجوز الذي يبيع الجرائد خارج المكتبة ذكرنى أن لا أحد يطلب الجرائد العربية هنا، سوى الجزائيين لأن لديهم مشكلات هناك ولا أعلم لماذا يتقاتلون، وأضاف بعفوية : إن الإسلام سبب الاضطراب في العالم. ثم قال وهو يناولنى جريدة

الأهرام: الآن أفضِّل البوذية ؛ لأنها الدين الذي لا يؤمن بالقتل. لم أرد.

* * *

قالت لي "سيمون" ذات مرة: الأيرلنديون شعب طيب لقد عانى كثيراً من فقر وقهر ومرض ومعاناة طويلة مع الإنجليز . لقد أخذوا كل شيء حتى ثقتنا بأنفسنا، فلا زالنا نعتمد عليهم و سنظل.. حتى لغتهم أصبحت لغتنا .و العالم كله ينظر ولا يفعل شيئًا. انضمامنا إلى الاتحاد الأوربى نقمة وليس نعمة، ورشوة لكى نصمت و ننضم إلى عالم واسع تضيع فيه حقوقنا و حربنا المقدسة و نزداد فقراً.

لا أعلم لماذا جاءت فلسطين فى مخيلتى و كأنها تعبر عن كل المستضعفين فى الأرض أمام قوى غاشمة.

ثم أضافت : كثير منا يقرأ "أفننينح هيرلد" ولـ"أيرش تايمز" بصعوبة، ثم همست :"أعتقد لو سمع الأيرلنديون هذه الجملة لقتلوني الآن، هم لا يحبون أن ينتقدهم أحد، هم ينتقدون أنفسهم، ولكن لا أحد منهم يحب الحقيقة. وهذه مشكلة".

نعم ، ما تقوله سيمون فيه بعض الحقيقة، يجب عليك أن تسمعهم فقط، وتثنى عليهم، وتمدح وطنيتهم، وتقول دائمًا : إن الأيرلنديين طيبون، عاطفيون، وكرماء.

* * *

كلما مررت ببار "جورج George" شعر تُ بالرهبة والخوف، أعبر الطريق بسرعة إلى الناحية الأخرى وعند نزولي

من الأتوبيس للذهاب إلى الجامعة، أرى البارالوحيد الذي لا أقترب منه ولا أحاول أن أنظر إلى مريديه. فهؤلاء الرجال يرتدون ملابس غريبة، وبالرغم من أنهم ينظرو ن إلىَّ ويبتسمون فـإنني لا أرد الابتسامة. وأسقط نظرتي إلى الأرض، وأمد خطواتي متجهًا إلى الجامعة.

* * *

كانت سيمون دائماً ما تأخذنى إلى البارات لنستمع إلى الموسيقى الشعبية الأيرلندية، وكنت أشعر بالرتابة والملل ؛ فهي تتشابه إلى حد ما مع موسيقى الراي التقليدية في دول المغرب العربي. فالكلمات والناي يردد ان صدى الحزن الذي عاناه الشعبان. ودائمًا ما نذهب إلى بار ”Zanzibar" على الضفة الشمالية من الليفي، تتوسطه الأشجار والنخيل والنافورة، بار رحيب، يشبه في بنائه الداخلي العمارة العربية أو التركية- كانت يلتف حولها العديد من الأصدقاء ولكنها كانت دائمًا ما تغمرنى برعايتها ومحبتها، وأحياناً كنت أ تركها وأذهب وحيداً وأجلس بجوار نهر الليفى ليلاً وأسمع نجواه .

* * *

أخذ "أبو علم "يضع مقدارًا من مسحوق البطاطس كنور في وعاء ألمونيوم نصفه مملوء بالماء، أشعل الموقد الكهربائي، ثم قال: "خمس دقائق وسيكون الحساء جاهزًا".

أعلم أنك جائع، الجو هنا يجعلك تجوع بسرعة.

-حقًا- ولكن الطعام هنا سيئ لا يشجع على الأكل.

-سألني: من يطهو لك طعامك؟

-أنا –أحيانًا- رغم من أن السيدة التي أقطن معها لا تسمح لي بالطهو بعد الساعة الثامنة مساءً ؛ لأنني ذات مرة كنت سأتسبب في حريق، فأصبحت معظم وجباتي جاهزة، لقد سئمت الحياة هنا!

-يقال إن الأيرلنديين كرماء.

-أحيانًا، في البارات والحانات فقط، هم لا يدعونك إلى الطعام إلا في (عيد القيامة) أما في الحانات فهم كرماء جدًّا.

-هل هي كريمة معك؟

-تعطيني ما يفيض منها من حساء الكرنب.

صب الحساء في طبق وقال: "تفضل".

غرفة متواضعة في حارة ضيقة مرصوفة ونظيفة. بجوار النافذة يضع أصيصًا من البلاستيك به بعض زهور "الأيرس".

غرفة أستديو تضم سريراً وحماماً ومطبخاً وكاسيت صغيرً ا. أعجبني الكاسيت، حملته بين يدي.

-جميل هذا الكاسيت. اشتريته من أين؟

-لا لم أشتره، لقد أهدتني إياه الطفلة.

-أىّ طفلة؟

-قال (حبيبتي).

-أهي جزائرية؟

-لا أيرلندية.

-وأين هي؟

-لقد هجرتني. ثم ظهر الحزن على وجهه.

ساد صمت ثم بدأ يحكى .. قالت لى: "يجب أن ننفصل"، لقد عشت معها أجمل سنة في حياتي، كانت كالحلم، أعطتني كل شيء وأنا كذلك. هذه الحجرة وهذا السرير الصغير والمتواضع شهدا أطول ليالي العشق والحب وأدفأها. لقد قَبلتْ بشفتيها كل مسام جسدي. كان جسده مثل فنان هاوٍ. كان نحيلاً وطويلاً ولكنه متسق التكوين، وخصوصًا في العلاقة بين حجم الكتفين وشكل الساقين. رأسه جميل ذو جبهة عريضة و له عينان سوداوان تملآن نصف الوجه، وأنف محدب، وشفاه رقيقة تميل إلى الزرقة منهما إلى البني، وأصابع طويلة تظهر عروقها بوضوح. كان يشبه توت عنخ آمون.

ثم قال وهو ينفخ دخان السيجارة التي أشعلها منذ قليل، وينظر في رمادها الذي سقط على إحدى ساقيه: "لقد تملَّكتني".

حاول أن تنساها. هكذا قلت ببرود وعدم تأثر.

-ليس سهلاً. ألم تجرب الحب؟

-صمتُّ .

ثم قال: في البداية كنت أتدلل عليها، ولكنها حاصرتني وأعطتني كل شيء مالاً وسكنًا وحبًّا. أنا من البربر أتيت إلى أيرلندا هاربًا من العنف في الجزائر. نجوت بأعجوبة من مذبحة جماعية في قريتي هناك حيث الجبال الخضراء، وهرَّبني أحد رجال الطوارق، من طريق وعرة، خلال الجبال حتى وصلت إلى مضيق جبل طارق، ثم تسللت إلى الميناء، وهناك أخذني أحد البحَّارة معه

بعدما وعدته ببعض المال. وفي المركب عندما ضبطني القبطان هددته بالقتل إن وشى بي إلى السلطات، وجئت من "بلفاست" إلى "دبلن". ثم تعرفت إلى "شنيد" في إحدى الحانات. دعتني إلى بيتها وقدمتني إلى والدتها التي علَّقت على سلوك ابنتها بأن هوايتها منذ طفولتها الحصول على الأشياء الغريبة مهما كلَّفها الأمر. وفي لحظة من السُّكر حذرتني من جنونها وحاجتها المتطرفة للرغبة الجسدية ، وقالت: إن هذا خطر عندما يصيب النساء يجعلهن غير قادرات على الارتكان إلى رجل واحد. تعجبتُ كيف تذم أم ابنتها إلى هذا الحد!وقال وهو يطفئ سيجارته في كوب الشاي: تخيل رجولتي وشرقيتي منعاني من أن أطارحها الغرام في منزلها، كانت تجيء في أوقات متأخرة من الليل وترقد معي تحت الفراش الدافئ وتضمني إليها بقوة وتقول لي: خبئني في صدرك ، أبعد عني أوهام الروح ومتاعبها فأنا مثقلة وتائهة. قلت لها وهي بين ذراعيَّ : "أنا لا أعيش في الحرام لقد سئمت الزنا. دعينا نتزوج".

وكأنها صُعقتْ فنهضتْ و جسدها كله ينتفض، و نظرتْ إليَّ بألم وعدوانية ، وتمتمت بكلمات عجزت إنجليزيتي عن تأويلها أو فهمها، ثم ارتدت ملابسها وأسدلت تنورنها على ساقيها وحشرت نهديها في بلوزة شديدة الضيق، ورغم منذلك هربا منها وكأنهما غضبا منى أنا أيضًا.

بعد فترة غير قصيرة تغيرت، رفضت الزواج مبررة أن العربى يعامل المرأة كمتاع، وأنه يتزوج عليها مرة واثنتين وثلاث

وأربع مرات. قلت لها : من قال لك ذلك؟: قالت: في السعودية المرأة تمشي وراء الرجل، وتغطي جسدها ووجهها كله ؛ هذا ظلم.

-إن أردت الجسد فلا زواج، والروح أيضًا دون زواج.

قلت: الحلال أطيب وأطهر.

قالت :لا أفقه كثيرًا مما تقول!

ثم تحرك ناحية النافذة و أمسك بزهرة الأيرس.

قلت: انسها .

رد بيأس: لا أستطيع... لقد لبستني .

-قلت: إذا كنت حقًّا تخاف الله، فلماذا وافقت على أن تضاجعها منذ البداية؟ - قال: المرأة الغربية تجرب فعل الحب مع الرجل قبل الزواج. هذه عاداتهم في الحب.

-قلت: ولكن أين إرادة الرجل، ومن يفرض شروطه في هذه العلاقة. أنت أم هي؟

قال: كنت وحيدًا ومشردًا. والمرأة هي الأمن ومرفأ الحنان، ثم توقف برهة وقال و هو يتنهد: أعتقد أن والدتها هى السبب.

قلت: ولكن أرجوك لا تفكر كثيرًا حتى لا ترهق أعصابك.

و لكى أخفف عنه وجدتنى أسرد له قصتي مع سهام، وحكيت له عن معاناتي معها قبل السفر، وتضخم إحساسي بها في الغربة ، وحكيت أيضاً عن سيمون وعن معاملتها الرقيقة معي ، ورغبتها في الارتباط بي. وشعرت بالارتياح عندما أخرجت ما في صدري رغم من تحذيره لي بطريق غير مباشر من التسرع في ارتباطي بها و خاصة بعد ماعلم أنها مرتبطة بشخص آخر.

تركته و خرجتُ، و من وراء زجاج النافذة لمحت زهرة الأيرس وبقى هو وحيداً يفكر في الطفلة. وسألت نفسى :لماذا تلومه على علاقته و افتتانه بهذه الطفلة؟ أنت أيضًا متورط فى علاقتك بسهام و لاتستطيع الفرار منها ، و باسط ذراعيك عليها كأنك كلب أهل الكهف تحميها و تحفظها و هى لا تستجيب لك مطلقًا، أفق أنت أيضًا.

* * *

كانت أغنية عمرو دياب "الفراق ده نار" تملأ فراغ الغرفة، وتعطيني إحساسًا بالوحشة والغربة.

* * *

18

يوم بلوم: 16من يونيو .

شعرت بالوحدة رغم من امتلاء الشوارع بالبشر. أشرقت الشمس لفترة قصيرة، وظل شعاعها يملأ الأفق، ولم تنتشر السحب بكثرة هذا اليوم. ملصقات في كل مكان تدعو الجمهور إلى حضور ندوات الشعر والعروض المسرحية، وقراءة بعض فصول من رواية "جويس" الشهيرة "عوليس". إعلان عن رحلة إلى وسط دبلن للولوج إلى الشوارع والأزقة والبارات والحوانيت نفسها التي زارها بلوم بطل الرواية في هذا اليوم منذ أكثر من تسعين عامًا. ذهبت إلى الجامعة، وصورت بعض الأوراق، وأثناء خروجي رأيت شابًا يقرأ رواية لنجيب محفوظ، وعندما سألته عن جنسيته قال إنه أمريكي، وإنه يحب نجيب محفوظ كثيرًا؛ لأنه يمثل الوعي المتحضر للعرب، لأن طريقته الفلسفية في التفكير تدلل على أن المصريين لديهم عقل علمي، وأن الخبرة الفلسفية التى يعكسها فى رواياته و فى منطق ابطاله

هي الدليل على وجود الله وليس إنكاره كم يعتقد بعض المتشككين فى نواياه و اتهامه بالالحاد . .

قلت: أتهتمون بالعرب في أمريكا؟ كانت الولايات المتحدة توجه ضربات قاسية إلى السودان، وهذا ما أثر فى تواصلنا بالرغم من أنه دعاني إلى تناول فنجان من القهوة معه في مقهى بلويز.سألته : هل قرأت جويس أيضًا؟، قال : أحاول و لا أفهم ! أعتقد أن الأيرلنديين أنفسهم لا يفهمونه. لدينا عادة في الولايات المتحدة الآن أن تحتوى مكتبتك على نسخة من رواية "عوليس" لتتظاهر أمام الناس بأنك مثقف: قلت له : إن نجيب محفوظ وجويس لهما السمات المشتركة نفسها فهما مهمومان بقضايا الوطن. محفوظ اعترف بأنه قرأ لجويس أثناء عمله في مكتبة وزارة الأوقاف. كمال عبد الجواد بطل "الثلاثية"، و ستيفن دايدالوس بطل "عوليس" لديهما الهموم نفسها وهى الإنسان و مصيره .حتى الفراغ الروائي والمكان عند عوليس ومحفوظ متشابهان. دبلن في بداية القرن العشرين والجمالية، وكذلك الحكام والثوريون هنا "دى فليرا" و مايكل كولنز و"برنل" و فى مصر مصطفى كامل وسعد زغلول والوفديون ورغبتهم في التحرر من الاستعمار الإنجليزي.

تساءلت : من أمريكا ؟ أه ي الصديق أم العدو؟ أهي منبر الحريات ومبشر الديمقراطية ، أم هى الشيطان الأكبر كما يدعِّى الخمينى ؟ أمريكا أه ي العدل و الحرية و المساواة أم هى حرب الكواكب و صمت الحملان ؟ أه ي الحلم و التطور ، أم الظلم و الهيمنة ؟ أه ي المسيحية بتسامحها و غفرانها وإحسانها ، أم الحروب الصليبية و الصهيونية والماسونية و أطماعها في

الشرق؟ أهى قرين الخير، أم الشر ؟ ترددت أن أس،أله هذه الأسئلة التى تموج و تعصف بعقلى.

خرجت من الجامعة، عبرت الطريق إلى مدخل شارع جريفتون. كانت هناك بعض الفتيات اللائي يعزفن مقطوعة لموتسارت. لم أستطع إلا أن أقف متسمرًا مكاني، منتشيًا بهذا اللحن الرائع.

على مقربة منهن كان هناك رسام يطبع على أرضية الطريق مشهد "أوفيليا" وهي غارقة في البحيرة، وتحيط بها من كل مكان زهور النرجس، وتملأ عينيها نظرة تختلط بها معاني الدهشة والحزن والحسرة، وكانت نظرة الجنون هي أبعد هذه النظرات و التى ادت بها الى الانتحار كما ادعت الملكة والدة هاملت . لا أدري لماذا أطلت التأمل، و رغم من أنني مررت على هذا الفنان التلقائي مرات عديدة أثناء خروجي من الجامعة وانتظاري بجواره في موقف الأوتوبيس، ففي هذه المرة شدتني اللوحة، وكأني أنظر في قبر عميق مملوء بالأسرار الوجودية. وحزنت للمصير الذي آلت إليه أوفيليا حبيبة هاملت المسكينة، وتراءت لي صورة سهام ومصير علاقتنا: فصل مسرحي كبير، والجنون هو مصيرنا المتوقع.

تجولت في تمبل بار ، قابلت سيمون و دعتنى لحضور قراءة لبعض الروايات الأيرلندية الجديدة احتفالاً بيوم بلوم ؛ و هو اليوم الذى خرج فيه بلوم بطل عوليس ليرى دبلن وكان يوم 16من يونيو 1904 وهو اليوم نفسه الذى قابل فيه جيمس جويس

زوجته نورا.. و اليوم نفسه الذى خرج فيه بلوم بطل عوليس من بيته الكائن فى 7 شارع إكليز. معظم الروائيين قدموا من الولايات المتحدة لهذا الغرض، لم أشعر أنهم أيرلنديون، وكذلك سيمون التي ، والتي علّقت قائلة: لماذا يأتون إلينا؟ وماذا يعرفون عن مجتمعنا؟، هم فقط يتاجرون بتاريخنا وحياتنا للمهاجرين الأيرلنديين، يجمعون النقود هناك، ثم يأتون هنا ليجمعوا الذكريات، ويكتبون عنّا وكأننا كائنات أسطورية تصلح فقط للفولكلور الأدبى.

شعرت بالسعادة لاستماعي لهؤلاء الروائيين، واحدة منهم "أدنا أوبرين" كانت تكتب رواية عن "جويس" في منفاه في "ترستي"، ولكنني في اللحظة نفسها بدأت أشعر بالضيق والتوتر، وسألت نفسي: هل أنا روائي؟ هل أنا كاتب؟ هل سأصبح مشهورًا يومًا ما؟

19

" برتنى" ابنة "أدنا" صامتة دائمًا، لا تتحدث معي مطلقًا. وتهتم فقط بكلبها "فرزر". طلبتُ من أدنا أن تخرجه إلى الحديقة حيث يوجد بيته، أو على الأقل تُحممه. وافقتني في الرأي "مارك"، وأكد لي أنه تشاجر معها أكثر من مرة بسبب هذا الكلب ؛ حيث شرحت له أسباب عدم حبي للكلاب، وأن المسلمين يعتبرون لعاب الكلب نجسًا، وأنه في حال أن لعق الكلب يد صاحبه ، أو وضع فمه في دورق أو إناء فإنه يصيب الشيء بالنجاسة لمدة أربعين يومًا، وأنه إذا أردنا أن نتطهر فبالتراب أو الاغتسال، ولكني قلت له أيضًا إنه لا مانع من استخدام الكلب في الحراسة. قال : هذا ظلم، وإن اتفقت معك أن لعاب الكلب ضار. ثم أعلن: المسلمون قساة. بُهِتُّ، ولكني ذكرت له بعض الأحاديث النبوية التي تحث المسلم على الرأفة بالحيوان.

قلتُ :"دخلت امرأة النار في هرة حبستها"

والرجل الذى نزل البئر فشرب، ثم ملأ كفيه ليسقى كلبًا عطش فدخل الجنة".

ولكنه لم يقتنع بذلك.

كان "ماستر مارك" يحب "برتنى"، ويشتري لها دائماً هدايا وكروتًا في مناسبات عديدة. و يقول :تعيش و كأنها يتيمة ، و هى مثل ابنتى التى لم أنجبها و لن أنجبها ؛ فقد كبرتُ فى السن و لن ترضى بى أي امرأة.. من ترضى بشخص كبير و فقير مثلى ؟ مصيرى هو الوحدة، وربما أموت و حدى فى حجرتى و أدنا غائبة، وسأبقى فى حجرتى و لن يدل على موتى سوى هذا الكلب الذى له قدرة على رؤية روحى و هى تفارق جسدى ، فيبكينى بنباحه و ستحزن برتنى كثيرًا لفراقى ؛ لذلك أنا أحبهما لأنهما سيبجلا موتى وكأنهما عائلتى.

تهوى برتنى النحت، وبخاصة نحت تماثيل الخيول، وتهوى مشاهدة سباق الخيل في التلفاز، وتجلس بالساعات أمامه تسجَّل هذه المسابقات. في حجرتي فقط ثلاثة تكوينات مختلفة للحصان، وفي حجرتها التي لم أدخلها مطلقًا أكثر من ستين حصانًا كما ذكرت أمها. كنت ألمحهم أثناء نزولي من السلم المجاور لحجرتها. هي أيضًا نباتية، لا تأكل اللحوم تضع طعامها من الأرز أو الخضراوات في الميكروويف. ثم تأخذ طبقها وتجلس في حجرة المعيشة تشاهد التلفاز، أو تصعد إلى حجرتها. وهي أيضًا لا تكلم أحدًا وخاصة أنا، وكأنني لست موجودًا معها، أحيانًانتبادل بعض الجمل القصيرة أثناء وجود والدتها أو "ماستر مارك" ،"برتنى" تتوق إلى السفر إلى ألمانيا لتعمل هناك، فقد دعتها أختها لفعل ذلك.

"برتنى" منطوية، ولا تحب الحديث مع الأغراب، ولكنها مع الأيام ستتعود عليك." هكذا طمأنتنى السيدة أدنا.

ثم أضافت بحماس ة وبنبرة من الحزن :إن "برتنى" منذ طفولتها وهي كذلك، تعاني من مرض التوحُّد، أعتقد أن فقدانها لأبيها وهي صغيرة كان هو السبب فيما حدث لها. وحاولت أن أخمِّن لماذا تحب الحصان عن كل الحيوانات، الأخرى ، ولماذا تحتفظ بالكلب في حجرتها مع أن رائحته كريهة؟

قالت أدنا :ابنتى تخشى الأجانب مثل معظم الايرلندين فقد كنا معزولين لفترة طويلة، لم نكن نعرف أي شيء عن العالم الخارجي، الإنجليز والأسكتلنديون يزوروننا أيام عطلة نهاية الأسبوع، يأتون إلينا بالقوارب التجارية ، ثم أضافت أدنا قا ئلة بازدراء: إنهم ينفقون نقودهم على سطح القارب قبل أن ينزلوا على ميناء "دون ليري" ، و ينتهزون الفرصة لمغازلة النساء الأيرلنديات، ثم قالت بأسى وحزن: إن بعض الرجال الأيرلنديين لا يحبون الإنجليز ولا يستلطفون الأسكتلنديين رغم رابطة الدم أيرلندا الآن يأتيها أجانب من كل مكان، لقد أقامت علاقات مع جميع دول أوروبا والعالم ، ولكنهم غير مؤهلين في هذه الفترة لمثل هذا الوجود الأجنبي. يخشون أن تُحتل بلادهم مثلما فعل بهم الإنجليز من قبل. أعتقد أن بعد عشر سنوات لن تجد هذه المشكلة، كل شيء سيتغير فقط لو نصبر قليلاً.

* * *

20

فى حديث حواء لآدام لحظة الخطيئة قالت:

إن العاقبة تختلف اختلافًا بينًا، اتسعت آفاقها بتفتح الأعين و مذاق رباني بلغ من جماله و مسته حواسي، يبدو الآن أستند إلى خبرتي يآدم وليذهب خوفك من الموت

فليست الموت بل الحياة التى وغمرت بآمال جديدة وأفراح قشيبة أن كل ما ذقت من حلاوة قبله باردًا غليظًا إن قورن به. و كُلْ منها ما تشاء رغدًا أدراج الحياة!

جون ميلتون :الفردوس المفقود، الكتاب التاسع(984 - 990) 6

عندما **دعتني "سيمون" إلى منزلها لتناول العشاء. اعتقدت أنها ستكون بمفردها، ولكن وجدت مسكنها مزدحمًا بالضيوف، و كعادتها رحَّبت بي بحرارة، وقدمتني بود لأصدقائها، ثم تناولنا العشاء، وجلسنا جميعًا، فبدأت هي بالعزف على البيانو، ثم صاحبتها أختها بالعزف على الكمان. وشاركتهما صديقتها الغناء، وبعدما انتهت طلبت مني أن أغني لهم أغنية خاصة بمصر، فغنيت**

ولقيت استحسانًا، ثم انفض السامر وأخذ الجميع مجلسهم، فتقدم مني شاب، وعندما لمحته اقتربت "سيمون" وعرفتني به. كان "برندن" صديقها الذي طالما تحدثت عنه، استكشفني بعينيه ، ثم مدح صوتي وسألني عن الأغنية، فذكرت له أنها أغنية لعبد الحليم تسمى "عدى النهار"، وشرحت له المعاني كما طلب، فقال: أتحب مصر بعدما الذي فعلته مع جيرانها؟ فسألته: من جيرانها؟ قال: فلسطين .. لقد باعت مصر القضية في مقابل مصلحتها. ثم تحدث عن علاقة أمريكا بالشرق الأوسط، وسماح مصر لأمريكا بغزو بغداد، ودخولها الحرب ضد العراق عام 1990 م؛ فشعرت بالمهانة عندما هاجم "برندن" سياسة مصر تجاه فاسطين ومداهنتها لإسرائيل وأمريكا، وتقوية شوكة الوجود الغربي منذ معاهدة "كامب ديفيد" . قلت لنفسى لماذا يتحدث الكل هنا عن المعاهدة؟ ولكنى لم أستطع أن أقنعه برأيي، وأنه لولا المعاهدة لما عادت سيناء، و بخاصة أن هذا ما تعلمته في كتب التاريخ في مدارسنا، لم أتساءل عن جدو ها، وعن مدى الإفادة منها! تذكرت مقولة صديقى "الناصرى" و الذى ينتقد السادات فى ندوات حزب التجمع،لم أتفق معه فى كثير مما يقول لأنه يتحامل عليه فى كثيرًا من الأحيان، و الذى يرى أن المعاهدة لم تخلف إلا الاستسلام و عطلت تعمير سيناء وجعلتها منطقة خاوية من المصريين والاستثمار الجاد ولاحتى جيش يحميها الأ من بعض القرى السياحية وشواطئ لليهود والروس، وجعلت المصريين خدم اً لهؤلاء الذين لم يحضروا إلا للمتعة. وأغ لقت معظم المعابر أمام

الفلسطينيين العزل الذين يعانو ن ويهلكون على الحدود والمعابر في غزة ورفح.

كانت المعاهدة هى الأرض مقابل السلام. نعم هناك سلام ولكن هناك أيضًا مصريون يعبرون سيناء بتحقيق هوية وكأنهم غرباء وأجانب في أرضهم التي استشهد عليها الآلاف لكي يحصلوا عليها.

لقد شيدت إسرائيل مستوطنات تقريبًا على ثلثى أرض الضفة الغربية للمهاجرين اليهود وعمّرت الأرض المحتلة أضعاف ما شيدت مصر على أرض سيناء لأبنائها المصريين الذين يتكتلون في مناطق عشوائية خاوية من الخدمات الأساسية ومحروم ين من المسكن الكريم إلا إذا توفر ت لهم آلاف الجنيهات لشقة صغيرة لا تتعدى الستين متراً.

المعاهدة كانت الفرصة الذهبية لوجود إسرائيل وضعف العرب والمصريين. نعم يجب أن نحافظ على السلام ولكن بشروط القوة والعدل ومشروعية الوجود لكل الأطراف وتحقيق تنمية للمصريين والفلسطينيين . نعم لدينا مشكلات داخلية كبيرة من بطالة وبيروقراطية تجعلك لا تهتم بالدور السياسي الذي تلعبه الدولة خارجيًا، ولكن الذي أدركته أنها أصبحت فقيرة، برغم محاولات التنمية وغير قادرة على إشباع الكثيرمن أبنائها.

ثم قلت لبرندن : إن السلام هو الخيار الوحيد، وربما كان خضوعًا لإرادة الولايات المتحدة، ولكن أيضًا العنف لم يساعد على تحرير معاناة شعبى فلسطين وسوريا.

فقال: المقاومة هى الحل و مِشروعة للحصول على الأرض والحرية.

فقلت فجأة: أيرلندا منذ أربعة قرون تحاول أن تحرر نفسها بالعنف، وقد تحرر الجنوب ولا يزال الشمال تحت سطوة الاحتلال، وإن كل ما يفعله "جيري آدامز Jerry Adams" من مؤامرات ومؤتمرات لن يحل المشكلة، لقد اتفقت أمريكا وإنجلترا على هذا الشعب الفنان الذي يحب البيرة السمراء والغناء أكثر مما يحب السلاح والعنف.

فقال: أنت تعيش في أيرلندا من خلال البارات والشوارع الهادئة، أعطِ نفسك فرصة أن تعرف الجزء الثوري فيها، ولكن لا تتعامل مع الواقع بنظرة حالمة رومانسية وإلا لن تعيش طويلاً، وستخسر كثيرًا. ماذا يقصد بقول لن تعيش طويلا؟ هل يخطط لشيءٍ، ربما يلمح بشىءٍ عن علاقتي "بسيمون". هي نفسها اعترفت أنها صارحته بحبها لي.. إذن لماذا يحاول أن يكون موضوعيًّا معي ، هل أمرته سيمون أن يتعامل معي بذوق وخصوصًا أنني ضيفها ؟ لماذا لم يفتح معي موضوع علاقتي بسيمون؟ هل يؤجل الأمر ؟. هل يريد الانتقام فجأة دون أن يلاحظ أحد كما قال أبو علم؟. هل سينتظرني عند ركن مظلم ويطعن ني لحظة نزولي من منزل سيمون، أم سيضع لي سماً في الشاي؟!،هل حبه لسيمون انتهى ورحب بعاشق جديد لها!. أم شعر أنه لا خطورة مني فأصبح الأمر لديه لا يعني شيئا؟!.

لاحظت سيمون توتري، فقال: دعنا نغني مرة ثانية ، ثم غنت أغنية لشنيد أوكونور"صعب مقارنتك بأحد "Nothing Compares to you" وشاركنا برندن الغناء ، و كان يحملق فى سيمون و يوجه غناءه لها .

بعد فترة انفض السامر، و لدهشتى غادر برندن السكن و كان مخمورًا تمامًا و يستند إلى كتف إحدى الفتيات ، و كان ينظر إلى بحنق ؛ فأردت أن أن انصرف و لكن سيمون طلبت منى البقاء ، قلت: ربما تخاف أن يتربص بى برندن فخضعت لرغبتها ، و قالت : يمكنك أن تنام هنا اللية حتى الصباح، و لكنى ترددت.

* * *

21

جذبتني بقوة وضغطت بيدها الساخنة على عظام ظهري، ثم قالت: لا تنهض، أريدك أن تمكث أكثر.

وقبَّلتني بجوار أذني، ثم دسَّت فمها في عنقي، شعرت ببلل ريقها ساخنًا ورطبًا، و انتهى بنا اللقاء بلمتزاج عسل ريقنا.

الشموع المضاءة في الحجرة أعطتني إحساسًا بالوحدة والعزلة والبدائية. وبرغم برودة الطقس بالخارج كنت أتصبب عرقًا، أثناء قيامي جذبتني من يدي، وتواصلت مع أناملي حركة أصابعها المملوءة. ذهبت إلى الدرج، سحبت منشفة كانت رائحتها ذكية،و لكن اختلطت بوائحة العرق الممزوج بسوائل الشهوة والارتواء.

قالت: لا تخرج الآن من فضلك.

قلت: اتركيني أذهب، لا أستطيع البقاء في هذا المكان. ثم اتجهت ناحية الباب.

قالت: لا تذهب أُريدك بجانبي، ابقَ معي. أنا آسفة. اعلم انك لا تريد الاستمرار في هذه العلاقة حتى أنهى علاقتى ببرندن ثم نتزوج أو ربما هناك امرأة أخرى فى حياتك.

قالت بهمس: ابقَ، فسنتحدث في هذا الموضوع لاحقًا .

قلت : أريد أن أخرج الآن أشعر بالأختناق.

ألقت بنفسها على حافة الفراش وأخذت تبكي، نظرت إليَّ والدموع تجري بغزارة من مقلتيها، ثم نهضت وهي تعدل من شعرها الذي استرسل على جبهتها المبللة، وصرخت: يمكنك الذهاب الآن.. افعل ما شئت.

* * *

قرأت:

سكوت ثم صمت ثم خرس　　وعلم ثم وجد ثم رمس

و طين ثم نار ثم نور　　وبرد ثم ظل ثم شمس

وحزن ثم سهل ثم قفر　　و نهر ثم بحر ثم يبس

وسكر ثم صحو ثم شوق　　و قرب ثم وصل ثم أنس

وقبض ثم بسط ثم محو　　و فرق ثم جمع ثم طمس

عبارات لأقوام تساوت　　لديهم هذه الدنيا وفلس

و أصوات وراء الباب،　　لكن عبارات الورى فى القرب همس "طين ونار"،قافية السين: الحلاج.[7]

كل شيء مباح هنا: لا أقارب، لا إخوة، لا عيب. إذًا من الممكن أن أفعل أي شيء، جسدي يئن بالشهوة والحاجة للتواصل الجسدى ، وعقلي يكبح جماح الجسد، والجسد متعطش للاحتضان والخلاص.

من الصعب أن يحتويك البشر هنا، فالكل يسير في طريقه، ومن الصعب أن تشرح ما تريد، وإن تورطت في فعل يجب أن تكمله حتى النهاية. الحرية نسبية ولا تسقط الأعراف بتغيير البلدان، ولكنها بداخلي تربطني وتعجزني، ولكني أريد وأطمع في التواصل مع امرأة حتى و لم أكن أحبها، حتى لو كانت سيمون.

جسدي ثقيل، وكأنني أحمله على كاهلي.

* * *

يجب أن أعمل،ليس معي نقود، سأعتمد على نفسي و لن أرسل إلى أمي لأطلب منها نقودًا، برغم أنها عندما أحدثها في الهاتف تقول: اطلب ما تشاء وسنرسله لك...

يمكن أن أبيع الجرائد أو الزهور . كثير من الشباب يعملون أعمالاً خفيفة، لا أفضّل أن أعمل في بار ولا حانة، يمنعني ويوقفني تاريخ طويل ديني ونفسي أيضًا، ولعن الله الخمر، وحاملها وساقيها، وشاربها. إلى آخر الحديث الشريف. ثم: لا بركة في رزق جاء عن طريق الحرام. أحمل معي تراثًا من التحذير والدين الأبوي.

قال لي صديقي "ماريو" الإيطالي، الذي تعرفت إليه فى الجامعة ويدرس الفن التشكيلي: إن لم يكن معك نقود يجب أن تطلب معونة من الحكومة الأيرلندية فهي تمد الأجانب بالمال.

-وماذا أفعل لكي أحصل على هذه المعونة؟

-فقط تتوجه إلى قسم الهجرة، وتقدم نفسك على أنك لاجئ سياسي.

-ولكني لست لاجئًا سياسيًّا، أنا هنا لأدرس أطروحة الدكتوراه!.

-أعلم كل ذلك، ولكن هذه هي الوسيلة التي تحصل بها على نقود!

قلت: لا أريد أن أضع نفسي في موقف حرج، لست لاجئًا سياسيًّا، ولا أريد أن أساوم على شيء.و فوق ذلك بلدى لم تفعل بي سوءًا، ولم تضطهدني، على النقيض إنني أجد ذاتي في القاهرة فهنا أشعر بالاغتراب والاحتياج.. أنا هنا لا شيء، علمي وتدريس الأدب الانجليزي ليس ت لهما سوق هنا. وذكرت المثل الشعبي "جئت لأبيع الماء في حارة السقَّايين".

"هل حقًّا ما أقول ؟ ألم تضطهدنى بلدى ب إهمالها لى و ع دم إحساسها بمعاناتى و هوانى عليها؟"

و كأنه قرأ ما فى نفسى.

فقال: يا عزيزي لا تكن مثاليًّا ولا "ش ﭬونِّيا" كل الأغراب والأجانب يفعلون ذلك، وأكثر؛ منهم من يدعي أنه مضطهد دينيًّا أو جنسيًّا في وطنه، ويدعي أنه ينشد الحرية في بلد لا يحكم فيه على الفرد بالسجن لمجرد أنه مختلف في عقيدته أو هويته الجنسية. وأيرلندا لا تعطي شيئًا من جيبها، إنها ميزانية للاجئين تابعة للأمم المتحدة.

فكر في نفسك وفي ذاتك ولا تشعر بالحرج، كلنا نفعل ذلك. أنا هنا هارب من الخدمة العسكرية، أيرلندا بالنسبة إليّ منفي إجباري، كان هناك خياران: إما الخدمة فى الجيش لمدة سنة، وإما

الدراسة في دولة أوروبية المدة نفسها، فاخترت العلم، ليس حبًّا فيه ، ولكن هربًا من القضايا الكبرى. نحن الشباب ليس لنا دور نلعبه الآن غير الجنس وكسب المال بمشقة. هذه هي الإيديولوجيات الجديدة، والنظام العالمي الجديد. لا تؤمن بشيء سوى أن توفر المال اللازم لشراء ما ُيطرَح في الأسواق. الإنسان آخر ما تؤمن به، والمواطن أصبح رصيدًا في البنك و الوطن أضحى منزلاً في مكان ما في العالم تأوي إليه عندما تحتاج إلى ذلك".

وكأنني أخاطب نفسي، حتى الجنس غير متاح في مصر ، فما بال النقود؟ لقد وضعت نفسي في هذا الموقف، ولم يجبرني أحد عليه، لقد اخترت أن أدرس بعيدًا عن وطني، وأن أتحمل مسئولية دراستي. أتساءل أحيانًا: من يهتم حقًّا بمساعدتي؟ ومن يهتم في وطني؟ ماذا أفعل هنا؟ هنا مُهمَل وهناك ضائع. من يهتم بأنني أعانى من أجل المعرفة؟ هل فكرت الجامعة أن ترسل لي خطابًا تسألني عن مدى حاجتي للنقود أو الدعم؟.

لم تكن الجنيهات التي أحصل عليها من تدريس اللغة العربية واللغة الإنجليزية للأجانب كافية لأعيش في "دبلن." كنت أعطي دروسًا في اللغة الإنجليزية لشاب إيطالي يدعى "أنطونيو"، مليح الطلعة قوي البنيان، ومع ذلك كان يعاني من انزلاق غضروفي، وكنت أعطيه الدرس معظم الوقت وهو مستلقٍ على ظهره، وقال لي بعد شهر من التدريس له إنني فأل خير، فقد منّ الله عليه بالشفاء، ونذر أنه كلما زرته في منزله لإعطائه الدرس طهي لي

الباستا (المكرونة). تذوقت كل أنواع الباستا الإيطالية وجربت كل أنواع الصلصة التي يتخيلها أي إيطالي: مثل صلصة عيش الغراب، الثوم، الطماطم ،الجبنة، صلصة بالدجاج، واللحم البقري المفروم وأيضًا الخضروات. كان طيب القلب وكان يعمل طوال الليل في رعاية كبار السن والمتقاعدين، يناولهم الدواء، ويقرأ لهم، ويساعدهم على الذهاب إلى الحمام والاستحمام.

شاب آخر فرنسي الجنسية اسمه "لوسيني" كنت أدرِّس له العربية، وبعد عدة جلسات عرفت أنه يهودي الديانة، وأنه يتعلم اللغة العربية لأنه يريد أن يدرس سياسة الشرق الأوسط، و اعترف ذات مرة أن له أصولا مصرية وأن جده ترك مصر بعد حرب 1948 فهاجر إلى إسرائيل، ثم ذهب بعد ذلك إلى إنجلترا واستقر بها. كان يستغرب كيف أن أيرلندا لفترة طويلة لم يكن بها سينجوج (معبد يهودي) واحد، وأنها الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم يدخلها يهود. فتذكرت مقولة جيمس جويس في رواية "عوليس": إن أيرلندا لم تسمح لهم بالدخول أصلاً.

لم أعرف لماذا أمتنع بعد ذلك فى المجىء لأ عطاءه دروسًا في العربية برغم أسلوبه المؤدب و تطوره فى دراسة اللغة و فوق ذلك عدم عنصريته أو صهيونيته.

وعملت أيضًا في مطعم هندي يدعى"قندهار" في "هرلد كروس"، من الرابعة حتى الثانية عشرة والنصف ليلاً. أمسح أرضية المطعم، ثم أحمل جِوالاً من البصل إلى المطبخ، وأقوم بتقشيره، أفصص الثوم، ثم بعد ذلك أقوم بغسل الأطباق، و طبخ

الأرز. و علمنى شيف المطعم كيف أطهو الأرز الصيني المسلوق، والأرز البسمتى بالتوابل.

كان يعمل معي فى المطعم باكستانى آخر، ولكنه غريب الأطوار، ودائمًا ينظر إليَّ نظرة غريبة ويتحدث بإعجاب عن لون بشرتي شديدة البياض، ودعاني أكثر من مرة للذهاب معه إلى منزل صاحب المطعم حيث يجتمع الشباب من كل أفرع المطاعم التي يمتلكها الهنود والباكستانيون في أيرلندا. فذهبت معهم إلى المنزل " المكون من عدة طوابق ، وفي كل طابق حجرات متعددة يقطن فيها شباب في مقتبل العمر، كانوا يلعبون النرد والكوتشينة. وكان غير مسموح للشباب أن يشاركوا الشيوخ جلساتهم أو ألعابهم. شعرت بالتوتر عند دخولي المكان وسألت: ألا يوجد نساء في هذا المنزل؟ قال: النساء في منزل آخر. في حجرة يملؤها الدخان ورائحة الأفيون و البانجو. كان هناك مجموعة من الشباب يرقصون على موسيقى هندية. أما الباقون فكانوا يفترشون الوسائد وينامون بعضهم بجوار البعض في وضع حميمي. ارتبكت وخفت وطلبت من صديقي الانصراف. استغرب وقال: اعتقدت أنك ستنسجم مع هذا الجو. قلت : لقد فهمتني خطأ، ليس هذا أسلوبي في الحياة. ثم دخلت علينا فتاة ترتدي خمارًا ويشمكًا، تحمل في يدها برادًا، ثم صبَّت لنا أكوابًا من الشاي ممزوجًا بالريحان والقرنفل، فطلب منها بعض الشباب أن تشاركهم الرقص، فخلعت حجابها ثم بدأت في الرقص. كان جسدها يتمايل ويترنح بمرونة وأعجوبة، كان خصرها لدنًا، وكانت تنفعل مع الموسيقى وتقفز

برقَّة من مكان إلى مكان، ثم تذهب إلى صاحب المطعم تتمايل عليه فيقبّلها في فمها وخدها وهي تفرد شعرها عليه، أخذها بين ذراعيه ويقبلّها قبلة عميقة، وينفرد بها في ركن من أركان الحجرة. أردت أن أخرج فطلب منه صاحب المطعم أن ينقلني بسيارته إلى منزلي. فوافق.

وهربت مسرعاً على درجات السلم لكى أنجو من هذه التجربة القندهارية.

ستندم كثيراً لأنك لم تعرف هؤلاء البشر جيداً ، ولم تسمع حكاياتهم وسبب تشردهم في البلاد هؤلاء الأفغان والأكراد والباكستانيون، وسيذهب العالم كله إليهم وسيحاول أكتشافهم أكثر ومعرفة من هم سواء بكتابة الكتب عنهم أو بالصاروخ والبندقية. 11 سبتمبر يوم فاصل في تاريخ الأمم الأسلامية وتاريخ أمريكا. وسيتجه العالم كله إلى هناك ليس فقط ليحارب تنظيم القاعدة ولتتبع آثار أقدام بن لادن ومعرفة عدد مخارج الكهوف ومداخل ها التي يختفي فيها مجاهد و القاعدة والأفغان ولكن لكشف آبار البترول وجمع أزهار القنب والخشخاش. فأفيون أفغانستان له أهمية استراتيجية أكثر من الجبال والمرتفعات وآبار النفط العميقة.

وسترسم الولايات المتحدة الخريطة الجديدة لآسيا والعالم بسيطرتها على هذه البقعة الوعرة من العالم. وسيصبح هذا اليوم النقطة السوداء في تاريخ أمريكا ، وستصبح رغبة الثأر من القاعدة وإن لم تكن ه ى الفاعلة كما يقول المتشكك ون هو الهدف الأسمى للحكومة الأمريكية بل للعالم الذي ينبذ العنف والمقاومة.

وسيظل منظر انفجار البرجين يغطي على جثث القتلى من الرجال الملتح ين والأطفال والنساء والشيوخ على جبال أفغانستان وباكستان وسهولهما، وسيظل شبح أبن لادن يطارد العالم ويأتيك حتماً في الأحلام دائماً كرجل ملتحٍ يرتدي زيًّ ا بدويًّ ويقف هناك بجوار الكعبة يسقي الحجاج نبيذاً ودماً.

***

كان خطاب "حنان" جرس إنذار لمشاعرى، إذن هى تفتقدنى و ربما تحبنى ،هى تعلم أننى أحب "سهام"، حقًا إننى لم أخبرها و لكن كل المقربين يعرفون قصتى معها، وسستتطوع عفاف بسرد قصتى. بريئة حنان فى عالم ملوث وفاسد ، ومشاعر طازجة فى حقل إنسانى ذابل و مجمد .أين هى ؟ وأين أنا؟ أنا هنا وحيد أعيش ليالى مخمورة من دون كأس و أغرق فى ذنب بلا خطيئة. و همى الكبير هو سهام ،وواقعى الآن هو سيمون فقد بت مشغولاً بـ"سيمون"، وأفكر في أحوالها ومصيري معها فهي مصممة على أن نكون معًا، وأن نعيش في الشقة نفسها بعدما سوت أمورها مع صديقها، ولكنني علمت أنها تكذب عليَّ، وأنها لا تزال تقابله، هكذا وشت بها صديقتها الإنجليزية" سارى"، وقالت: لن أنجو منه لأن صديقها غاضب جدًّا ويكره معرفتي بها، وأنها تخشى أن يصيبني بسوء إن استمرت علاقتي بها. "سيمون" ازدادت اقترابًا مني ولعبت دور راعيتي، فقد بدأت تُحضر لي كتبًا تساعدني في البحث، وتحجز لي في دور المسرح، وتحاول أن تلفت انتباهي إلى الأحداث الثقافية والسياسية التي تجري في "دبلن"، وتؤكد احترامها لطقوسي الخاصة وعلى تحفُّظي كرجل مسلم وتعترف أن إشباعها كامرأة يكفي من نظرتي لها أو لمستي لأناملها فقط.

وكنت فرحًا بهذا الاهتمام فقد كان جديدًا أن تتعلق بي امرأة بهذه القوة، كان اختبارًا حقيقيًّا لذكورتي ورغبتي في أن أزيل براءتي التي كادت تصل إلى حد الرهبنة، والتي ربما ستؤدي بي في النهاية إلى أن أفقد حماستي للمرأة، وربما للخنوثة ولكن شكوكي بدأت تتضخَّم بحديث صديقتها "سارى" عن رغبة صديقها السابق في الانتقام مني. وازداد الوهم هوساً فكأني أرى رجالاً يراقبونني ليلاً، ومحاولات اعتداء وتحُّرش لفظي وجسدي بلا داعٍ بين بعض الشباب في الحي الذي أقطنه وخصوصاً بعد رجوعي من بيتها. أخبرت "أبو علم" عن مخاوفي، فأكدها و نصحنى أن أحترس، فربما ينتهي بي الأمر غريقًا في إحدى البرك الطينية بعدما يجردونني من ملابسي ويدهونني "بالقار"، وينثرون على جسدي ريش الطيور دليلاً على الذل والاحتقار.

كنت أرى أن من يقتل باسم الوطن يمكنه أن يقتل من يسرق حبيبته، ولم لا؟ أليست الأرض مرادفًا للمرأة على مر العصور ؟ آدم خسر الجنة وكسب جنة أخرى وأرضًا أخرى.. هي حواء.

لذلك حاولت أن أتهرب من "سيمون" وأتجنب الأماكن التي يمكن أن نتقابل فيها، وكنت أمكث في المكتبة فترات طويلة، ولم أرد على الهاتف؛ لأنني أعلم أنها هي التي تعاود الاتصال بي دائمًا. هل أنا جبان لهذه الدرجة؟ وهل حديث هذه الإنجليزية أخافني لهذه المرحلة التي تشبه الهوس لدرجة الاختباء من "سيمون"؟ أعلم أن سارى لا تحب سيمون و تتمنى أن تغادر الفرقة لكى تستأثر بها، و سيمون أيضًا تكره "سارى " وتوى بشكل مبالغ فيه أنها

رمز الأستعمار الإنجليزى فى دبلن لجبروتها و تعنتها. ولكنني قررت أن أكون شجاعًا وأخبر سيمون بمخاوفى و بما يدور في خاطري، وخصوصاً أنني لم أكن أحبها بصدق، فربما أتحرر وتحررني.

22

في ليلة من الليالي نفدت نقودي، كانت ليلة باردة والصقيع يجمِّد أطرافي، بدأت تمطر وفاتني أتوبيس الحادية عشرة وهو آخر أتوبيس، ولم يكن معي نقود.

وقفت في شارع "ديم"، بعد الساعة الواحدة ليلاً أقترض بعض النقود.

- سيدي هل معك خمسة وعشرون بنسًا؟

وللمفاجأة أعطاني أحدهم نصف جنيه.

معتز، ماذا تفعل؟ تتسول؟ وماذا لو رآك أصدقاؤك؟ وماذا لو رأتك رئيسة القسم؟ سأقول: لقد توقفت المواصلات العامة عن العمل، ولم تكن لديَّ نقود كافيه لأجرة التاكسي، لا أود أن أوقف سائق التاكسي ، وأتوسل إليه أن ينقلني إلى منزلي دون مقابل.

نعم ، بين هؤلاء السائقين رقيقوالقلوب سيلمحون في عيني ذل الفقر، و يوافقون على توصيلي.

أفقت على لمسة يد تضع بعض العملات فى يدى، الأيرلنديون، محسنون، يعطفون عليَّ ويتصدقون بما في أيديهم، أخلاقهم الطيبة تمحو كل آثار الحنق والغيظ التي تملؤني أحيانًا من أفعال بعض الحمقى. جمعت مبلغًا لا بأس به.

كانت على جانب الطريق باقة من الزهور مُلقاة بجوار سلة، فاقتربت منها وتزينت في رأسي الفكرة، وقررت أن أبيع الزهور، بدلاً من التسول. وتذكرت كيف كنت أبيع الزهور وأنا طالب في القاهرة، وكنت أدخر منها لمصاريف الدراسة أثناء الجامعة.

أخذت الباقة وعرضتها على المارة، كان بعض العشاق يتلهف لزهرة يعبِّر بها عن محبته لخليلته، فيأخذها مني، ويغدق عليَّ المال، والبعض الآخر يدعي أنها شقيقته أو زوجته، فلا حاجة للزهور. إذًا هذه مهنة، ومهنة حرة لن تعطلني عن دراستي، ولن تحتاج إلى تصريح عمل، فأنا هنا للدراسة فقط، ولن توافق السلطات على منحي هذا الترخيص. تذكرت بائعة الزهور، وقررت أن أذهب إليها، وأحصل منها على بعض الزهور لأبيعها ليلاً في (تمبل بار).

* * *

قال لي أبو علم:

هؤلاء الأيرلنديون، طيبون جدًّا. قلت: بجد!، مش قوى؟ قال: يعنى، ولكن الكنيسة أفسدتهم فضلُّوا الطريق، هذه البلدة تريد

إصلاحًا. الإسلام لها حل عظيم. إنهم خيرون بالفطرة. أعتقد أن اعتناقهم الإسلام سيفيدهم كثيرًا. قلت: تتحدث مثل الذين هربت منهم أخبرني ماذا يدور بخاطرك؟

-لا ... أبدًا. أنا لا أريد الدعوة بالعنف. ما يحدث في الجزائر لا ينتمي إلى الدين في شيء ، إنه صراع بين مصالح فئة وفئة أخرى....

جبهة الخلاص الإسلامي، والحكومة، كلاهما يريد مصلحة ما. لقد استفزت الحكومة الجبهة بتجاهل الأسلاميين، و إلغاء وجودهم بعد فوزهم الساحق فى الانتخابات فى بداية التسعينيات.فبدأ العنف و مات ما يقرب من 150 ألفًا من الأبرياء فى هذا الصراع ,لقد وقع الدين فى السياسة، ولكني أريد أن يتحقق السلام.

-أتعتقد أن الدين هو الحل؟ سألته.

نظر بشرود، ثم أجاب:

-كنت أمزح. لا داعي أن تفكر فيما قلته كثيرًا. أريد السعادة والطمأنينة بأي شكل من الأشكال.ثم سألنى :

-معتز، هل أنت مؤمن؟ هل تقوم بالعبادات كما ينبغي؟

-لم تكن عندي إجابة أخرج بها.

وسألت نفسي: هل أنا مؤمن حقًّا؟

أنا مسالم بطبيعتي: لا أؤذي أحدًا، لا أسلب أحدًا حقًّا ليس حقي، لا أكذب، أجتهد في العلم، عطوف مع الآخرين، أحب الأطفال، وأُكرِم الشيوخ، وأهرب من الخطيئة كلما استطعت، ولكن أحيانًا تزل قدماي، وأقول سأكتمل يومًا ما، وأستغفر.

سألنى: هل المادية الشديدة التي نعيشها قتلت الروح فينا؟
لا أنكر أن دراستي للأدب الإنجليزي والفلسفة قد طورا عندي قدرة استخدام العقل، والتحري والاستفسار بوغم كل شيء، حتى الغيبيات لا أتقبلها كما هي، بل أتفحصها وأحللها. أليس من حقي؟ سيدنا إبراهيم صاحبتْه الحيرة حتى عرف الله، ونظر إلى الشمس والقمر وفي النهاية وصل إلى الحقيقة، فقال أبو علم مبتسماً : ولكن الوضع الآن مختلف، إبراهيم أبو الأنبياء، أما نحن في نهاية القرن العشرين، فالأديان السماوية كلها موجودة ومتحققة والكتب الثلاثة المقدسة موجودة في كل مكان، والدعوة واضحة وصريحة. إذًا لا داع ي للشك والبحث ورحلة التيه الوجودي، حقًّا يمكن أن يحل الإسلام الكثير من متاعب هذه المدينة. قلت له لا يجب ان تصرح بذلك فالناس حساسون هنا تجاه الدين ثم حكيت له عن الرجل الأيرلندي الذي قابلته في إحدى الحانات و الذى قال لى مهددًا: سأذهب إلى "سوز سيركلر رود South Circular Road" لأحرق مسجد المسلمين هناك، لقد أتوا على كل شيء، يأتون هنا يشترون الكنيسة والمعبد اليهودي ثم يحولونهما إلى مساجد، أخاف من الإسلام، إنه دين العنف والعصبية. أيرلندا جنة دون دين، حتى الكنيسة، خفَّت قبضتها عنَّا. لقد تحولت الكنيسة إلى مطعم ماكدونلدز. أذهب لويكلو وأنت ترى، لا نريد المزيد من السلطات. خفت منه، كان مخمورًا، وصديقته التي تلمس يدي بشوق من حين إلى آخر، هدأت من روعه، وقالت لي: لا تكترث.

ثم سألتني إن كنت أرغب في اصطحابها إلى منزلي، لتناول شراب الجينس!

ولاحظتْ أنني رَفَضْتُ لأنها لم تكن جميلة، غير أن نهديها كانا علامة مميزة في جسدها، لم تكن ترتدي (حمالة صدر) حيث تتركهما يتحركان بحرية كلما أتت بحركة عفوية، تفتح أزرار قميصها حتى موضع مُغرٍ لتظهر عظام ما بين النهدين الطليقين. لمحت حلية ذهبية تشبه (كردان) جدتي. شاحبة بعض الشيء، وشككت أنها تدمن المخدرات بعدما رأيت علامات وخز الإبر في وريدها.

23

زهور الليلك lilies, lilacs, lillics
صحبتان بثلاثة، وثلاثة بخمسة .

-كانت البائعات تتجمعن حول عربة الزهور التي تجرها عجلات واهنة، ومن   أناقتهن لم أكن أحسبهن البائعات ولكن سيدات يُحضّرن أنفسهن لليلة عشق هادئة حيث يرتبن الزهور، ويناولنها للزبائن، وينظرن بشغف حولهن وكأنهن يترقبن قدوم خطر لا محالة. عندما رأيتهن أعدن لي خبرتي مع بيع الزهور في القاهرة وكباريهاتها. منذ طفولتي وأنا أبيع الزهور عند كوبري قصر النيل وأمام فندق سميراميس. -

-بكم الورد؟

-غالٍ.

-عَليَّ؟

-نظرتا لي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي من خلف عربة اليد التي يضعن عليه ا زهورهن. تقدمت زبونة لتشتري زهورًا. انشغلن في البيع لها.

-عايز تشترى ولا بتضيع وقت؟

- بس اعملي لي ديسكونت أنا غلبان.
- شكلك أمير؟ من أين أنت؟ إيطالي و لا فرنساوي؟
- لا، أنا مصري.
- الله أكبر، هكذا رددت واحدة منهن وابتسمت.
- سألت إحداهن: من علَّمك النداء ده؟
- إحنا الأيرلنديين، نعرف كل حاجة.

اقتربت واحدة مني بحميميَّة وكأنها ستقبلني أو تحتضنني.

قالت: أخت زوجي متزوجة من سعودي غني جدًّا ، يلبسها ذهبًا كثيرًا.

فجأة انزعجت بائعة الزهور. وأخذن يهرولن على كوبري "أكونل" الذي يقطع نهر الليفي.

قلت: الزهور!

ناولتني إحداهن باقة، أعطيتها خمسة جنيهات أيرلندية وقلت: غدًا سأعطيك بقية النقود. ولكن فجأة جذبتها مني الفتاة الثالثة التي كانت تقف معهن، كانت قصيرة وليست جميلة مثل الأخريين.

- لا؛ إحنا منعرفكش.
- ردت الأخرى الجميلة ذات الشعر الأشقر الجميلة، واللون الخمري الممتلئة الجسد، وعيناها بلون العسل الجبلي:
- أعطِه إياها.

ثم أخذتها من العربة، وناولتها لي وقالت:

بكرة تيجى.

ابتسمتُ وشكرتها.

ستبيع الزهور. هذا هو الحل الأسهل و الأسرع. لا يوجد عمل لديك هنا و ليس مسموحاً لك أن تعمل لانك لديك فيزا طالب .ماذا ستعمل غير ذلك؟

كومبارس في فيلم تاريخي، ترتدي الملابس الحربية وتضع خوذة فوق رأسك وتنظر إلى الأبطال بانبهار وحسد ، وتتمنى أن يعطيك المخرج دورًا تقول فيه بعض الكلمات، أم راقص "استربتيز" عاهر تقف على خشبة مسرح دائري في وسط بار رخيص تتجرد من ملابسك قطعة قطعة حتى تصبح عاريًا تمامًا، لا شيء يستر عورتك، تدور وتلف حول عمود حديدي بارد تتسلط عليك الأضواء وعيون النساء والرجال! تتقلب على الأرض كعاهرة وترفع ساقيك كمومس تُشير بكفيك تجاه عورتك فتصرخ النساء، ويُلقي عليك الرجال بالجنيهات فتتحمَّس وتقفز كقرد وتشتهيك النفوس المحرومة والمنحرفة، ولكن هل لجسدك هذا الحضور الشهواني: عضلات مفتولة، وجسد متناسق، وبشرة تحمل ذرات الشهوة ومغناطيس الغواية، وعيون براقة وملامح منحوتة وأنف روماني أو يهودي يشير إلى فحولتك.

ماذا ستفعل إذًا لو وافقت؟

ستذهب لمصور من رواد بار جورج، سيطلب منك أن تخلع ملابسك، وتدهن جسدك بزيت "برفين"، وتعطيه أوضاعًا مختلفة لرجل محترف للغواية والفتنة، وسترسل بصورك إلى وكلاء الموديلات ليسِّوقوا جسدك وعوراتك....

هذا الذي ما كنت تطمح إليه؟ هذا ما كنت تريده من سفرك أم هذا الذي يدور يا معتز في عقلك الباطن!كيف تجرؤ على فعل ذلك؟ شاب قادم من الشرق، كان يحمل معه حلم العلم والمعرفة في عالم غربي اشتهر بذلك، شاب جاد من ضواحٍ فقيرة يحمل معه ثروة عقله وإرادة حديدية، شاب نشأ في أسرة متوسطة الحال، راضية بمعاش رب الأسرة الضئيل الذي حصل عليه بعد خصخصة المصنع الذي كان يعمل به، ولكنه كافح من أجل أن يعلم أولاده، مقتنعًا بخطاب جمال عبد الناصر في قيمة التعليم كمحرِّك اجتماعي، وأن العلم والمعرفة والتفوق يسقطون صك وضاعة الطبقة والفقر؛ لأن التميز له ثمن. صدق والده مقولات ناصر، وعاش مخلصًا لها وله طيلة عمره، وأقنع "معتز" بذلك بوغم كل المعوقات التي كانت تواجهه، سيتعلم ويتفوق ويحصل على الدكتوراه، وسيصبح ابن العامل المتدين من خيرة القوم وأفضلهم، تمامًا مثل أبناء الأغنياء الجدد، أو المرتشين القساة، وسيثبت للجميع أن في وقت الفساد وعصر الأزمة هناك قيمً ا يجب أن نتمسَّك بها، وأن "الناصرية" لن تموت، وأن العلم هو السلاح السحري لحل أزماتنا وعُقد نقص الجنس البشري.أب لديه خمسة من الأولاد، حاول هو وزوجته الريفية أن يبذلا أقصى جهدهما ليخرجا للمجتمع الفوضوي مواطنين صالحين، ولكن لم يعد المجتمع يعترف بالصالح، بل يعترف بأشياء أخرى، ومع ذلك هناك جيوش لا تزال مرابطة، العهد القديم بوغم كل العواصف والأمواج

التي تجبر الأباء على وضع الأبناء تحت أقدامهم ؛ لكي ينجوا من الغرق و الفساد.

24

جاء الخريف مبكرًا هذا العام كما يقولون، وسقطت أوراق الأشجار صرعى على الطرقات الضيقة، وملاك الموت هو فقط الذي يعرف أعدادهم وأنواعهم، وابيضت وجوه المارة والطلبة بسبب هذا الصقيع الشديد. تدثرت بأغطية كثيرة، وحماني المعطف الذي أحضرته معي من القاهرة من اختراق البرد لعظامي التي بدأت تئن على غير العادة. صديقي ماريو ينصحني بأن أشرب الخمر؛ فهو الإكسير الذي سيجعلني أتأقلم مع أيرلندا، ويؤكد أنه إذا لم تشرب خمرًا وتعاشر نساءً فلماذا الحياة إذًا؟

قالت فريدا وهي تحضر لي الزهور وتلفها بالسلوفان وتل عق أطرافه بلسانها لتتماسك اللفة بصمغ ريقها: إن زوجي يعتقد أنني أميل للأجانب أكثر من أبناء بلدى، هو إنجليزي وأنا أيرلندية، نعم يضطهدني، ولكن أحبه، لقد أدمنته، صار جزءًا لا يتجزأ من حياتي. أنا معذبة في هذه الحياة، دائمًا تائهة في الشارع كما ترى، ويطاردني البوليس لأني لم أحصل على رخصة للبيع، منذ طفولتي وأنا هكذا، أبيع الزهور، وأساعد أمي في تربية إخوتي السبعة، نحن الأيرلنديون نعشق الأطفال، تحديد النسل ليس له مكان بيننا، إنه حيلة الآخرين لكي يُفنوا شعبنا، ووجودنا في الحياة. المجاعة

قتلت الملايين، ومعظم أجدادنا هاجروا إلى أمريكا، أصبحت الهجرة طبيعتنا وكأن أرضنا تنبذنا. الا أمريكا؟ فهناك أربعة من إخوتي هاجروا إليها. قطع حديثها صوت "ربيكا" تغني أغنية "السلين ديون" الخلود": Immortality

So this is who I am
And this is all I know
And I must choose to live
For all that I can give
The spark that makes the power grow

And I will stand for my dream if I can
Symbol of my faith in who I am
But you are my only

هذه أنا
وهذا كل ما أعرفه ،
ويجب أن أختار الحياة ؛
لأن كل ما أستطيع إعطاءه ،
هو الشعلة التي تمدنا بالقوة .
و سأحارب من أجل حلمي ؛
لأنه رمز الإيمان بمن أكون .

ولكن أنت حبي الوحيد .

وتكرر مقطع "لن نقول وداعًا مطلقًا". We do not say goodbye

وهي تغني تذكرت القاهرة والغناء على كوبري قصر النيل، ثم أرسلت لي قبلة بشفتيها المُغريتين عبر الهواء، فتلقفتها بحنان وخجل. ثم قالت: زوجي الأول كان سكيرًا، ويضربني أيضًا، شخص مقيت، نعم، أنجبت منه ولدًا وبنتًا، ولكني سعيدة مع هذا الإنجليزي برغم كل المعاناة التي أعانيها. أعلم أنه يبتزني، ولكن ماذا أفعل ؟

اقترحت أن تكون شخصية قوية غير انهزامية، أن ترفض هذا الوضع المهين، وحكيت لها عن أختي التي أخلصت لزوجها لمدة أربع عشرة سنة ثم هجرها إلى أخرى، وهرب بولديهما إلى "المجر" مع امرأة تكبره بخمسة عشر عامًا، وحاربت لتأخذ منه الطفلة التي لم يرَها منذ سبع سنوات، كانت انهزامية، وعلَّمها الحب التفاني، ولكن زوجها فهم أنَّ هذا الإخلاص خضوع واستسلام فطغى. هي الآن وحيدة، تعيش مع ابنتها في بيت أمي. أما الولدان فيمنعها من رؤيتهما. أعتقد أنها ستفقد عقلها. دائمًا تتشاجر مع أمي، ودائمًا تستفزنا بأسلوبها في الحياة.

ثم سكتُّ، وتوقفتُ عن الحديث، ثم قلت: ربما سبب وجودي هنا هو الهروب من هناك، كرهت استسلامها، ويذكرني وجهها بالضعف الإنساني في شكله المهين.

مالت "فريدا" بجذعها على سور الليفي ولفظت ما بداخلها! التفتنا حولها.

-قلت: يجب أن تذهبي إلى طبيب.

-قالت "ربيكا":

لا تحتاج إلى طبيب، بل تحتاج إلى قابلة فهي حامل.

نظرت إلى "فريدا" بعيون ملؤها الشجن، ثم قالت بأسى: طفل آخر من حرام كما يقول دينكم! ثم فجأة هتفت بطريقة هستيرية: الله أكبر، الله أكبر.

فأخذت زهوري ورحلت عنهنَّ تاركًا ورائي الليفي وبقايا خبز ومرارة حلق تمتزج بمياه النهر .

* * *

25

شوارع "دبلن" ممتدة وضيقة، ووسط "دبلن" ينقسم إلى جزءيْن الشمالي والجنوبي، والذي يحدد هذا هو نهر الليفي الذي يقسم المدينة، وهناك العديد من الكباري التي تصل شطري المدينة، منها "أوكونل" و"هاف بنى بريدج"، والمنازل لا ترتفع لأكثر من ثلاثة طوابق أو أربعة على الأكثر، وأهم ما يميز المنازل الأبواب الجميلة فتبدو المدينة بمنازلها وأبوابها كأنها جدارية كبيرة مصنوعة من المستطيلات الملونة. وكلما اتجهت داخل الحي الجنوبي ازدادت الشوارع ارتفاعًا وتعرجت أكثر، ويصعب على الشخص الذي يمشي أن يتابع هذه الارتفاعات، إلا إذا كانت ركبتاه قويتين. ووسط المدينة مزدحم دائمًا، وخصوصًا في أوقات الذروة، كما هى الحال في العواصم الكبيرة، ولكنها تهدأ أيام السبت والأحد وكأنها خاوية من الناس، ويزداد تدفق الأجانب ليلاً على "تمبل بار". وهو حي يقع في الجزء الجنوبي من دبلن مشهور بخمارته وحانته.

ونظرًا إلى قرب منطقة "تمبل بار" من الميناء النهري فقد كانت تستخدم منازله و حانته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نُزُلاً وفنادق للغرباء والمسافرين، حيث يجدون الزاد و بيوت

المتعة بأجرٍ زهيد ، وكانت تُستخدم ساحته لعرض المسرحيات الدينية، ويُذكر أن الموسيقار الألماني "هاندل" عرض أوبرا "السيد المسيح" عام 1742 هناك، و بمرور السنين تعرضت المنطقة للإهمال، فقامت بعض المؤسسات بإعادة ترميمها وتم إنشاء معهد الفيلم الأيرلندي ؛ حيث يعرض أفلامًا أوروبية وحديثة، وفي "تمبل بار" هناك مركز لتعليم الموسيقى وقاعة للمسرح، وفي أحد شوارعه الرئيسة يوجد مقهى صغير يسمى De Je Vu (دي جي فو)، وهو لا يقدم غير "القهوة التركية"، ويظل مشغولاً حتى الصباح، مظلمًا من الداخل، ولا تنيره غير الشموع، وتسمع فيه موسيقى البلوز و بخاصة أغاني لويز أرمسترونج وبسي سميث Besse smith وأغنيتها الحزينة "بعد رحيلك" after you have gone. كنت أجلس فيه وحيدًا أفكر في حالي ودراستى ورغبتي في كتابة رواية جديدة، وفي سهام، وأسرتي، و "سيمون" هي التي عرفتني بهذا المكان وشرحت لي معنى (دي جي فو) وهو أن تشعر بأن الموقف الذي تعيشه الآن قد حدث لك من قبل، بالرغم من استحالة حدوث هذا الشيء. كنت أتمنى مرات كثيرة أن تكون "سهام" معي، بالتأكيد كانت ستحب هذا المكان، وربما سيكون هذا البار فضاء مسرحيًّا لإحدى رواياتها أو قصصها. ودائمًا يجلس فيه رواد "بار جورج" والبارات المحيطة، ويأتي الأسكتلنديون وأهالي شمال أيرلندا إلى تمبل بار للحصول على المتعة والنساء، وأيضًا للاحتفال بليلة الحناء في شوارعها ؛ حيث تمشي العروس ومعها صديقاتها وأقاربها، ويلبسونها زيًّا

شعبيًّا، ويكتبون على ظهرها جُمَلاً مضحكة عن الزواج ومساوئه ومزاياه، مثل: "متزوج حديثًا" ،" تحت التمرين"، "النهايات التعيسة للحب"،"ممكن تأخذها لفة قبل ما تتوب هذه المرأة وتلتزم"، ويبدو "تمبل بار" هادئًا ناعسًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى مزدحمًا وفوضويًّا، وفي وسطه توجد ساحة أسمنتية مقسمة إلى مدرجات تشبه المسرح الإغريقي، يجلس عليها السياح خصوصًا الإيطاليين، يغنون ويلعبون، كانوا دائمًا يمزحون معي ويشترون مني الزهور، وكانوا أيضًا يعطونني بعض الطعام والشراب، كانوا يمرون كل مساء، ونَمَتْ بيننا بعض الألفة، وفتاة مراهقة من هذه المجموعة أهدتني خاتمًا ليذكرني بها، وقبَّلتني، وقالت: ستكون عظيمًا يومًا ما. وأنا أيضًا أعطيتها خاتمًا حتى تتذكرني.

في خمارات "تمبل بار"، كان المواطنون يشربون حتى الثمالة، ثم يبدءون في الغناء. كانت الأغاني الشعبية تأسر مشاعرهم فيغنون أغنية "ويسكي في القدح" Whisky in the Jar، أو "سأتذكر دبلن في الأيام الخوالي"

I will remember Dublin in the fair old days،

أو

you are my sunshine my only sunshine you make me happy when the sky is gray

أنت شمسي المشرقة

وأنت الذي تجعلني سعيدة عندما يملؤني الحزن.

كانوا يغنون بحماسة وخاصة العجائز منهم، وتختلط أدمعهم بدخان السجائر وزفراتهم الحارة، ويختلط صوت الكمان بسعالهم، وكأن شيئًا ما يذكرهم بأن قهر الأيام لا يزال يسيطر عليهم، وأن أيام الاحتلال الإنجليزي لا تزال تذلهم وستهزمهم لا محالة.

كانوا متحمسين لكل ما هو أيرلندي، و"سلتيك"، وفخورين جدًّا بأبطالهم وشهدائهم، وكأن نسيانهم يعني الزوال والضياع. كانت الموسيقى والشعر والحكايات الطريق الوحيد للبقاء، وشهادة تاريخية على وجودهم.

وفي أواخر الليل يصطف أهالي "دبلن" أمام جامعة ترينتي انتظارًا لدورهم في ركوب التاكسي ؛ حيث إنه غير مسموح لهم بالقيادة وهم مخمورون، فيبدون وكأنهم في انتظار دورهم في الجحيم.

في الصيف تحسَّن الجو إلى حدٍّ ما، ولكن لم تتوقف السماء عن العويل والبكاء، تسطع الشمس تقريبًا ساعة أو ساعتين في النهار كل ثلاثة أيام ثم تغيب. أفضل المشي في شوارع وسط المدينة أو أذهب إلى "ستيفن جرين". حديقة واسعة تتوسطها بحيرة صغيرة يعيش على ضفافها بعض أنواع الإوز والبط التي لا أستطيع تسميتها. أتجول بها هائمًا. أنظر إلى الزهور، والغربان على الأشجار، وأتذكر "تيد هيوز" الشاعر الإنجليزي الذي كتبت عنه أطروحة الماجستير، كان يرى أن الإنسان لا يختلف كثيرًا عن الحيوانات المفترسة في عدوانيته وطبيعته غير المستقرة، بل أحيانًا الإنسان أكثر وحشية من الحيوان. ويرى أن الحيوان يقتل

لكي يعيش، أما الإنسان فهو يقتل من أجل القتل، ما ذنب الأبرياء الذين ماتوا في "نجازاكي" و"هيروشيما"، ما ذنب المئات الذين يموتون في فلسطين كل يوم؟ أو في أىّ بقعة فيها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ؟ دول تتقاتل كل يوم: روسيا والشيشان، البوسنة والهرسك، الأكراد والأتراك، حماس وفتح وكتائب شهداء الأقصى، الكويت والعراق، إنجلترا وأيرلندا، أمريكا والصين وكوريا الشمالية. حكومات ظالمة، جيوش مسعورة، أطفال قتلى تخترق الرصاصات جماجم رءوسهم، وغرف قلوبهم، و فصوص رئاتهم، نساء تغتصب، زوجات يترمَّلن، شيوخ يقتلون على الأرصفة والطرقات، والفائز هو الإنسان، والخاسر هو الإنسان أيضًا. صراع من أجل الحياة والبقاء. سفك الدماء، رفعت الملائكة أجنحتها من على الأرض، وصدقت نبوءاتها حول مصير الإنسان، وفكرة الخليفة محاطة بالعديد من التساؤلات والتكهنات.

جلست وحيدًا على العشب. رأيت فتى وفتاة يمارسان الحب. تفاعلت معهما وحلمت في الليلة نفسها.

* * *

"برتنى" ظلت صامتة بقيت تصنع الخيول، وأخذ مستر مارك يرسل لها الكروت ويضعها على مائدة المطبخ، وظل شبح "أدنا" يروادني لأيام عديدة، وخصوصًا بعد ما رأيتها عارية تمامًا. كانت كحواء تسير في الفردوس وحيدة تبحث عن آدم. كان بتريك في حجرتها وأعتقد أنها قد أفاقت من نشوتها وهي في طريقها للحمام. رأيتها، كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها امرأة

عارية تمامًا. ربما رأيت وأنا طفل جسد أمي وهي تحممني، ولكن جسد "أدنا" برغم كل هذه السنوات كان جسد شابة لم تكمل العشرين ؛ حيث كل شيء طازج ولدن. كانت شبه مخمورة، لم ترَني بالطبع، أنا الذي رأيتها من الخلف.

لم أستطع أن أنام، ودارت برأسي الظنون: هل ألاحقها في الحمام؟ هل رأتني من قبل عاريًا أيضًا عندما دخلت عليَّ الحمام فجأة ليلاً؟

كنت قد احتلمت وأردت أن أستحم. قرأت في عينها دهشة اكتشافي، لم تعتذر ولكنها نظرت لي، ربما هالها حالي، وربما فوجئت بأن هذا الوجه الطفولي يعتلي جسدًا لرجل مكتمل، حيث غزارة الشعر في صدره وأذرعه وسيقانه، وحيث جسده المفتول والمتناسق، وحيث قوة بنيانه برغم قصر قامته، ربما اكتشفت أن الملابس التي كانت تسترني من البرد تخفي شهوة عارمة وتركيبًا بشريًّا مذهلاً.

* * *

قالت لي جوانا:

"شميس هيني" سيقرأ شعره في "دون ليري" الأسبوع القادم، قالتها والفرحة تملأ وجهها والابتسامة تزيل تجاعيد السنين و أحزانها، شعرها الرمادي يمتزج ببعض الشعرات السوداء. وبرغم الوهن الواضح على تفاصيل جسدها فإنها تبدو في غاية النشاط، صوتها ضعيف ولكنها متحدثة، تُرحِّب عيناها بي عند دخولي المكتب وتقابلني في أي وقت وتجيب عن استفساراتي

برغم انشغالها، وتذكِّر دائمًا رئيسة القسم بأموري وما يجب أن تفعله لي ."

وصفت لي كيف أذهب إلى "دون ليري". وما رقم الأتوبيس؟ ومن أين أستقله؟ وأي محطة أهبط فيها؟ وختمتها بدعواتها بالاستمتاع بالحفلة.

برغم بخار الماء المتجمع فوق زجاج الحافلة فإنني كنت فرِحًا بهذه الرحلة إلى" دون ليرى"، وأخذت أمسحه بيدي لأرى الخضرة الجميلة والكثيفة على مرمي البصر، وأيضًا البيوت الأنيقة التي تقطن بمحبة هذه الحقول. عندما نزلت من الحافلة كان المطر كالسيل العرم، وندمت على أنني لم أحمل معي مظلتي.

"شميس هيني" أخيرًا. ثلاث سنوات يراودني الحلم بأن أقابله وأتحدث إليه. شاعر أيرلندي حصل على جائزة نوبل. هل يتاح لى أن أقابله؟ المرة الفائتة التي زرت فيها أيرلندا لم أستطع مقابلته، فشلت في السفر إلى "كورك". وكان الوقت قد مضى، وحزنت أنني لم أره. لقد أتيت إلى أيرلندا لأفهم طبيعة هذا الشعب وأكتب عن ثقافته وعن تاريخه في أطروحة الدكتوراه، جيمس جويس و"هيني" هما النموذجان اللذان أخذتهما ليكونا مرجعًا لي في رسالتي.

دخلت القاعة، كان يقف هناك على منصة خصصت لقراءة شعره. الأضواء تغمر المكان ؛ احتفاءً بالشعر والشاعر.أخذ يقرأ واحدة من قصائده:

في أحد الأيام وفي الصباح الباكر

قابلت عربات عسكرية مصفحة

تسير في جماعات على عجلات قوية

كلها مغطاة بأفرع الأشجار،

وجنودًا يضعون السَّماعات على آذانهم ويختبئون في أبرا ج دباباتهم

و اتجهوا ناحية طرقي كأنهم يمتلكونها..

انتهت القراءة، واختلط الجمهور في قاعة الاستقبال، وتُهت وسطهم لا أعرف ماذا أفعل وكيف أتحدث إليه. ودارت الصواني الفضية تحمل كئوس النبيذ الأحمر القاني بلون الدم الذى يجري في الأبدان السليمة. كانت الضوضاء صاخبة، وارتجف صوتي قليلاً. ولكني اقتربت منه، وقدمت له نفسي، وشرحت له موضوع رسالتى ؛ ربما كان فرحًا بما أقول له، وربما غيرمكترث. ربما كان سيهتم بي أكثر. إذا كنت قابلته منذ عشر سنوات مضت، عندما لم يكن يسمع به أحد غير الأيرلنديين أو بعض الدارسين الأمريكان مثل "هيلين فندلر" الباحثة في جامعة هارفارد.

لم تكن لدي كاميرا لكي ألتقط صورًا معه دليلاً على رؤيتي له وتوثيقًا لرحلتي إليه، ولكنه قال لي في المرة القادمة : يجب أن تكون معك كاميرا، سنتقابل قريبًا. لا تقلق يا مصري.

26

الحي الشمالي لدبلن مختلف تمامًا عن الجنوب، أعتقد أن هذا السبب الذي سُمِّي لأجله "هاف بني بريدج" "كوبري النصف مليم"؛ لأنه كان يجب أن يدفع المارُّ من الفقراء نصف مليم ليعبر إلى منطقة الأغنياء، و أمام الكوبرى كان هناك تمثالان من البرونز لسيدتين فقيرتين : Hags & Bags. شمال "دبلن"، منطقة محرومة، ترى دائمًا وجوهًا فقيرة، ومدمني مخدرات، ومتسولين، وخصوصًا في شارع أوكونل الذي كنت أتجول فيه عندما أذهب إلى مبنى البريد العمومي أو زيارة صديقي الجزائري، أو لشراء بعض الكتب من مكتبة أيسون، وبرغم الفقر كان ت هناك متاجر لمح ال راقية وتوكيلات ماركات عالمية، ويوجد أيضًا مسرح الـ"أبي Abbey" الذي أسسه "دبليو. بي. يتس" و"ليدي جريجوري"، و"سينج" لكي يحاربوا الإنجليز عن طريق تأسيس المسرح القومي؛ وليكون بمثابة البوق الذي يُحيي الوعي القومي للشعب.

توجد أيضًا سوق "مور Moore" الذي كنت أذهب إليه لأبتاع الزهور، وبخاصة إن لم أجد "فريدا وربيكا" عند كوبري "أوكونل" حيث كانا دائمي الوجود هناك. شارع يتكاثر فيه بائعو

زهور، و به أيضًا ساحة تحتوي على معظم أنواع البضائع، وكان دائمًا مزدحمًا وخاصة يومي الجمعة والسبت.

طلبت ذات مرة من "فريدا" أن تبحث لي عن سكن في هذه المنطقة؛ حيث إنها قريبة من الجامعة، بدلاً من السكن الذي أقيم فيه حيث إنه بعيد جدًّا عن الجامعة، وأضطر للمكوث في الشارع طوال اليوم حتى يحين ميعاد بيع الزهور، وأيضًا لشعوري بالاختناق من الإقامة مع أدنا. لا شيء إلا أنني أشعر بالوحدة والملل في هذا البيت، فقد منعتني من طهي الطعام ليلاً، وتشاجرت معها أكثر من مرة على بعض بقايا الطعام التي تركتْها وأتيتُ عليها ليلاً نظرًا إلى جوعي الشديد, في البداية لم أصرح لأدنا أنني أعمل بائعًا للزهور تكتمًا للأمر، ولكن بعد ذلك صارحتها بحقيقة الوضع.

* * *

كنت أحب المشى بين أروقة الجامعة أتجول على الخضرة الممتدة، أتأمل المبانى العتيقة وبخاصة مبنى الكنيسة وجدت نفسى بداخلها عندما رآني ابتسم، وقال: أجئت للاعتراف أم للمشاهدة؟ فأجبت: جئت لأعرف. فأخذ يتحدث عن نشأة هذه الكنيسة، وعن ركائز المسيحية، وعن قيمة المسيح كمُصلح للكون، عن تاريخ الكاثوليكية في أيرلندا وصراعها مع البروتستانت والإنجليز. سبعة قرون من كبت الحريات، سبع ة قرون من تعذيب الروح والذات، سبع ة قرون من حمل دم المسيح على الأعناق، هنا البشر لا

يبتسمون، هم حزانى على المسيح، يكفِّرون دائمًا عن خطيئة آدم الأولى.

دم المسيح الذي سُكِب على الصليب لا يزال يقطر ولم يمحُ خطاياهم بعد. لذلك هم يشربون كثيرًا، ويغنون كثيرًا في أيرلندا.

لم أركز في حديثه كثيرًا، انشغلت أكثر في حساب زوايا الضوء، وكيفية اختراقه للزجاج الملون، وأخذت أعد المقاعد الخشبية على جانبي بهو الكنيسة.

أعجبتني ياقته البيضاء وزيه الأسود رمز الحزن والحداد والزهد. تذكرت ملابس الكهنة الأقباط في كنيسة ماري مرقص بمصر القديمة. تخيلت نفسي بهذا الزي، تذكرت أصدقائي في (مدرسة التوفيقية) كانوا يعتقدون أنني مسيحي؛ لأنني أشبه القساوسة.

تخلصت منه، وصعدت إلى القسم لم أجد "جوانا". كانت هناك سكرتيرة أسكتلندية قصيرة القامة مليحة الوجه، ولكنها متقلبة المزاج عندما رأيتها، افتقدت "جوانا"، واجهتني بابتسامة بها سخرية، هكذا قرأت حالها، لا أعرف، دائمًا أشعر بالبشر وأستشعر حبهم أو كرههم لي من أول لحظة، ربما أكون مخطئًا، لا أعلم، ربما تكون هذه طريقتها في التعامل مع الناس على وجه العموم، ليس كل من يبتسم لك صديقًا أو محبًّا.

سألت عن "جوانا"، قالت:

–لقد أخذت إجازة لمدة عام.

–ثم سألتها: هل هي مريضة؟

– لا أعلم، يمكنك أن تتصل بها.

هل من الممكن أن أحب امرأة مثل "جوانا"، جاوزت الخمسين، وأنا لم أتعد الثلاثين؟. لا تفسر الحنان والواجب على أنهم ا عاطفة وحب. معتز ... هي في سن والدتك. ذكر لي رجل الأمن الطيب بالجامعة وهو يحتسي القهوة، أنها ستترك القسم ؛ حيث إن صحتها عليلة، قلبها خذلها، ونصحها الطبيب بأن تأخذ إجازة لمدة عام لتستعيد فيه قدرتها، وربما تقوم بعملية جراحية.

"جوانا" كانت السبب في وجودي في أيرلندا هذه المرة.

كانت المرة الأولى، عندما زرت "دبلن" في زيارة قصيرة لحضور مؤتمر عن الأدب الأيرلندي، قابلتها، وجهها بشوش، عرفتها أنني من القاهرة، وأتيت إلى أيرلندا لحضور مؤتمر وجمع مادة علمية. أعطتني تليفونات أساتذة وعناوينهم في الأدب يمكنهم مساعدتي في البحث الذي أقوم به.

وفعلاً قمت بالاتصال بهم، ودعوني للقدوم إلى أيرلندا. كانت تتولى توصيل الخطابات التي أتركها لرئيسة القسم بنفسها. عندما تغلق السكرتيرة الأخرى باب الحجرة، وتراني جوانا من وراء الزجاج، تبتسم وتهرول ناحية فتحة الباب وتجلب لي الرسائل وتسألني عن أحوالي. وتطمئنني أن الطقس حتماً سيتحسن.

كانت دائماً ما تنصحني بالسفر إلى بلفاست في شمال إيرالندا ؛ حيث إن هناك خبرة مختلفة عن دبلن، فأصل الصراع السياسى و الدينى موجود هناك بين أيرلندا وإنجلترا والشمال المحتل، وهناك الجيش الأيرلندي الجمهورى الذي يريد تحرير إيرالندا الشمالية

ويوحدها مع الجنوب بعدما انفصلا بسبب المعاهدة التى قام به المجاهد " مايكل كولونز" عام 1922 و دفع حياته ثمن هذا القرار لعدم موافقة الوطنين و المجاهد دى فليرا ، فاستقرت ستة وعشرون مقاطعة في الجنوب وبقيت ستة مقاطعات في الشمال تحت الاحتلال البريطانى و أضافت بفرحة وأيضًا شاعرك شميس هينى من مقاطعة ديري في أيرلندا الشمالية وكانت تمزح وتقول: والبطاطس التي تحبها موجودة هناك أيضًا بكثرة.

– اتصلت بها، أصرت على توديعي، وأحببت ذلك.

تقابلنا عند الباب الخلفي لمكتبة "أيسون" بشارع هنري، كان صيفًا، أشعة الشمس تنعكس على بقايا المطر المرتكن إلى جانبي الرصيف. وجدتها واقفة بجوار الدرج المؤدي إلى المكتبة باهتةً، وشعرها الرمادي القصير ينساب بوهن على وجنتيها الذابلتين، ولكن ابتسامتها مشرقة، وتتحدى الحياة والطقس القاسي، رأتني انتفضتْ من وقفتها بحركة عصبية ومدت يدها الناعمة الدافئة.

– أحضرت لك بعض أبحاث الطلبة عن "شيمس هيني"؛ ربما تفيدك.

– شكرًا جزيلاً سأفتقدك، لا أعلم ماذا أفعل في هذا القسم أثناء غيابك!

– ستجد غيري يساعدك.

– أشك في ذلك، "جوانا" أنتِ مثالية في كل شيء.

– لا. أنا بشر، لو كنت في القاهرة ومغتربة، كنت بالتأكيد سأجد من يهتم بي، الرُّحماء كثيرون في العالم.

- كيف أحوال والدتك؟

- بخير، لا تزال تأكل من العسل الذي أهديته إياها، أنت كريم يا معتز. أخاف عليها، لا أحد يهتم بها غيري، جاوزت الثمانين، ولكنها مدركة لكل شيء، تشعر بي، وتخاف على قلبي.

- لا، ستعيشين كثيرًا يا "جوانا"، أمراض القلب دلع هذه الأيام.

- ابتسمت بمرارة، ثم ربتت على يديَّ.

تناولنا الشاي في كافيتريا بإحدى الأسواق التجارية الضخمة انبهرت بمنظر البراد الأصفر المتوهج، يشبه لون زهور عباد الشمس.

وهي جواري شعرت أنها حبيبتي التي أريد أن أبوح لها بكل أسراري، ولكن انعقد لساني ونفد الكلام، أو هكذا هيئ لي. أدركت هي بالفطرة أن هذا هو آخر ميعاد بيننا.

وعدتها أني سأقابلها بانتظام، ولكني لم أفعل!

* * *

27

" *تجيء أدنا* " مخمورة ليلاً، غير ثابتة الحركة، تترنح يمينًا وشمالاً، تضحك بهستيرية، بتريك متماسك قليلاً، ولكن وجهه قد تحول لونه إلى برميل من النبيذ المعتق. أسمع صوت المفتاح في المزلاج، فأهبط الدرجات الخمس عشرة مسرعًا لأفتح لهما ؛ حتى أوفر عليهما عناء المحاولة اليائسة، تنظر إليَّ بعينها الواهنة، وتحملق فيَّ، وتقول: لا تزال مستيقظًا، هل ربحت كثيرًا اليوم من الزهور ؟ ستخيب آمال والدتك، أجئت لتتعلم أم لتتسول؟ ثم تضحك مرة ثانية، تدخل إلى المطبخ، تفتح الثلاجة، ثم تغلقها، وتربت على ذراعي أشعر بحنان داخلها من هذه اللمسة.

– بتريك، ألن تصعد لتنام؟

– يجيب: ليس الآن.

تنظر إليَّ باستغراب، أصعد إلى حجرتي وأغلقها، أنظر في المرآة وأشعر بالخوف، أخفي سطح المرآة ببعض قطع الملابس الداخلية، وأجلس محاولاً الكتابة، أغالب التعب والنعاس، أكتب وأكتب، ثم أنهض أستلقي على الفراش، أشعر بلدغة حشرة، أزيح الغطاء وأبحث عنها، أمسكها بين إصبعيَّ، لا أقتلها، أضعها في منديل ورقي وألقيها في سلة المهملات.

أسمع ضحكات "أدنا" تأتي من الحجرة المجاورة واضحًا ومخترقًا الجدار.

أسمع تأوهاتها، وتزداد الصرخات وتزداد التأوهات. بعد فترة أضطرب، أشعر بالضيق، أخرج، أذهب إلى الحمام لآخذ دشًا يبرد جسدي، وتنام شهوتي قليلاً.

* * *

معتز

عندما تشعر بالملل في "دبلن" تسافر إلى شواطئ وحيدة، لا يوجد بشر عليها، ولا تمر سفن تكسر وحدة هذا البحر فى مدينة "جولوى". تبحث عن متجر تبتاع منه مظلة تحمي رأسك وجسدك من هذه الأمطار، التي طهرتك حتى ذبت تمامًا. تخاف أيضًا الموت غرقًا، هنا مات كل أولاد "ماريا" التي خلدها "سينج" في مسرحيته "راكبي البحر" ؛ حيث لم يعد أحد منهم مطلقًا. ذهبوا ليبحثوا عن المجهول ومعرفة أسراره، هل استطاعوا أن يعودوا باليقين؟ لا، فقد ماتوا جميعًا، وأنت تخشى أن تموت وحيدًا في هذه البلاد.

على حافة الشاطئ، المصنوع من الأسمنت القاسي، تجلس امرأة عجوز تنتفخ ساقُها من البرودة والمرض، وتنظر بحياء إلى كل مارٍّ بها. وهناك في بقعة أخرى يوجد رجل قد جاوز السبعين يمشي وراء كلبه ببطء ووهن، ويلقي ببعض الفتات له من حين لآخر.

القبلات الساخنة التي يخطفها العاشقان على الشاطئ أخذت "معتز" من دموعه. وبعثت دفء الألفة في جسده.. كانت الفتاة تقفز على ظهر الرجل وتحوطه بساقيها القويتين، وهو يلتفت إلى الوراء ويضحك فيحمرٌّ وجهه ويزداد نشاطه فيلقيها على الرمال ثم يرتمى عليها، فتقاوم وتنهضه. يجري وراءها ويحوطها بذراعيه. ويقبلها بشراهة وهي تبعد وتضحك، ثم بحنان التصقا بقوة، وبقبلة عميقة أنهيا المشهد الذي أخرج هذا الغريب من وحدته، الغريب هو أنا.

* * *

قلت لسيمون : هل تعلمين بماذا كنت أحلم دائمًا؟

بماذا؟

أن أدعو الناس إلى الخير والمحبة، وأن ينبذوا العنف، وأن يعيشوا في تآخٍ وسلام، لا أرى دمعة طفل ولا تعبير إذلال ولا قطرة دم مُراقة دون مبرر، وأن أساعد الناس في مسيرتهم نحو الكمال الذى افتقده، وأن أموت وسط الناس، وفي سلام، وكلمات المحبة هي الآيات والترانيم التي ينتهي إليها سمعي، وأن أرى ابتسامة الملائكة في لحظتين: لحظة نهايتي، وبداية رحلتي الأخرى. والأرض هي الأم التي تحتويني.

-وأين الخطيئة من الوصول إلى هذه المرتبة؟

سألتني "سيمون". فقلت: إن الخطيئة بالنسبة إليَّ هي الطريق للخلاص أحيانًا، هي اللحظة الصادقة التي أعترف فيها أنني إنسان، أنني ضعيف، وأنني أطلب الغفران والحياة. فقالت

بتهكُّم: هذه اللحظة هي الميراث الذي ورثته عن آبائك المؤمنين، الذين يخافون الجنون فيلجئون إلى القوى الغيبية التي تسهل لهم الاستمرار فى الحياة. فقلت لها مدافعًا :لا، إنها الروح المخلوقة على الفطرة التوَّاقة إلى التحقق والخلود، التي تريد أن تبقى طاهرة تقية.

قالت وهي تتعجب وتضع بقوة كفيها على كتفي: الرومانسية تركت أثرها الكبير عليك.

فقلت: هذه هي مشكلتي، دائمًا يُساء فهمي.

قالت : هل تريد أن تكون ثريًّا؟

قلت: أريد أن أكون سعيدًا.

ثم اهتمت وقالت: ما السعادة؟

قلت: أن تكوني راضيةً.

ثم سألت: ما الرضا؟

أن تكوني قانعةً بما أعطاه الله لك.

قالت: الشيء الذي لا أفهمه: لماذا خلق الله البشر؟

قلت: هل قرأتِ النعيم المفقود لملتون؟

قالت: أنت النعيم المفقود.ولكن أحيانًا كثيرة لا أفهمك، تبدو شخصية محيرة ومع ذلك أحبك، أحيانًا أشعر أنك تقي وَرِع كما فهمت، ومسالم كطفل لم يبلغ الثالثة، وأحيانًا أشعر أن بداخلك جنيًّا خر من السماء يريد أن يفسد بين البشر، ومتمردًا على كل شيء، شهوانيًّا حتى الابتذال ، خلوقًا حتى الطهر والنبوة، أحيانًا تريد

الدنيا والحياة دون حدود، وأحيانًا تكون، متحفظًا لدرجة الزهد، ثم مع ذلك أحبك.

* * *

سئمت العيش في منزل"أدنا"، الوحدة قهرتني، باتت لا تتحدث كثيرًا، كما كنا نفعل من قبل، أصبحت أكثر هستيرية وتوترًا، نتشاجر لأتفه الأسباب: التعدي على زهورها، التهامي لبعض الفاكهة، وأصبحت تتضايق من حديث "بتريك" معي. قالت: ستستفزه بحديثك عن الإسلام والحلال والحرام هذا، وعن عقيدتكم التي أكرهها. قررت الرحيل عن هذا المنزل، بالرغم من اتساعه وفراغه معظم الوقت، فمستر "مارك" لا يأتي إلا ليلاً، نتبادل بعض الجمل الاعتيادية مثل: "سيمون" اتصلت اليوم، إنها مغرمة بك، خذ حذرك من الفتيات الأيرلنديات، لا تُعطِ لهن الأمان، فهن مخلصات ولكنهن متقلبات المزاج مثل الطقس الأيرلندي.

نعم ، أرى "سيمون" كثيراً، ولكن أحسست أنها لا تناسبني برغم طيبة قلبها. تسد عليَّ كل محاولة للاتصال بامرأة أخرى، نعم. أسلم جسدي لسيمون، ولكن روحي وخيالي مع سهام. أدمنت الدمى التي يستخدمها المراهقون والمحرومون من النساء لإطلاق مكبوتاتهم الغرائزية والتحرر من توتراتهم الجنسية، أما روحي فمعها أينما أكون.

عرضت الفكرة على "مستر مارك" بأنني أريد الرحيل عن المنزل، رحَّب بالفكرة وقال: من الأفضل أن تعيش بجوار الجامعة، فهذا توفير للوقت والجهد.

تساءلت: لماذا لم يطلب مني المكوث؟ ولماذا أصر على أن أبحث عن مكان آخر؟ هل يريد فعلاً التخلص مني؟ هل تضايق من وجودي؟ "أدنا" أيضًا رحَّبت برحيلي!!! وهي التي اقترحت أن أترك المنزل بعد شهرين ؛ لأن هناك بعض الضيوف الذين سيحلون على غرفتي. وعرفت أن صديقتها التي هربت معها من الملجأ قديمًا ستجيء لتعيش معها. إذًا العشرة والمحبة صارتا هباءً. لقد حانت الفرصة لمستر مارك أن يُظهِر نواياه، أن أرحل بعيدًا وأترك له المكان. ليعيش في سلام في هذا المنزل الهادئ قبل أن أجيء و لن تهمه فكرة أن يموت و حيدًا كما كان يدعى.

لم أكن أُضايق أحدًا على ما أعتقد، فروتين حياتي لم يتغير منذ أن جئت: أستيقظ في الضحى، ربما في وقت الظهيرة، أعد فطوري أو أضع بعض الملابس في الغسالة، أقرأ في المطبخ أو أترجم بعض القصائد، وأتابع حركة دوران حلة الغسالة، أخرج إلى الحديقة الخلفية أنظر إلى السماء والسحب المتراكمة، وأشاهد الأطفال الصغار الذين تحتفي به م جارتي، ألقي عليها التحية، وأُلملم بعض الغسيل المبتل، ثم أغسل بعض الأطباق، أجفف يدي، ثم أحمل حقيبتي وأرتدي معطفي، أمشي أمتارًا، أمرُّ على مكتب البريد لأرسل خطابات، أركب الأتوبيس الذي يأتي كل خمس عشرة دقيقة، أصعد وأبتسم للسائق، أنظر إلى البيوت وأبوابها الملونة بألوان مختلفة، والأشجار العالية، والخضرة المبهجة، أتذكر "حنان" فجأة، ثم أنزل فأمرُّ بجوار بنك أيرلندا، ثم أعبر الشارع إلى مدخل الجامعة. أقابل "ماريو" فنشكو سوء الطقس، ونحلم

بشمس روما أو الإسكندرية. وأقول له: نحن أقاربكم، كليوباترا وأنطونيو كانا "سوا سوا".

"ماريو" دائمًا مبتسم، ودائمًا يردد تحية "السلام عليكم". عندما أسمعها كانت تزيل ما بي من إحساس الغربة. في هذه الجامعة، الكل مشغول بنفسه وببحثه. لا أحد يكلم أحدًا. الموظفون يفهمون عملهم جيدًا، أما الطلاب فكلٌّ في عالمه، يدرسون طيلة النهار، ثم يذهبون إلى المرقص أو البار الملحق بالجامعة، أو يخلدون للنوم. أسير وحيدًا في الفناء المظلم لحرم الجامعة، أتخيل صدى حوافر خيول أو عربات يمتطيها جنود إنجلترا وأساتذتها وطلبتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قبل استقلال أيرلندا الجنوبية، حتى البوابة الرئيسة ذات الباب الخشبي، عندما أخرج من الفتحة الضيقة أشعر أنني خرجت من قلعة حصينة، وأنني قد انتقلت من عصر إلى عصر تعتلي قمة المبنى ساعة كبيرة تشير دائمًا إلى العاشرة مساءً " وقت خروجي.. أقابل "ماريو" فيقول: سأذهب لأقابل صديقة جديدة، كان يحب النساء، ودائمًا تجده مع حسناوات.

في المساء أعود إلى المنزل، مرهقًا، والبرد يطحن عظامي، والخوف من الأشباح التي ترقد على الأشجار العالية، والوحدة تنمو كأنها جبال يزداد ارتفاعها يومًا بعد يوم، أهرول واضعًا المفتاح بصعوبة في الباب خائفًا من صدى وقع أقدام ورائي، أتنفس الصعداء عندما أغلقه. أخلع معطفي بهدوء حتى لا أزعج أحدًا، أعدُّ عشائي من بعض فُتات الخبز واللبن، أصعد درجات

السلم، ينبح الكلب عندما أدوس غير متعمِّد على ذيله، ويذكرني برائحة العجز والشيخوخة وبوابة القبر.

أدخل حجرتي وأغلقها ورائي. أستلقي على الفراش وأطرافي مجمدة، أدثرها بالأغطية ثم أقرأ في كتاب "فن الهوى" لأوفيد. فأحلم بالحور العين وحبيبتي التي تقبِّل كل مسام جسدي ، وتحوم الحوريات على سقف حجرتي، وأتعجب من أوضاع العشق التي يصفها "أوفيد" في كتابه، وأشعر أن الحياة أصلها علاقة حب وتواصل جسدي حميمي بين رجل وامرأة فأنام مُحضتنًا أوفيد.

* * *

قابلته مصادفة، يقف بجوار كابينة الهاتف، يطلق شعره الغجري بحرية، ملامحه شرقية، قلت: جزائري؟

قال: لا، مغربي، واسمى عدنان، وأنت؟

- مصري.

- ماذا تفعل هنا؟ شرحت له باختصار، ثم أخبرته أنني أبحث عن سكن بالقرب من وسط المدينة، قال: لدي شقة في الحي الشمالي في الدور الأرضي.

الحي الشمالي! لقد حذرتني "سيمون" من هذا الحي، به فقراء ومحرومون كثيرون، ومتسولون، ولصوص. الحي الجنوبي أكثر رقيًّا ورفاهيةً، ولكن لا توجد فرصة للحصول على مسكن هناك. لا أبالي، ماذا سيفعلون بي!

أعطاني رقم هاتف صاحب العقار، ثم رحل محذرًا إياي أن أخبره أنه هو الذي أعطاني الرقم، لم أحاول الاستفسار عن السر في ذلك.

* * *

أرى فى الناحية الأخرى من الشارع "أبو علم" يريد التحدث مع أحد، فلا يستطيع. فهو يتحدث الفرنسية التي تعلمها من خلال تاريخ طويل من القهر والاحتلال. الأيرلنديون يتحدثون بالإنجليزية، ورغم أنهم عانوا مما مر به الجزائريون من قتل للغة ومحاولة طمس التاريخ ،فإنهم يستطيعون التحدث مع كل الملل، فهم لم يخسروا كثيرًا، لقد اكتسبوا لغة العالم. ينظر إلى الحوانيت، إلى البارات، يمر بمتجر التبرعات لمرضى "الشلل الرعاش"، يدخل المتجر، تواجهه البائعة بابتسامة، يت جول بين البضائع من الملابس المستعملة، يعجب بأحد المعاطف، يفتش في جيبه مع أنه يعلم تمامًا ما يحتويه هذا الجيب، فقط عشر ين جنيهًا يقرأ الثمن المكتوب على أحد أكمام المعطف: "ثلاث ين جنيهًا"، هؤلاء المرضى يستحقون الإحسان، لقد فقدوا الإمساك بأي شيء، الجاذبية خانتهم وأعصابهم فقدت القدرة على التحكم، فقدوا الإمساك بالأشياء المادية، فقط الذكريات هي التي يستطيعون الاحتفاظ بها، ولا تسقط من ذاكرتهم تردد أن يساوم البائعة حول ثمن المعطف، ربما ترفض، ربما تتعلل بأنها ليس من سلطاتها أن تخفض الثمن. أعتقد أنها امرأة طيبة، فروح الإحسان تسكنها ، وأدركت بإحساس الأمومة أنه لا يملك غير عشرين جنيهًا.

وكأنها قيَّمت الموقف كله وقرأت تاريخه من عينيه ومن بشرته ونحافة جسده. وافقت، ناولها النقود، وارتدى المعطف فرحًا بثوبه الجديد الذي سيقيه برد الشتاء القارص، ويحفظ آلامه من أن تنسكب على طرقات الشوارع الغريبة المبللة، ربما تُعجب به فتاة فتدعوه ليحتسي معها القهوة في بوليز أو الجينس في Bloody Horse بعد ترميمه.

28

كانت المرآة التي أمام مكتبي تُخيفني، فهي التي تُريني كيف تغيرت منذ أن جئت إلى "دبلن" وكان وجهي ممتلئًا بعض الشيء، وكيف نقص وزني كثيرًا من قلة الطعام، ومن المجهود الذي أبذله كل يوم، ومن التفكير في عائلتي وأحوالهم، ومن التوتر الذي أعيشه كل يوم في الشارع ؛ فقد كنت أذهب إلى الجامعة من الظهيرة حتى المغرب، ثم أبيع الزهور من العشاء حتى ما تبقى من منتصف الليل، وحينما أعود أطهو الطعام الذي عادة يحترق بسبب انشغالي بالقراءة التي كانت تستغرقني حتى الفجر. أتعمد في كثير من الأحيان أن أغطى المرآة في إحدى قطع الملابس أو الشرشف الأبيض، وفي بعض الأوقات أتأمل وجهي في المرآة، ربما أرى نفسي التي فقدتها بسبب هذه الغربة، أريد أن يشاركني أحد هذه الوحدة حتى لو كان ظلي وخيالي في المرآة التي أصبحت تبتلع ملامحي كل يوم، وتغرق فيها تفاصيل وجهي وجسدي وكأنها بحر عميق، وبرغم صدق ما تعكسه المرآة، كنت لا أصدقها وأتهمها بالكذب والرياء، وأخرج لها لساني استهزاءً، وربما جنونًا.

ازداد شعري طولاً، وعندما كنت أمر بصالون الحلاقة في شارع "نيلسون" أود لو أقص شعري، وأخف وزن رأسي قليلاً،

ولكنني كنت دائمًا أرجئ الفكرة؛ خوفًا من أن يذبحني الحلاق بموسه، أو يقطع رقبتي بنصله أثناء تهذيبه لشعري، وكنت لا أتحمَّل اقتراب آلة حادة من جلدي أو من فروة رأسي، لماذا لا أطلق شعري؟ ربما يعطيني القوة مثل "شمشون"! لقد أصبح فعل الإرادة ضعيفًا، وجسدي ثقيلاً من كثرة ما تراكم وسرى فيه من أفكار وأوهام ومخاوف.

في ليلة من الليالي خفت أن أنسى وجهي وجسدي اللذين جئت بهما إلى هنا، فأخذت كاميرا "أدنا"، واشتريت فيلم "كوداك"، ثم دخلت حجرتي، وتجردت من ملابسي كلها، وأخذت صورًا عديدة لمناطق كثيرة في جسدي، ثم وقفت أمام المرآة، وصورت انعكاس صورتي في المرآة وأنا عارٍ تمامًا.

كان جسدي نحيفًا، وتعجبت من الشعر الكثيف الذي يحيط بعورتي، قلت: هذا مخالف للشرع، فمنذ ثلاثة أشهر لم تقترب حافة موسى من هذا المكان، وكأنني قد نسيت رجولتي وأوامر سنة "سيدنا محمد" تمامًا.

عندما طبعت الصورة كانت قاتمة ولا تظهر فيها ملامحي الحقيقية، ولكنني قررت الاحتفاظ بها. ربما أفقد نفسي تمامًا فتعرِّفني هذه الصورة على نفسي فيما بعد، وكأنني مصري قديم حنَّط جسده حتى تعود إليه الروح يومًا ما ولا تخطئه.

* * *

لغز

متمرد، شيطاني النزعة، زير نساء، دون نجس، طاهر السريرة، وحصورا كأنك جنين لم يولد بعد، ملائكي بأجنحة، مارد مشقوق القدمين، ناعم كجلد النساء، ومشعر كقرد، نار كالجحيم، وبارد كالثلج، تقي كنبيٍّ، وزنديق كداعر وملحد، مراوغ كثعلب، منقض كأسد، ساكن كسلحفاة، متبلد كسمكة، حيوان ناطق. مهرِّج في سيرك. مَن أكون؟

* * *

وأنا أنزل الدرج أحمل حقيبتي واجهتني "أدنا" كانت تبدو مرهقة أو مريضة، ودخلت حجرة المعيشة، واستلقت على الكنبة وبدت عجوزة، وكانت تغمض عيونها ، وتضع يدها على بطنها ، وكأنها تتألم. كان شعرها المصبوغ مبلولاً ويلتصق بجبهتها. وكانت تتجنب النظر تجاهى. وكأن هذه الحياة التي بيننا لم تكن. فقلت : السلام عليكم... وداعاً. لم ترد. فخرجت يائسًا من الحجرة.

عندما لمحتني "برتنى" وأنا أغادر المنزل وأحزم حقائبي لأنتقل للسكن الجديد في الحي الشمالي وهو قريب أيضًا من الجامعة ابتسمت، ثم تقدمت نحوي وقالت: أعتذر إن كنت قد سبَّبت لك إحراجًا مع أمي، وذكرتني بحادثة الأرز، ثم قالت: لا أريدك أن تغادر، فقد خلقت حياة رائعة في هذ ا المنزل الهادئ. على فكرة، والدتي ليست سعيدة برحيلك ؛ هي مكتئبة ومزاجها س ييء ثم قالت: علمت من ماستر مارك أنك تحب تماثيلي. كنت أريد أن أسألك: هل هي جميلة حقًّا ؟ كنت أشك كثيرًا في ما أفعله، حتى علمت أنها تعجبك. ثم قالت: لقد تأثرت بوجودك معنا، وصنعت لك

تمثالاً، أنا آسفة أنني لم أستأذنك، على العموم هو تمثال لرأسك فقط. هل تعلم أنك تشبه الفراعنة ، وخصوصًا وجهك وعينيك وذقنك؟ ثم قالت: سأصعد لأحضره وأريك إياه.

تمثال لي؟ سألت نفسي: لماذا؟ جاءت فَرِحةً، مدت يدها لي برأس التمثال، كان يشبهني تمامًا. كان مثل رأس نابليون بونابرت، أو رأس أحد المحاربين الرومانيين. قالت: أتسمح لي أن أحتفظ به لأتذكرك دائمًا؟ فقلت لها: بكل سرور. ثم على استحياء قالت: أتسمح لي بصورة معك؟ فرحَّبت، شعرت أنها وحيدة, ومهملة، ويتيمة رغم وجود أبيها في الحياة، ورغم اهتمام والدتها بها. ولكن ما شعورها ووالدتها المُسِنَّة تضاجع رجلاً آخر ريفيًّا بجوار حجرتها، وتخرج مخمورة وعارية إلي الردهة في الليالي الممطرة؟ وبالتأكيد ستهجر برتنى هذا المنزل، وستترك "دبلن" إلى بلدة أخرى في أوربا، إلى ألمانيا حلمها الدائم.

29

في طريقي إلى الجامعة أراه. هرقل في ضخامته وقوته. ذهبي البشرة والشعر، يفتح أزرار قميصه فيكشف عن عضلات صدره البارزة، وشعيرات صدره الجافة. يتحرك بثقة وكأنه عمدة "دبلن". يفتش حواريها ويسأل عن أهلها. رهبته في أول الأمر، وزادت الرهبة حين راودتني الرغبة في معرفة من هو.فقد اشترى مني زهرة ذات مرة وأعطاها لفتاة أيرلندية، لم يقبِّلها في التو، وهذا ما استغربت له.

أصبحت مصادفة متكررة أن أجده في شارع أوكونل، أو بجوار مقهى بوليز. يرتدي البنطال الجينز الذي يحدد بروز عضلات ساقيه القويتين، لم يكن يبتسم، ولكنه ينظر إليَّ فلا أُعيره اهتمامًا.

ذات مرة قابلته في ميدان "برنل" في نهاية شارع أوكونل. كان يعبر الطريق، كادت تصدمه سيارة مسرعة.

قال: Fucking Irish.

إذًا هو ليس أيرلنديًّا. قلت: ربما يكون مخمورًا. أيرلندا لا يوجد بها شيء غير الخمر.

اقتربت منه وسألته مستفسرًا:

– ومن أين أنت؟

– أنا من رومانيا.

إذًا لاجئ آخر.

– اعتقدت أنك ألباني.

أخذ يداعب شعرات صدره بأصابعه.

سألته: ماذا تعمل فى أيرلندا؟

- في كل شيء.

وثار فضولي: كل شيء، كيف؟

دارت في رأسي أفكار كثيرة، موديل للمجلات الداعرة مثلاً، لص، بائع مخدرات.

ثم ضحك وقال: لا يوجد عمل لي هنا. في "بوخارست" كان كل شيء على ما يرام قبل الثورة الرومانية التى أطاحت بالدكتاتور تشيسسكو Nicolae Ceaușescu . كنت أعمل قوَّادًا. لم أظهر أيَّ دهشة على وجهي، أعتقد أنني أصبحت متبلد المشاعر، ولكن في اللحظة نفسها احترمت صراحته، وثقته في نفسه، أنا نفسى لا أستطيع أن أصرح بأشياء كثيرة، وبخاصة للغرباء.

قال وهو يبتسم: سألتني أسئلة كثيرة، وأنا لا أعرفك.

ثم قال: ليس مهمًّا، سنتعارف، ثم قال: أراك كثيرًا في "تمبل بار" تبيع الزهور.

تعجبني طريقتك في البيع والحديث.أرى أنك تكسب كثيرًا، تعرف؟ ليتنى أفعل مثلك، ولكن أمثالي لا يعطف عليهم أحد، فشكلي يثير المشكلات.

ثم قال فجأة: ماذا تريد مني؟ هل أعجبك؟ لا تخف أنا متحرر ومستعد لكل شيء.

بُهِتُّ. ماذا أقول له؟

أردت أن أهرب وأبتعد عن المكان كما كنت أفعل دائمًا مع أمثاله من الرجال، ولكني وجدت نفسي مسمرًا، قلت لنفسي: أهو بهذا الفُجر والوقاحة؟ وخفت من جرأته، ولكنني وجدتني أعترف له بنبرة طفل صغير ضل طريقه أو خانته الكلمات.

قلت: إنني أبحث عن شريك لي في السكن الجديد، حيث إنني استأجرت شقة ولكن إيجارها باهظ، وأريده أن يقاسمني الإيجار، فوجدت في الجامعة إعلانًا من شخص يريد أن يشاركني، فجئت لأتحدث معه، وهو يسكن بالقرب من هنا، ولكن لا أستطيع أن أصل إلى عنوانه.

قال: أين تسكن؟ قلت: في الحي الشمالي بشارع نيلسون، فقال: إذاً نحن جيران. ثم بدأ يصف لي الطريق إلى منزله. ثم قال: انس هذا الشخص وهذا العنوان، تعال معي، سأريك من سيشاركك.

– هل تضمنه؟

–نعم، على مسئوليتي، هو من مدينتى، وملتزم.

كنت مترددًا، ولكني وافقت؛ لأنه يجب أن أوفر بعض النقود، فأجرة المسكن غالية، ولا مانع من مشاركة أحد في المكان، ولكن لا يوجد غير سرير واحد يصلح للاثنين، ولكن ربما لاثنين متزوجين، ولكن أأنام بجوار رجل آخر غريب غير أخي أو أحد أقاربي؟ هذا صعب.

"سيمون" عرضت أن تشاركني المسكن ولكنني رفضت، لا أريد أحدًا يشاركني حرية جسدي ووحدتي.

-ثم ربت على كتفي، وقال : لماذا تفكر؟ ولَمِ التردد؟

ذهبنا إلى نهاية شارع "مور" حيث كان يتجمع بعض الرومانيين، ويتحدثون بلغتهم التي لا أفهمها، ثم ضحكوا جميعًا عندما نظروا إليَّ، وأشار إلى واحد منهم وأعلن بفخر:

- هذا هو زميلك الجديد في السكن.

شاب بلغ الثلاثين من عمره، ممتلئ الجسد قليلاً، عيناه بهما حَوَل واصفرار بسيط، ثم قال: ما رأيك؟

شعرت بالخجل، وترددت في الإجابة.

قلت: أعطني عنوانك سأمر عليك غدًا لأخبرك بقراري.

كنت أعلم أنني أكذب، ولكنها كانت محاولة للهروب لا أكثر.

بعد أن تركنا أصدقاؤه بقيت مع هرقل الذي شعرت أنه لا يريد أن يرحل بعيدًا عني، وكأن الفراغ عدوه، فأراد أن ينتصر عليه بصحبتي له، فدعاني لشرب القهوة حيث كان الجو باردًا وممطرًا ، وذهبنا معًا إلى شقته.

ساورني الخوف. يعمل في كل شيء، ربما يكون لصًّا، أو قاتلاً، ربما يقتلني، ربما يحاول الاعتداء عليَّ، قلت: لا تخف، ماذا سيفعل بك؟ أنت رجل مثله، وهو قوَّاد .. إذًا لن يفعل بك سوءًا.

عندما دخلنا مسكنه خلع قميصه، وبدت عضلات صدره وظهره وكتفيه واضحة.

قلت: شقتك لا بأس بها.

قال: غالية، يعيش معي ثلاثة من قريتي التي جئت منها، أبحث لهم عن مساكن خاصة. الحكومة الأيرلندية ستدفع لهم ثمن الإقامة وتكاليفها، فقط عندما يجدون مكانًا وعنوانًا.

قلت ضاحكًا: وكأنك تعمل عمدة لكل الرومانيين هنا.

قال: الحياة في رومانيا صعبة جدًّا الآن؛ سقوط الشيوعية خرب بيوتنا منذ أُعدم "تشاوشيسكو" ، وبوخارست أصبحت خاوية و يملؤها الفساد فتركتها ، وأيضا لا أستطيع أن أعمل في أيرلندا، الجردا الأيرلندي يقظ.

صنع لي قهوة.

قال وهو يقدمها: أنام على هذه الأريكة ، أما الآخرون فواحد منهم ينام على هذه الكنبة، وآخر ينام على الأرض، والثالث في المطبخ.

أصوات عربات تمر بجانب المنزل، فتهزه. كانت الشمس قد غربت، وأظلمت الدنيا، وتناثرت بعض قطرات الماء على الزجاج، تنبئ بسقوط بعض الأمطار. قمت واقفًا، كان هو الآخر يواجهني، واجهنا بعضنا البعض، كان يزيد عني طولاً، اختفي جسدي أمام جسده العريض فلم أعد أرى شيئًا. طلبت الانصراف. تقدمني بخطوات بطيئة، وقال: سأنتظرك.

* * *

عندما أقول لفريدا: لا تُلقِي بسيقان الورد في النهر حتى لا تلوثيه، فتقول: مَن مِنَّا ليس ملوثًا.

"فريدا" لا تعجبها رائحة نهر الليفي، وتقول إن رائحته "نتنة". ثم تلتفت لى "ربيكا" وتقول: معتز، أريدك أن تكتب خطابًا إلى بلدية "دبلن". أريدهم أن يتركوني في حالي، كل يوم يقبضون عليَّ، وهؤلاء العسكر من الرجال والنساء الجبناء، يرغمونني على دفع غرامة حتى يطلقوا سراحي، تبصق ثم يأتي رجل البوليس فتتوقف عن الكلام. يتحدث إلى "ربيكا" بطريقة فيها دماثة ويأمرها هي وفريدا بابتسامة أن تغادرا المكان. فأقول لها:

- معجب.

- جميل. أليس كذلك؟ تضحك بخبث .

- أتريدين الخروج معه؟

- لا، إنني أحب زوجي، لدي خمسة أطفال منه، ولكني لا أستطيع أن أصادر نظرة الإعجاب والاحترام من الرجال المهذبين، فهم لا يعاملونني مثل العاهرات من زميلاته في البوليس. إنني أحتقرهن جميعًا، فمعظمهن أتين من وراء البوج (الجاموسة) ثم تعتدل وهي تُمليني الخطاب.

سيدي المسئول:

لقد نشأت على أرض مدينة "دبلن"، هنا بجوار نهر الليفي، وفي شوارعها، صاحت والدتي التي كانت تبيع الزهور، والتي لم تعلمني حرفة غيرها، وقضيت سنوات قليلة في مدارسها لم أتعلم شيئًا، ولكن، تعلمت في شوارعها الكثير. نحن لسنا عارًا على الدولة يا سيدي، نحن الطبقة الفقيرة الكادحة، نصنع الكثير لهذا

البلد، نبيع أجمل ما تخرجه الأرض، أروع سيمفونية ألوان من الزهور التي خلقها الله، أتوسل إليك. أريد أن أعيش في أمان مع أولادي وزوجي ونكسب قوتنا بشرف. جميع الجنسيات التي تدفقت علينا حديثًا بعد عزلتنا، تأتي إلينا لتلتقط لنا صورًا، نحن الفقراء، باعة الزهور، الوجه المشرف لأيرلندا الممطرة.. خمسة من الأطفال أتولى مسئوليتهم، ولا معين غير هذه العربة المملوءة بالأنفس الرقيقة. المخدرات وليست الزهور هي التي يجب أن تُصادَر وأن تُمنَع. لماذا يطاردنا البوليس؟ ولماذا لا يعطوننا رخصة دائمة للبيع حتى نتجنب مثل هذه الإهانات منهم؟ أستحلفك بالله وبالعذراء مريم أن تنظر إلينا وأن تتركنا نبيع الزهور في الشارع.

إمضاء: "ربيكا"

أملتني الخطاب، ولكنني قررت الاحتفاظ به، ووعدتها أنني سأكتبه لها على جهاز الكمبيوتر وأطبعه على ورقة وأضعه في مظروف أنيق. قرأته لها مرات ومرات، وكانت فِرحةً بخطابها وتأثيره فيَّ، وخاصة عندما قلت لها إن لديها أسلوبًا أدبيًّا جميلاً.

أخذت منها الخطاب، واحتفظت به، ولم أطبعه ؛ ربما نسيته ؛ وربما شعرت أنه لا جدوى من إرساله، وهي الأخرى لم تسأل عنه غير مرة واحدة.

ثم جاء الخريف منذرًا بشتاء صرصر عاتٍ. الرياح باردة وقوية، تهز الزهور بقوة، فتقع صرعى على قبورها من الحشائش.

ارتديت كل ما لدي من ثياب، واشتريت معطفًا للمطر، وحذاءً جديدًا ماركة "كلاركس". قصَّرت شعري بعد شرائي لمقص جديد، وابتعت قبعة من الصوف، وعثرت صدفة بجوار أحد المنازل على كوفية صفراء من ماركة "بنتون"، وتأهبت لهذا القادم العنيف.

* * *

"سيمون" فرضت ذاتها بكل قوة، واستسلمتُ لها، وأعترف بجهد إيماني أنني لا أحبها، فقط رغبة المحتاج للاكتمال، لرجل عرف امرأة تريد أن تعوضه نقص الحرمان والغربة، وربما المزيد من اكتشاف هذا الغريب. هي قالت لي وهي مخمورة بأنني لست أول رجل في حياتها من جنس العرب، بل إنها عشقت هذا المغربي الذي يعمل في "دون ليري" على البحر في متجر للسمك والبطاطس. وأعتقد أنني لو تركتها فلن تخسر كثيرًا، هي تعترف أن صديقها "برندن" ناشط سياسي يرى أن الثورة هي الحل، وربما سيورطها في أعمال عنف، وهي ترى أن الغناء الكوكبي سيحل مشكلة العنصرية والاحتلال والجور في هذا العالم. دائمًا تشتكي من زميلتها الإنجليزية التي تتهكم دائمًا عليها، وترفض سيطرتها وقيادتها لأمور الفرقة الغنائية، ودائمًا أبرر هذا العنف بينهما سياسيًّا ، فإنجلترا و الصراع العرقي والطائفي في الشمال المحتل، تاريخ من عُقَد الغرور ومن عُقَد النقص. كنت أشعر أن "سيمون" (غلبانة) كما يحلو أن نقول في مصر، وأنها تجاهد من أجل أن تسير الأمور، وألاَّ تناقض نفسها باعتناقها فكرة الغناء الكوكبي والسلام وفكرة أن لديها حقدًا وغيرة من صديقتها

الإنجليزية، ولكن ماذا لو كانت هذه الإنجليزية هكذا، وتنظر بازدراء ودونية إلى كل ما هو أيرلندي وبالذات "سيمون"!

* * *

ممكن وجبة "فراخ كومبو" لو سمحتِ؟

ناولت البائعة الورقة من فئة العشرين جنيهًا. نظرت إليها بدقة، ثم علمتها بقلم ذي لون أحمر، فصنع علامة باهتة. نظرت إليَّ بريبة، ثم قالت: آسفة يا سيدي لا أستطيع أن أقبل هذه النقود.

وبسذاجة سألتها: لماذا؟

قالت: لأنها مزورة!

ليلة أمس كنت أدرك أنها مزورة، من ملمسها، من رداءة صناعتها، وتفاهة ورقها، وذلك بعد سقوط المطر عليها وابتلالها. كانت معي ثلاث عملات ورقية، أعطاني إياها الشاب الذي اشترى مني ثلاث زهرات أو ربما أخذتها من هرقل الروماني لا أعرف ؛ لأنه أيضًا اشترى مني وردًا أيضًا. كان الشارع مظلمًا، وفرحت بما دفعه من نقود أكثر من الثمن المعتاد للزهرة، كنت أشك أنها مزورة إلا أنني قدمتها للبائعة. لقد خدعني؛ لذلك يجب أن أخدعهم. مبدأ لم أستخدمه كثيرًا في حياتي، ولكن الوحدة والقسوة علَّماني كثيرًا.

وضعني رجال البوليس الثلاثة في سيارة الشرطة، ولأول مرة أرى قسوة البوليس الحقيقية. حاولت أن أشرح من أنا، وماذا أفعل هنا، أخرجت أوراقي. لم يهتموا. أخفيت تحقيق الشخصية الخاص بجامعة ترينتي.

في المخفر وضعوني في حجرة بمفردي، أخذوا مني كل نقودي.

قررت أن أشرح لهم موقفي بصراحة، ملأني الخوف. غدًا سيتصلون برئيسة القسم في الجامعة.

متسول، بائع زهور بدرجة دكتوراه. لن يقدروا أنني أحتاج إلى النقود. سيقولون: لماذا لم تعد إلى وطنك إن لم يكن لديك ما يكفي لتعيش بيننا؟ لن يحترموني إن قلت لهم إنني رفضت أن أطلب معاونة من الحكومة الأيرلندية كما يفعل كثيرون غيري من الأجانب. رفضت أن أقدم نفسي لهم على أنني لاجئ سياسي أو مضطهد دينيًّا، وكنت ممتلئًا فخرًا بنفسي وبجذوري.

في الحجرة المضاءة بمصابيح الفلوريسنت قرأت سورة يس وسورة يوسف، وتذكرت كيف قضى يوسف في السجن بضع سنين، لا يدري به أحد غير صاحبيه اللذين تنبأ لهما بمستقبلهما. ربما سيكون مستقبلي الصَّلب، وتأكل الطير من رأسي، وتشهد على موتي جماعة من البشر والغربان، ربما تفرح، وربما تتحسَّر لما آل إليه مصيري. صعب ومؤرق أن يعرف الإنسان مصيره، وخاصة إذا كان هو الموت والفناء. كيف قضى صاحب يوسف ليلته بعدما فسَّر له يوسف هذا الحلم؟ ربما لم يصدق، وربما قال: أضغاث أحلام، أو ربما لم ينتبه إلى هذا التأويل مطلقًا، وغلبه النعاس من الإرهاق والتعب، ولكن كيف سأنام؟ ربما سأسجن هنا إلى الأبد. لن يعرف أحد عني شيئًا، لن أرى أمي بعد الآن، ولا أخواتى، ولا حبيبتى .

بعض النقود التي ادخرتها ووضعتها فوق الدولاب الخشبي في حجرتي خشية السرقة لن يراها أحد، ولن يستمتع بها أحد، لا أنا ولا أقاربي، سأموت في السجن، ولن يعرفوا من أنا، وستضيع النقود أو يأخذ ساكن غيري غرفتي، بما بها من كتب ونقود.

من سيحررني من هذا السجن غير ربي!

يا رب حررني. ودعوت كما كان يعلمنى أبي عندما أكون في ضيق: سجنتني فحلني من كل ضيق وكرب أَلَمَّ بي.

أخذت أطرق باب الزنزانة بكل قوتي. كان بابًا حديديًّا. لم يرد عليَّ أحد.

منذ لحظات كنت حرًّا طليقًا، الآن أنا مقيد. تذكرت قول أحد الفلاسفة "كم أنتِ غالية أيتها الحرية".

كانت هناك رائحة كريهة تزكم أنفي، صادرة من ك ابنيه ، وعلى الجانب يوجد سرير صغير عليه مرتبة متسخة. حاولت أن أجلس، ولكني خفت ورهبت منها. أخذت أطرق الباب بكل قوتي، وأتوسل إليهم أن يطلقوا سراحي، فأنا ضحية الخداع، وإن كان لابد أن يُسجَن أحد فهم الأيرلنديون المجرمون الذين زيفوا هذه الأوراق.

وتراءت أمامي حياتي منذ الطفولة حتى جئت إلى هنا، تراءى أمامي الطلبة الذين كنت أدرِّس لهم، وأساتذتي الذين علموني في القاهرة، وأهلي وأصدقائي، وكيف انته ت بي الحال إلى بائع متجول في الشوارع والحارات، ويحمل الزهور بين أحضانه يبيعها للمارة ومرتادي الحانات والخمَّارات.

أُرهِقت من الطَّرق والمناداة على البوليس، ففتحوا وقالوا: يمكنك إجراء مكالمة هاتفية. لم يكن لي أحد أتصل به. "سيمون" لا يمكنها أن تأتي وتأخذني بهذا الوضع. فريدا وربيكا ليس لديهن هواتف ولا أعرف عناوين منازلهن. أحسست أنني وحيد ومسجون داخل القسم، وأوهامي. وفجأة ظهر شاب قدَّمه لي الضابط على أنه مُحام، ثم قال الضابط: تحدث معه، فسيفيدك.

حكيت له حكايتي، فضحك وقال: هوِّن عليك. ثم انصرف.

أطلقوا سراحي بعد أربع ساعات، وأعطوني إيصالاً لكي أحضر إلى المحكمة يوم الأربعاء الخامس من أغسطس لأقابل القاضي ليسمع أقوالي في التُّهمة المُوجَّهة إليَّ، تهمة التزوير.

* * *

خرجتُ من الحجز الانفرادي، أشعر بقيمة الحرية وثروة الانطلاق. كنتَ خائفًا ومتوترًا ووحيدًا. أخاف أن يقبض علي البوليس بتهمة التزوير ثانية في أي لحظة. ماذا سيحدث لى؟ هل سيدينونني، هل يحكمون عليَّ؟ هل يرحلوني إلى القاهرة بتهمة التزوير والتسول؟ أصبحت أمشى في شوارع دبلن مضطربً ا أريد أن أوقف البشر في شارع أكونل وفي شارع مور وأحكي لهم قصتي.. كنت أريد أن أقول لهم : تعالوا معي لتشاهدوا أنني برئ وطيب ولا أستطيع أن أزور هذه النقود. سأقول لهم إني لا أحب النقود أصلاً، وإن هدفي المعرفة وليست المادة. باقٍ أسبوع على الذهاب إلى المحكمة، لماذا لا أسافر؟ لماذا لا أعود إلى القاهرة؟ ولماذا أبقى هنا؟ ولكنني لم أنتهِ من دراستي؟ وأيضاً أريد أن أبرئ

نفسي من هذه التهمة الباطلة. لن أعود إلى القاهرة، قبل إنجاز رسالتى وجمع النقود اللازمة لشراء تذكرة العودة للقاهرة .عندما حكيت لماريو، قال لي : يمكنك أن تهرب إلى شمال أيرلندا فهى دولة أخرى قلت سأسافر إلى بلفاست ولكني سأعود حتماً لدبلن ؛ فأنا لست جباناً.

"أسرعت بالصعود إلى قمة الدولاب لتلتقط النقود المُخبَّأة هناك. تحتفظ بها في مكان آمن، وتقرر أن تضعها في حساب بنكي لحين اكتمال ثمن تذكرة العودة، و تعطى رقم حسابه لأخيك فى القاهرة فى حالة سجنك أو موتك ."

* * *

قالت لي "فريدا" قبل السفر إلى بلفاست: يجب أن تذهب إلى مبنى المحاكم الأربعة في الميعاد المحدد، وإلا سيضطر البوليس إلى القبض عليك، و يضعك في السجن المختلط ، وما أدراك ما السجن المختلط! هناك مدخنو المخدرات، واللصوص المدمنون، ربما يجبرونك على الإدمان إن كنت محظوظاً، أو يغتصبونك وأنت جميل و مثير، أو يقتلونك في أسوأ الأحوال.

تخيلت نفسي في حجرة مغلقة، يحيط بي الرجال في كل مكان ، ولا أستطيع الدفاع عن نفسي. ستكون هي النهاية، ولن أعيش بعدها يوماً واحداً؛ يوم أن أفقد ذكورتي .

* * *

30

بلفاست غارقة في أمطارها. شوارع وحيدة، ومظلمة، وخالية من حركة البشر وحيويتهم. ترقد صامتة تحت مظلة الإمبراطورية الإنجليزية العظمى. تخيلتها مدينة مختلفة ممتلئة بالنشاط والثورة.

وصلت في ساعة متأخرة، كانت تمطر كالعادة. وقفت في شارع" ألستر Ulster " أحاول أن أجد مبرراً لتركي "دبلن" ومجيئي إلى بلفاست. كانت هناك رغبة مُلِحَّةٌ شديدة لرؤية مدينة مختلفة. السياسة هنا والصراع وليس في "دبلن". تذكرت تحذيرات أصدقائي بألا أذهب إلى مركز العنف، وأن أتجنبه، ولكن يفوز باللذات كل مغامر. كانت المدينة لا تختلف كثيراً عن "دبلن"، السماء تنزف دائماً، أمطاراً، تخلق حياة وتجعل الأرض تهتز وتنمو، ولكن لا أرى غير حشائش قاتمة الخضرة وكأنها حزينة. وجوه خالية من التعبير إلا من ملامح الاضطراب ومحاولة قراءة جنسيتي دون سؤال عن لون جواز المرور، أو ربما يستفزونني. جاء ليأخذ أموالنا، ويستبيح أعراضنا، وأنا بعيد كل البعد عن هذه الأفعال؛ فأنا ملبوس بأشياء أخرى.

ربما توجد على الأرض ، وربما بعيدة في السماء، ربما في عالم المُثل لأفلاطون. ها أنا أمشي في أسواق المدينة أشاهد حوانيتها، الملابس الغالية والرخيصة منها، أتناول فطوري في أحد مطاعم الوجبات السريعة، أمرُّ على مبنى البرلمان. تواجهني مجموعة من الشباب، أتجنب النظر إليهم، ومع ذلك يتفوهون بعبارات استهزائية عن كوني أجنبيًّا وعربيًّا، أرد عليهم في صمت. أنتم أيها الجاحدون تعتقدون أن العالم كله مثلكم، تنظرون إلى الو ان البشر و اجسادهم بشهوانية، و أحياناً باحتقار، تهتمون بالظاهر وتهملون الباطن، تعجبكم الحياة الرجعية الجامدة ، وتكرهون كل ما هو جديد، تنامون ك خراف في أحضان نسائكم الجوعى للحب والخبز، وتهملون النظر إلى السماء و تهذيب الروح . ربما أنتم الذين شاركتم في المحاكمة الجماعية لكل نبلائكم وأدبائكم، كل من يختلف عنكم ترجمونه،فهناك بتريك كفناه،Kavanagh الذى أهملتم شعره فمات مكتئبًا ومدمنًا للخمر بعدما كتب قصيدته الشهيرة "الجوع الشديد The Great Hunger "و التى تعبر عن الحرمان النفسى و الجسدى للبطل و خوفه من امه لدرجة انه كان يستمنى فى الحقل اثناء العمل خوفًا أن تراه فى المنزل.

وربما لم تطلبوا من "جويس" أن يبقى ولا يتشرد في زيورخ وباريس، وأجبرتموه على الرحيل بإهمالكم، فكتب تاريخ "دبلن" مدينتكم، وكأنه هيرودت، وصنع لكم ملحمة حديثة عن إحباطاتكم، وإخفاقاتكم، وخياناتكم، وأفراحكم، وبؤسكم، وعن طعامكم،

وشرابكم، ومواثيقكم، ورقصاتكم، وخيباتكم، وأفراح نسائكم، وأنواع سراويلكم، وتوتراتكم، ونبضات شهواتكم، ومزاج نسائكم وخبراتهن الجسدية، وأسماء شوارعكم، وأنواع ساعاتكم، وطراز معماركم، وأثاثاتكم. "عوليس" روايتكم الكبرى، وملحمتكم الخالدة لم تكتب بينكم، ولكن بعيداً ، في زيورخ، في منطقة أكثر دفئاً من "دبلن" . لم يهمكم إن كان يعيش بينكم أم لا! هل كنتم مشغولين بالقضايا الكبرى والتحولات العظمى في التاريخ فأهملتم أدباءكم، وتركتموهم للوحدة والوهم، لم تسألوا: أين هو ، ولا كيف يعيش، وهل يبدع أم لا. لم تكترثوا به كإنسان ولم تعيروا إبداعه اهتماماً، ولم تواسوه عندما كان. "جويس" يصارع جنون ابنته والعمى و مع ذلك كتب روايته الثالثة "فنيجنز ويك" أو جنازة فنجين و كأنه يريد أن يرثى حال أيرالندا.

أفقت على صوت المطر يهطل على وجهي. وغمرتني كالأنهار الفياضه.. وتخيلتها ستبتلعني، وتخيلتها ستكتم أنفاسي، وسأموت غريقاً في أرض المطر. وتساءلت: أين اللذة في المجيء لهذه البلدة؟ شارع طويلاً لا نهائي، لا يوجد به غير ثلاثة أو أربعة من الرجال. لمحت سيارة تركن جانب المحطة، تجلس بها سيدة، ما إن نظرتْ إليَّ حتى ملأها الرعب، لم تفتح زجاج نافذتها، واكتفت بإشارة بيدها، ففهمتُ أنها لا تعرف المكان الذي سألتها عنه، ملأني الإحباط، وسألت نفسي السؤال الأزلي: ما الذي أتي بي إلى هنا؟

بحثت عن مطعم أتناول فيه عشائي الذي هو غدائي في الوقت نفسه، سرت مسافة لا بأس بها، سألت عن المطعم، وعلمت أن هناك مطعم كنتاكي على مسافة غير بعيدة.

-وجبة دجاج لو سمحتِ.

-صلصة، أرز،بيبسى؟

-لا.

-أي شيء آخر؟

-لا، شكراً لك.

-سبعة جنيهات.

ناولتها النقود.

نظرت إليَّ باستياء، وقالت: لا نقبل نقوداً أيرلندية، نتعامل فقط بالإسترليني.

تساءلت: لماذا؟

ردت قائلة: هذه أيرلندا الشمالية، نحن نتبع المملكة.

-ولكن لا تزال أيرلندا ،أليس كذلك، وأنتِ أيرلندية؟

قالت :أنا "إنجليزية".

وأرسلتْ صديقتها لتتفاهم معي.

باءت محاولتي بالفشل لإقناعهم بقبول النقود الأيرلندية.

اضطررت إلى الذهاب لتغيير العملة، فتجولت في شوارعها باحثاً عن شركة "صرافة" أو بنك يعمل ليلاً.

كانت مدينة مخيفة، تنام مبكراً، كلاسيكية في مبانيها. هذا هو البرلمان الإنجليزي بعراقته وصلابة شوكته، ونفوذه في أيرلندا

الشمالية، وهذه هي القصور التي بناها الأرستقراطيون الإنجليز في القرنين الثامن والتاسع عشر والتي تشهد بفخامة الإمبراطورية وقوتها. تذكرت "إدوارد سعيد" وكتابه عن الثقافة والاستعمار، وتخيلت الخديوي "إسماعيل" يأمر المهندسين الأجانب بإنشاء وسط المدينة على الطراز الفرنسي والإنجليزي على السواء، كدت أسقط وأنا أتأمل المباني و تنزلق قدماي بسبب المطر، وكأن الأمطار تعاندني، وتفسد عليَّ رحلتي بتعمُّد، فانهمرت بغزارة، وحاولت أن أختبئ منها في إحدى كبائن الهاتف، وتراءى لي احتضان المطر للطريق بقسوة وعنف. وبدأ ارتطام الماء بالإسفلت كأقدام فرقة رقص حديث على خشبة مسرح كبيرة وغير جميلة، حيث التشنج والتوتر هما الإيقاع الذي يحكم هذه الرقصة.

دخلت حانة كان بها عدد قليل من الحاضرين من النسوة والرجال، واحد منهم انتبه عند دخولي، ولم يتركني إلا وأنا ضيفه في منزل مسحور في زقاق مظلم. هو الوحيد الذي طلب أن يستضيفني بعد أن فشلت في الحصول على أوتيل متواضع لأحتمي فيه من هذه البرودة والأمطار الغزيرة. ومن الغريب أنني لم أعلم لماذا دعاني إلى منزله، ولماذا وافقت على ذلك، ولماذا أترك نفسي للغرباء؟ ولماذا تهون عليَّ نفسي للحصول على التجربة؟ ربما يكون مجرماً يريد أن يسرقني أو يقتلني بعدما يفشل في إذلالي. أتساءل: هل هناك دوافع أخرى خفية بداخلي لهذا التساهل تجاه أشخاص لا أعرف هُويَّاتهم؟ أدرك تماماً أنني أرفض أي تورط في

علاقة لست راضياً عنها تماماً، ولكن الآخرين لا يفهمون ذلك، وبخاصة الأجانب؛ فالذهاب إلى منزل أحدهم يعني أن هناك اتفاقاً ضمنياً على ما سيحدث مهما كانت طبيعته، ولن تجدي في بعض الأوقات فكرة التواصل الإنساني، ومشاركة الآخرين لحظة خاصة من الوحدة الوجودية.

صعد صاحب المنزل لينام حيث أتعبته الخمر والحزن، وبقيت وحيداً إلا من قطة غريبة الأطوار أخذت تتمسح في، وتطلب الحماية، وعندما أرهبتني عيناها انزعجت، وفتحت الباب، وانطلقت مسرعاً نحو المجهول ؛ خائفاً من نفسي ومن القطة. بحثت عن تاكسي ينقلني لأقرب نزل.

وصلت إلى بيت شباب ومكثت في حجرة لم أستطع أن أتبين من ينام فيها بسبب ضعف الإضاءة. كانت هناك أسرَّة كثيرة مكونة من أدوار، لم أستطع أن أنام حتى بزغ ضوء النهار. فتاة ألقت بلباسها الداخلي على وجهي دون أن تقصد، ورأيت ما لم تره عيني ولا خطر على قلبي. وسمعت صوت ارتطام المياه على مسام جسدها وهي تستحم، وبعد ما خرجت دخلت في قُبلة عميقة من صديقها الذي يفوقني في الطول مرتين.

في النهار كانت المدينة مختلفة تماماً، وكأنها بُعثت من جديد: أبواق السيارات، أصوات المارة، ضحكات الأطفال، ألوان الملابس، وامتزاجها مع أجساد البشر، المباني المتناسقة، ود الناس، وصاحب مكتبة لبيع الكتب، وحديثه الدافئ عن الشرق وحضارة مصر، حيث قال بافتخار : إن أكثر الكتب مبيعاً لديه هي

الكتب الخاصة بالحضارة الفرعونية، ثم في النهاية أعطاني عدة كتب هدية رمزاً للصداقة بين الأيرلنديين والمصريين. لم أدرِ لماذا تذكرت "حنان" وقلت: عندما أعود سأهديها بعضًا منها.

"بلفاست" مدينة راقية، ولكن كيف أعيش فيها أطول مدة ممكنة ؟ سأنتقل لأمكث بها شهراً كما كان مُقرراً من قبل، وكما أخبرت "جوانا". ولكن كيف؟ ومن أين سأوفر النقود؟ فلديَّ عمل في "دبلن"، والحياة أكثر أمناً وصخبًا.

في جامعة كوين "الملكة" تجولت في أروقتها، وشاهدت تماثيل لأدباء درسوا بها، دخلت المكتبة وتصفحت بعض المراجع، هذه الجامعة التي درس بها "شيمس هيني"، ويفتخرون بها أشد الافتخار، وتساءلتُ: هل تقدرني جامعتي يوماً مثلما يفعل الغرب بشعرائه وكتابه؟

غداً يجب أن أعود إلى "دبلن"، فيجب أن أذهب إلى المحكمة لمقابلة القاضي.

أيتها الطبيعة. سأتركك وأعود إلى "دبلن" مرة ثانية ؛ حيث ينتظرني السجن والمهانة والذل.

* * *

31

المحكمة

أخذت أبحث عن عنوان المحكمة، كان الجو صحواً والشمس على غير العادة تشرق وتملأ الأجواء، وكانت الشوارع خالية و خاصة فى الحى الشمالى لدبلن اعتقدت أنها توجد على ضفة نهر الليفى ، ولكنهم قالوا بالقرب من شارع الكنيسة ، و بالتحديد شارع تشانسرى Chancery، على جانبي الطريق هناك مبانٍ تشبه مساكن "إيديال" المباني الشعبية في حي شبرا. عندما وصلت سألت الحارس عن القاعة، فقال: توجد قاعات كثيرة، فهى تسمى المحاكم الأربع ، فأي محكمة تريد ؟ ثم سألني عن تهمتي فحكيت له ما حدث، فابتسم الحارس وقال: اصعد الدور الثاني .

كانت هناك قاعات كثيرة اخترت واحدة ودخلت فيها، ولكن فوجئت بعدد كبير من البشر يخرجون منها، ويغادر القضاة المنصة. احترت: ماذا أفعل؟

ثم ذهبت إلى القاعة الأخرى وجلست. سألت نفسى: ما جريمتى؟ وأين الخطاب الموجه للقاضي؟ وأين المحامي؟ وما رقم القضية؟ وأين وكيل النيابة؟........إلخ

كانت القاعة ممتلئة بالعديد من البشر معظمهم يشبه أهالي الشمال واللاجئين والغرباء. لمحت صديقي الرومانى.

فكرت أن أذهب وأجلس بجانبه وأحدثه فى موضوع العملة المزيفة، ربما يشهد معى ويصحو ضميره ، ولكنني فضَّلت ألا يراني في هذا الموقف.

وفجأة ظهرت امرأة ترتدي زيَّ المحاماة، وبدا كأنها حامل في شهرها الأخير. كان القاضي يسأل المتهم إن كان لديه محام أم لا. فإن لم يكن فإنه يسأل المتهم أن يختار محامياً، والغريب أن معظمهم يختار هذه السيدة.

نادى المحامي على الفتاة التي تجلس بجوار الرومانى فوقفت وقالت:

سيدي القاضي لقد سرقت، نعم، ولكن كان هذا بوغم إرادتي، كان "الشامبو" الذي سرقته من صنع بلدي، وقد ذكّرني بأمي التي دائماً كانت تشتري لي هذا "الشامبو" في "رومانيا"، وعندما رأيته شعرت بيدي تمسكه وتقبله وشممت فيه رائحة أمي، وهي تغسل لي شعري وأنا طفلة، وها أنا ذا أمامك أعترف بخطئي.

ثم قامت المحامية وقالت: سيدي القاضي ... لاجئة، ومغتربة، وفقيرة ،

وسرقة الشامبو ليست جريمة مميتة، وحنينها إلى والدتها كان أكبر من فكرة الصواب والخطأ، سامحها بحق المسيح وستحلف لك أنها لن تعود إلى مثل هذه الفعلة. وأمرتها بالوقوف ثانياً وحلفتْ الفتاة كما أمرتها.

فرحت لبراءتها، وتمنيت أن تدافع عني تلك المحامية عندما يجيء دوري ستقول لهم: إنني لم أتعمد أن أقدم هذه الورقة المالية المزيفة إلى عاملة المطعم، و لست مسئولاً عن تزييف هذه الأموال في أيرلندا، و لا أعرف حتى مصدرها، وإنني باحث للدكتوراه و أؤدي خدمات جليلة للثقافة الأيرلندية في الشرق الأوسط، وإنني بريء. أنتم المزيفون، ابحثوا عن المجرمين بينكم و حاكموهم.

كدت أقف وأصرخ في وجه القاضي وأقول له: ما جريمتي؟ ولماذا حضرت إلى هنا؟

ولكن صوت القاضي قاطعني، ثم وقف رجل مليح الوجه متوسط الطول يبدو في منتصف الثلاثينيات، عندما سأله القاضي: لماذا تضرب زوجتك؟ هل يضرب الرجل زوجته، أتريد أن تقتلها ، وهي أم طفلك وراعية بيتك ومصباحه المنير؟

قال: سيدي هي كاذبة، إنني لا أضربها مطلقاً، ولكن آمرها أن تكف عن الصراخ في وجهي ، والشك في سلوكي تجاه النساء. دائماً تتشاجر على أتفه الأسباب، وتغار حتى من أقاربي وبنات أخواتي المحرمات عليَّ. ولا يسعدها شيء، حتى الهدايا التي أهديها لها لا تعجبها وتقول إن ذوقي متدن، ودائماً تشتكي لأسرتها أنني أبخل عليها بالمال والطعام، بوغم أنني لا أفعل شيئاً سوى إسعادها، تتشاجر على كل شيء، لديها نهم غريب لشرب اللبن، وتفهمت ذلك حيث إنها تقوم بإرضاع طفلها، لا يحلو لها الشجار إلا ليلاً وفي ساعات متأخرة، والدتها تعاملني بفظاظة ، ووالدها

يتعمَّد تهديدي، ويرى أنها مثل القطة السيامي الوديعة، وهي عكس ذلك.

إنني أحبها وأعترف لها كثيراً ، ففي ليلة زفافنا قلت لها: إن الحقيقة الثانية بعد وجود الله هي أني أحبك. فأنا لا أطيق بعدها؛ لأنها حنون أحياناً، وتعرف كيف تأخذني من همِّي ، وفوق ذلك فقد رزقني الله منها بطفل أنقذني من جنون الوحدة والعزلة. ولكنها تستغل طيبتي لتقهرني، وتجعل كلمتها هي العليا.

ثم أضاف: سيدي القاضي

زوجتي تدعي أنني أتعامل معها بعنف، ولكن الحق أقول: إنني لا أتعرض لها مطلقاً إلا إذا استفزتني. أنا طبيعتي الهدوء والتأمل ؛ فأنا كاتب ولديَّ بعض الروايات التي توزع بشكل محدود سأهديك بعضاً منها....قلت لنفسى: زميل لي يجب أن أتعرف إليه إن قدرت له البراءة.

–ثم ناوله بعض كتبه. نظر القاضي إلى الروايات ثم ابتسم.

أحب الهدوء والراحة، وهي دائماً تتشاجر على أتفه الأسباب، ولا تشكرني على شيء.

كنت أكتب لها دائماً القصائد، ودائماً أهديها الزهور. آخر مرة تشاجرنا فيها كان يوم (عيد العشاق)، وقد أحضرت لها الزهور، ولكنها ألقتها بعيداً ولم تهتم، وذبلت الزهور, وهناك شاهد وهو طفلي جون.

فسأل القاضى: أين جون؟

قال محامي المدعية: سيدي القاضي هذا هو الطفل, كان رضيعاً عمره سنة ونصف. فضحكت القاعة.

هي لا تعلم أنني أحبها ولا أستطيع أن أستغنى عنها. فهي وابني نور الحياة، وهما الشمس والقمر في سماوات حياتي المظلمة. وهي تريدني أن أحبها وحدها. وهذه أنانية، أنا أحب البشرية جميعاً. لا أحد ينصفني من أهلها، والجميع ضدي، ولا يسمعون إلا صوتها.

انصفني أيها القاضي وارأف بحالي، فإنني أريد أن أعيش حياة سعيدة مع ابني، وأن أربيه تربية حسنة، وأن أنفعه بمالي وثقافتي. أرجوك.

نظر القاضي إلى الرجل وقال: براءة. ثم قام القاضي من مكانه وانصرف واحتضن المتهم زوجته وطفله وتعال ت الأصوات فى القاعة، ثم غادر البشر القاعة. وبقيت وحدي، لا أعلم ماذا أفعل. وهل ستستأنف المحكمة مرة ثانية أم لا!

وبعد فترة خرجت، وسألت أحد الموظفين، وقال لي: كيف تحضر إلى المحكمة دون أوراق أو شرطي؟ ارجع إلى القسم واستفسر عن تهمتك.

عدت إلى القسم وسألت الشرطي الذي بدا وكأنه لا يفهم شيئاً ويبدو عليه التعب ربما من أثر شربه الخمر طوال الليل. حكيت له ماذا حدث في المحكمة، ولكنه قال: لا تشغل بالك.

قلت له: ألن أذهب مرة أخرى إلى المحكمة ؟ لم يرد. ثم غادر الحجرة وتركني وحيداً.

ثم جاء وقال لي: أنت محظوظ أوراق الاتهام الخاصة بك ضاعت، ولم تذهب للمحكمة. اذهب فأنت من الطلقاء.

بالطبع من الطلقاء، فأنا برىء من أى تهمة تزوير أو ترويج عملة مزيفة. هذه النقود منكم و لكم و أنتم صانعوها ومروجوها. و انتم بالذكاء لتواروا جرائمكم، و بالحكمة لا تفتحوا الأبواب المغلقة و تشعلوا النيران. غسيل الأموال و صفقات الأتحاد الأوروبى و غيرها. حمداً لله أن الأوراق ضاعت ولم أضع أنا معها.

32

الأمور تزداد سوءًا في الشوارع. الأمطار تسقط بغزارة والصقيع يجمِّد كل الأشياء، والمعطف الروسي لا يصلح؛ لأنه يُعيق الحركة، والعنف يصل لِقمَّته، أصبحت تفقد أعصابك لأي سبب تافه، وأصبحت تتشابك بالأيدي مع الزبائن العنصريين، وأيضًا المتشردين ؛ واحد منهم خطف منك نقودك ووعدك أن يعطيك حلية ذهبية ففكرتَ أن تحتفظ بها لوالدتك، ولكنه بخل بها عليك وهرب بها ولم تبلغ الشرطة لأنك تعرفه، وكانت بينكما صداقة وقلت: له و هو يجلس بجوار بنك إيرلندا إنك جدع ومن شبرا وهو لا يعرف معنى الرجولة، ولكن زوجته وعدتك بأنها سترد لك النقود، ولكنها لامتك وقالت: كيف تنتظر نقودًا من مدمن موريفين؟ امرأة صفعتك على خدك لأنك ألححت عليها وعلى صديقتها لتشتري زهورًا. ظنَّتْ أنك تغازل رفيقتها. وجرحك أحد المتشردين المخمورين عندما خطف زهرة وأعطاها لرفيقته، وهرولت وراءه لتستعيدها منه، فضربك بالجردل الذي تضع فيه الزهور. أصبحت تركن كثيرًا بجوار الحوائط تختبئ فى ممر "مرشنت أرك" Merchant's Arch، ممر التجار، تتسول وتبكي بحرقة، وتريد الرجوع إلى

وطنك. في الليل تحتضن وسادتك وتصبو للحب و العاطفة الجسدية.

أصبحتَ تدعو الغرباء من النساء والرجال إلى منزلك ، وتطردهم عندما يسيئون فهمك. تكتفي بالمراوغة والتواطؤ والتلصص ولا تجرؤ على الفعل. وكاد صاحب العقار يطردك ليلاً عندما تشاجرتَ مع إحدى ضيف اتك المخمورات، وأيقظت السكان لأنك أردت منها أن تخلع لك ملابسها لتستمتع بالنظر إلى جسدها، فرفضت وصرخت لأنك لم تُعطِها النقود التي اتفقت على أن تعطيها إيَّاها، حتى إن لم تمارس معها الحب.

تضع أمامك الطعام الذي طه وته بنفسك: لحم ضأن؛ لأنك تخاف لحم البقر، فمرض "جنون البقر" يفزع أوربا كلها، وخاصة أيرلندا. اشتريت لحم الضأن من "ماركس آند سبنسر" وقلت: سأطهو وليمة اليوم. وتمنيت أن يشاركك أحد مثلما كان يفعل السيد المسيح في شأنه مع الحواريين. جلست وتذكرت أنك لم تقرأ "بسم الله" على الطعام، لأنه ليس حلالاً؛ بل تأكل ميتة وجيفة. لم تكلف نفسك الذهاب إلى شارع "ثوز سيركلر رود" لتشتري طعامًا حلالاً. مضغت ثم صعب ت عليك حالك، وشعرت أن الدموع تبلل حلقك وجوفك وتمتزج مع اللحم، فبصقت ما في فمك, عينك تغرورق بالدموع، ثم دخلت في نوبة بكاء ونشيج، وكدت تفقد وعيك بسبب ضعف قلبك، ثم نظرت إلى السماء، ودعوت الله أن يغفر لك، وسألت نفسك: هل أنت مؤمن؟ ثم قلت: إنك وحيد

وضعيف. ثم قلت: العناية الإلهية تحيطني، وقلت: إنك أقوى. ومُحَصَّنٌ بكتاب الله كما كان يقول والدك.

ولكن هل هناك فعل إيمان من جانبي؟ إيماني مُنتقص؛ فأنا ساهٍ عن صلاتي، ولكن قلبي ممتلئ بالمحبة، حتى لحظة خطيئتي يكون الله قريبًا منِّي جدًّا. فذنبي يصلني ويُصعدني إليه. ولكن أتوارى خجلاً وخزيًا وكأنني آدم الأول أبحث عن بعض من ورق الجنة لأستر به عورتي، في وحدتي يكون الله حاضرًا يطمئنني، وحتى وحدتي لازمة لوجودي معه.

* * *

تمطر كالعادة، وتنخفض درجة الحرارة، وأتخيل "دبلن" وكأنها مدينة من العصر الجليدي: الوجوه بيضاء شاحبة من الصقيع، العجائز السائرات في الطريق يصارعن "التهاب المفاصل" الذي ازداد مع برودة الجو. بجوار حائط "بنك أيرلندا يجاهد الشحاذون أن يهزموا الصقيع بمزيد من الأغطية، يغمضون أعينهم من البرودة، ربما يقتنعون أنه الموت والآخرة الأبدية. نظرت إلى أصابعي وقد هربت منها الدماء الفرعونية، وتجمدت بطقس أيرلندا القاسي. كنت قد انتهيت من القراءة وخرجت من مكتبة "ليكي" لم أكن أتوقع أنها ستظلم مبكرًا ويشتد الصقيع هكذا بالرغم من تحذير "سيمون" لي هذا الصباح، ونصحتني بأن أشغل المدفأة طوال الليل، وأن أدثر نفسي جيدًا ليلاً ؛ فإن برد أيرلندا قاتل، ولكن استهتاري بالطبيعة تغلَّب عليَّ.

شعرت بالجوع فجأة، وتذكرت أنني لم أتناول فطوري، فتَّشت في جيبي، لم يكن معي غير عشرة جنيهات في جيبي. سآكل "سمكًا وبطاطس" من محل "فيش آند تشيبس"؛ ربما تساعد على جريان الدم في عروقي.

وسأتناول قدحًا من البيرة، هكذا سوَّلت لي نفسي. في الطريق لمحت الفتاة الطيبة التي أراها دائمًا تقف بجوار عربة الحساء: وهي مجرَّد ناقلة بداخلها مطبخ يحتوي على قدر به حساء يوزع في الأيام الباردة على كل من يمر، كانت الفتاة دائمًا تبتسم لي وتمد يدها لي بالكوب. حاولت أن أدفئ يدي بحرارته، وهرول الحساء ساخنًا بداخلي فأحسست بالدفء، على أحد جدران الناقلة قرأت : "تذكروا المجاعة الكبرى 1845 – 1852". لعنة الله عليك يا ترفلين Trevelyan حكمت فظلمت.

ترفين كان المسئول عن الخزين.

إنجليزي متحكم في أيرلنديين.

. قال إيه !! الكتير بيفسد العبيد

أما الشح بيعلم الكتير

هي دي فلسفة ولا اقتصاد

بس حيفيد بإيه الندم؟!

بسببه مات ملايين من الأيرلنديين .... جعانين

.... عجبي.

قالت لي الفتاة إنها تراني دائمًا أبيع الزهور، وإنها كانت تريد أن تتحدث معي لولا خجلها وشعورها أنني مشغول، وذكرت أنها

تقوم بأعمال خيرية، فقلت: ما أجمل صنيعك! قالت: أتحب أن تشاركنا وتتطوع؟ قلت: بكل سرور، قالت: يوم الأحد نذهب معًا للكنيسة وسأعرفك بأصدقائي، من فضللك أعطني عنوانك وسأمر عليك. سألتها: ما اسمك؟ قالت: روز.

* * *

33

يا رب، إن عظمت ذنوبى كثرة
فقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟
أدعوك، رب كما أمرت تضرعًا
فإذا ر دىدت يدى، فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرجاء
و جميل عفوك، ثم إنىي مسلم

أبو نواس: صلاة الخاطئ8

جاءت " روز" في موعدها المحدد لتصحبني إلى كنيسة Mother–Christ "مازر كريست". فتحتُ لها بوابة المنزل وقُدتُها إلى غرفتي الجديدة التي أجرتها في شارع "نيلسون". رائحة عطرها عبقت المكان، لاحظت أنها تطلي أصابعها بطلاء صارخ اللون، كانت أصابعها رقيقة ومغرية .

قلت لها: الألوان الصارخة تزيدك جمالاً.

ـ جلست وملأتني الرغبة حنينًا لأحتضانها . قلت لنفسي: تحضَّر. صنعت لها قدحًا من القهوة، وأدرت المسجل بأغنية عمرو دياب "آدي الملاك البريء". شرحت لها معاني الكلمات.

ـ قالت: تعيش في الحب؟

- قلت: مثل كل الرومانسيين القلائل في العالم الآن .
- الحب الإلهي سيجعلك تتغاضى عن هذه الصغائر.
- والجسد، وأنين الرغبة؟
- تتغلب عليهما بالتسامي والعطاء.
- والخطيئة؟
- مسحها المسيح بحمله الصليب.
- كلما تكلمت عن الدين، ازددتُ رغبة فيها، وكأن الشيطان يلعب لعبته الخبيثة معي أنا وحدي.

قالت: يجب أن نذهب إلى الكنيسة، سنتأخر.

اقتربت منها أكثر. كان الفراش يواجهنا.

لمحتْ مصحفًا كان يرقد في سكينة بجوار وسادتي، فقالتْ: ما هذا الكتاب؟ قلت لها المصحف الشريف. قالت: هل لي أن أتصفحه ؟ سألت نفسى ،هل هي طاهرة، أم أنها حائض؟ هذا كتاب لا يلمسه إلاّ َالمطهرون. قلت: سأريك الكتاب بنفسي و استغربت، فقالت: لماذا لا تسمح لى بتصفحه ؟ تعجبني النقوش الموجودة على الغلاف. أخذت القرآن بين يدي وقدمته لها. قالت: أحب أن أسمعك وأنت تقرأ منه، فلنا أحب اللغات الغريبة وخاصة العربية، فأخذت أقرأ لها سورة يس.

رأيتها تستمع باهتمام، حتى إن لم تفهم الكلمات، ثم قالت: ترجم لي ما تقرأ. ثم جاهدت في ترجمة هذه الآيات.

قالت: لسنا مختلفين عنكم، نحن نتشابه إلى حد التماثل، والجوهر واحد، هو أن نعبد الله، وأن نساعد البشرية على الوصول

إلى السلام مع النفس ومع الآخر، نحن ضد كل ما هو مبتذل ودنس، نحن نؤمن تماماً بوجود الله، وبدعوته لنا بالنزاهة والتطهر حتى يصل الإنسان إلى قمة إنسانيته المنشودة . نحن لا نقرب الخمر ، ولا نريد الفحشاء والزنا أن يكونا السلوك الطبيعي للبشر، نحن نبحث عن ماهية الإنسان وحقيقته في صورته الأولى، حالة الكمال وعدم الانتقاص. هذه الآيات التي قرأتها لي هي تماماً ما نؤمن به، وما نسعى إليه. ثم فاضت عيونها من الدمع وقالت: كانت لي ذنوب كثيرة، وأصلي كل يوم أمام نهر الليفي لتغرق فيه ذنوبي، وأعود نقية كيوم الميلاد.

نهضتُ واستلقيتُ على الفراش، أُضرمت بي نار الشهوة، وهى جالسة أمامي، وداريت خجلي.

ولكنها كانت لا تبالي، وبدت قوية، وغير متحركة.

نهضت، ووقفت بجوار المدفأة.

قلت: ولا يزال حالي يدل على حالي. متسرع أعلم ذلك.

- لا يزال الجسد إلهك.أما أنا فقد ذهب عني هذا منذ أن عرفت المسيح.

كرهت فيها سيطرتها، وقوتها. وقلت: ربما منافقة أو مدعية.

وقررت أن أنسى جسدي، ولو مؤقتاً، وذهبت معها إلى الكنيسة.

* * *

عندما دخلنا الكنيسة كان القُدَّاس قد بدأ لتوه. وجلست هي بجواري يلبسها الخشوع، تملؤها الرهبة من الكلمات التي ترتل،

ثم بعد فترة قصيرة أخذ الحضور في ترديد بعض الترانيم وراء القسيس، ثم ناولتني ورقة مطبوعة عليها المزامير، وأخذت أقرأ وأتلعثم في ضبط إيقاع قراءتي مع الإيقاع العام للترانيم، ثم أخذت ألتقط صوتها وأتتبعه، حتى تناسق صوتي مع بقية الأصوات المنبعثة من القاعة. وبعد أن انتهت التراتيل تقدمت فتاة ناحية الميكروفون، ثم بدأت تحكي حكايتها مع الإيمان ورحلتها حتى وصلت إلى هذه المكانة. قالت إنها في البداية لم تكن تؤمن بشيء.

ثم استطردت قائلة: نعم لم أكن أؤمن ها أنا ذا أمامكم، كلي ثقة وقوة، ليست قوة الكبرياء، ولكنه الخضوع. الخضوع لقوة المعرفة والإيمان ، وبالله ، وبالمسيح. قبل سنة من وقوفي بينكم كنت فتاة ضائعة، مكسورة القلب، حب فاشل مع رجل استغل طفولتي وأنوثتي الطازجة، , و النتيجة حمل سفاح تخلصت منه ... جنين في كيلو قطن ملقى بجوار نهر الليفي .. رأيت ه في نفس الليلة الفئران الجائعة تنهش في أعضائه. كنت فتاة بائسة تتسول محبة الرجال واهتماماتهم، وترتمي في أحضان الغرباء كل ليلة. أبي تركني وأنا طفلة صغيرة ورحل إلى الولايات المتحدة، ثم عمل كمرتزق في حرب الخليج، وأمي أدمنت الخمر كما تدمن الرجال. سنوات من الإهمال والتخبط، حتى جاء يوم كنت قد تناولت فيه حبوباً مخدرة قدَّمها لي صديق قبل ممارسة الحب، ثم ذهبت في غيبوبة نُقِلت على أثرها إلى أقرب مستشفي، وعندما فتحت عينيَّ كانت الراهبة "روز" هي النور الذي دخل قلبي، وها هي تقف

بجانبي وترشدني إلى طريق الإيمان الصحيح. وعرفت طهر الإيمان، وعرفت نظافة العذراء ونقاءها وحبها للمتطهرين.

اليوم إذا قُدِّرَ لي الموت وقابلت ربي وصعدت إلى ملكوت السماوات، فستستقبلني الملائكة الأبرار، وإن لم يحدث فسيكفيني أن المسيح قد طهرني ومسح على جبهتي بالماء والزيت. ثم تدحرجت منها الدموع بغزارة، سمحت لجميع الحضور برؤيتها، فصفق لها الجميع حتى اختفت بين الجموع.

فجأة تخيلت نفسي مكان واحد من هؤلاء الذين جاءوا ليعترفوا أمام البشر في لحظة من الصدق والتطهُّر، ولكن ماذا سأقول لهم؟ سأقول إنني هنا لأدرس الدكتوراه كما يحلو لي دائماً أن أقول بافتخار وإعزاز! أم سأقول إنني هنا تائه بين الحقيقة والسراب، وبين الواقع والحلم، وبين الإيمان واللا إيمان، بين العفة والدنس والخطيئة، بين رغبات مكبوتة ورغبة مستحيلة للتحقق والخروج من أغلال الجسد والطبقة. ماذا سأقول؟ فقير ومحتاج، ولكن، هناك حلم أريد تحقيقه .

أقول إننى أسقط في بؤرة اللا أنا ، وإنني أعاني ازدواجًا وإحساساً بالقهر اللا نهائى وغير المبرر، أقول إن اختياراتي كلها خاطئة، وإنني لم أفهم من هو أنا! ولماذا أنا ! سأقول إنني ضحية نفسي وأسرتي وبيئتي وبلدي الذي يئن تحت وطأة كثير من المشاكل والتخبط، أقول إنني عبقري أعاني نوبات جنون وعدم تحقق، وإنني لا أستطيع أحياناً أن أميز بين ما هو صالح وما هو طالح. أقول إن التاريخ ظلمني، وجسدي ظلمني، ولوني قهرني!

ولغتي عائق وسد منيع بيني وبين الآخرين! سأقول إنني خائف ومتوتر ومترقب وتملؤني الهواجس والوساوس والخيالات، وإنني لا أستطيع أن أنسى جسدي وأن أغلق أنشطة ذهني وعملياتي العقلية، أم أعترف أنني يسكنني إنسان آخر يريد أن يصرخ ويبكى على الملأ ؛ لكي ينعي مأساته ومأساة البشر جميعاً. سأقر أنني اقتربت من الجنون واللا وجود، وربما سأنهار وأقول إنني طفل صغير كُتبت له الحياة مرة ثانية عندما سقط من نافذة منزله ؛ بسبب جارته الطفلة التى كانت تناوله دميتها من النافذة المجاورة، وإنني سقطت على رأسي وكُسِرت ذراعي وعمودي الفقري وأنه تم إنقاذي بأعجوبة بعد غيبوبة دامت شهراً كاملاً، وأنني أشعر أن الطفل مات ولم يستيقظ مرة ثانية، ولم يعد إلى الحياة، وأن روح الطفل هي التي تنمو وتتحرك وتكبر، وأصبحت روحاً اسمها "معتز". أنا "معتز" روحاً لا جسداً ولا كياناً، أثير فقط، صنعته ذكرى والديه وإخوته عما كان سيكون "معتز" لو قُدِّرَ له الحياة، مثلما يتخيلون أخاهم "حسين" -لو قُدِّرَ له الحياة- بالطبع كانوا يريدونه متفوقاً في دراسته، مطيعاً لوالديه، مؤدياً خدماته نحو وطنه، مضحياً بنفسه في سبيله وسبيل الآخرين، أن يصبح خريجاً في الجامعة، وأن يُعَيَّن في سلك التدريس، ربما سيصبح رئيساً للقسم فعميداً أو وزيراً يدخل اسم عائلته في تاريخ مصر وساستها، أو ربما عالماً أزهريًّا كما كان يتمنى جده لوالده الذي فشل فشلاً ذريعاً أن يحقق نبوءة أبيه، فقد أصبح حافظاً للقرآن،

بعيداً كل البعد عن تأويله أو تفسيره. إذاً سيقول إنه روح، روح من أمر الله، أليس هذا أمرًا صعباً! إذاً لن يعترف.

* * *

34

عندما رأيت "فريدا" ليلة السبت مع "ربيكا" وزوجها، وهي عائدة من الحانة، كنت أبيع الزهور أمام بار" زنزبار"، تمشى فى طريق "ميناء العزاب Bachelor's Quay " استغربت لحالها، فقد تحولت إلى إنسانة أخرى، كأنها مخمورة، تصدر أقوالاً وحركات غريبة، تبدو فقيرة إلى حد كبير، ويظهر هذا في ملابسها الضيقة التي لا تناسب عمرها، واختيارها للألوان . أما ربيكا فكانت تتظاهر بأنها "ليدي" أو "سيدة مجتمع"، تمشي بجوار زوجها وتتأبط ذراعه وتمشي الهوين ى، ولكن فجأة قامت "فريدا" بحركات بهلوانية في الشارع، فتقفز على يديها كأنها لاعبة جمباز، وترمي بجسدها اللدن على صدري وفخذيّ، تقتحم مناطق محرمة في جسدي بيديها، تقبلني في وجهي، وتلتصق بي التصاق العشاق والمحرومين، آخذها بين ذراعي، تضحك بصوت مرتفع، وتقول: نحن أسياد العالم، ثم تهتف: الله أكبر الله أكبر بطريقة هستيرية، ثم تصرخ وتترنح وتقول: قل لربك يجد لفريدا حلاً.

بخطوات مرتبكة أراها من بعيد تمر بجوار المحاكم الأربع في طريقها إلى منزلها في الحي الشمالي أخشى أن تصدمها سيارة

مسرعة، تعبر الشارع ويصبح نهر الليفي وراءها، وينعكس على أنواره الباهتة ومياه حزن "ربيكا" وحزن أهالي "دبلن" وحزني.

أحمل صحبة الورود، وأعبر كوبري "هاف بني بريدج" إلى منطقة "تمبل بار" لأبيع الزهور، فالساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً، وحان وقت خروج الزبائن من حانة زنزبار على رصيف أورمند، والدوق the Duke وتريكس هيد Turk's Head أو (رأس التركي)، والكتشن kitchen (المطبخ)، والسنرز Sinners(الخطاة)، الفرنت لونج Front lounge. زي أوك The Oak

لم أكن أتجنب" الفرنت لونج "

مثلما كنت أفعل مع بار "جورج"؛ لأننى أريد أن يشتري الناس زهوري التي أحملها بين يدي، وكل زهرة تعني جنيهاً أيرلنديًّا، وكل جنيه يعني المكوث أكثر، ومراجع أكثر، وإقامة أطول. كانوا رجالاً مهذبين خفيفي الحركة يرتدون بنطلونات ضيقة ،ينظرون إليَّ، أحدهم قال لي: خسارة في التسول.

وآخر قال: ورد يبيع الورد! ارمِ الورد بعيداً، وقبّلني، وسأعطيك خمسين جنيهاً، فبصقت في وجهه، فضحك بميوعة.

ودعاني آخر إلى تناول شراب داخل البار، فترددت، وفي آخر الليل عرض عليَّ أن ينقلني إلى منزلي، فشكرته ورفضت. كان البعض منهم من الكتَّاب والشعراء؛ حيث رأيتهم من قبل في اتحاد الكتَّاب الأيرلندي، وبعضهم شاهدت لوحاتهم في مركز الفيلم الأيرلندي. عندما أشعر بالضجر أغادر هذا المكان وأذهب إلى ديسكو "كيتشن"، فهناك الشباب الذي يدفع ثمن الزهرة دون

السؤال عن ثمنها، ويتركون بقشيشاً سخ يًّا، وينتهز الفرصة ليعطيها لصديقته، وتفتح الوردة باباً للود، وطريقاً لانفراج الشفاه والتقبيل. كنت أشيح بوجهي خشية الفتنة، فقد كنت أصلي كثيراً، وأطلب الاستغفار، وأشرد كثيراً مع نار المدفأة، وأتذكر الجحيم فأرتقي، ولكن دائماً كان يملؤني اليقين بأنني لا أفعل إلا الخير، ألا وهو العلم و البحث عن المعرفة، بغض النظر عن الوسيلة.

35

"معتز" . أنت لا تعرف ماذا تريد.

يجب أن تعرف ذاتك أولاً، يجب أن تسأل نفسك من أنت؟ وما ماهيتك؟ طبيعتك؟ من الحتمي أن تحدد ماذا تريد، وماذا أنت صانع في حياتك؟ البحث عن الذات لمعرفة من أنت .أليس هذا هو السر الذي وضعته الطبيعة في الإنسان منذ بداية تكوينه نطفة في رحم أمه؟ شفرة الإنسان المُحيرة، ثم قال لنفسه: لست " الملك أوديب" لكي تحل لغز البشرية، ثم تكتب عليك اللعنة إلى الأبد.

هل أريد الجسد أم أريد الروح؟ هل تريد أن تستسلم تمامًا "السيمون" وتعيش معها فى علاقة آثمة أم تريد التطهر؟

إذا أردت الجسد، فهل ستنطفئ رغبة الروح في معرفة المزيد؟ وكيف أسلم الجسد وورائي تاريخ من المحرمات، ومن

التقاليد التي تكبح جماح الجسد، ثم الروح، التصوف، الزهد، والرغبة في الذوبان في عناصر الكون، ثم حدة البصر.. ثم البصيرة، ثم النفاذ، ثم التوحُّد مع الخالق، فتكون يده التى يبطش بها، وكلمته التي تقول بها للشيء كن فيكون.

معتز. أنت جشع، تريد أن تكون نصف إله، بل تريد أن تكون المسيح، تريد أن تتوحَّد مع الله، فتكون يده التي يبطش بها، ولسانه الذي يتكلم به؛ لتنفذ ببصرك الحديد إلى الصدور والغيب.

* * *

لم تخرج "فريدا" إلى العمل مدة تجاوزت عشرة أيام. سألت عنها بائعة الجرائد والفاكهة، قالت المرأة الخالي فكها من الأسنان و تبيع الجرائد بجوار مطعم ماكدونالدز فى شارع أوكونل: إنها طريحة الفراش ولن تأتي. حدثتني ونظرة من القلق تظهر في عينيها. نظرت إلى حركة فمها وهي تحدثني، وتذكرت قول "فريدا" في سبب سقوط أسنان هذه السيدة؛ لأنها تهوى الجنس الفمي. شعرت بالاشمئزاز ولكني ضحكت. كانت بجانبها عجوز أخرى بلغت السبعين تقريباً، تشقى من أجل لقمة العيش؛ فهي تبيع الفاكهة طوال العام، أما في أعياد الكريسماس فتبيع الألعاب النارية مثل الصواريخ والبمب للأطفال فسألتها عن فريدا و طلبت منها أن تعطيني عنوانها ففعلت.

لم يكن زوجها في المنزل، كانت شاحبة وهزيلة، ضايفتني، رفضت تناول الشاي. شكرتني على الاهتمام بها والسؤال عنها. أردت أن أستأذن، ولكنها طمأنتني أن زوجها لن يعود الآن، فقد

تشاجرا وذهب إلى الحانة ليشرب، قلت لها: سيعود. إنه يستغلك، هو لا يحبك بشكل حقيقي، أنتِ مصدر نقود لا أكثر ولا أقل.

نفت الفكرة، وقالت: أحبه، وهذه هي المأساة.

قلت لها و كُلِّي غضب: تحرري، يجب أن تملكي قلبك بين يديك.

قالت: لا تزال صغيرًا لم تجرب الحب، لقد أحببته، أعيش معه رغم أنني متزوجة بغيره وأنجبت منه طفلة، والآن أنا حامل، وهذا سبب هزالي. قال لي الطبيب : إن الحمل فيه خطر على حياتي ويجب أن أجهضه، هو يرفض الإجهاض ويصر على أن أنجب له ، وأيضًا الكنيسة تحرم الإجهاض فى "دبلن".

قلت: الإنجاب يعني مزيداً من المعونة من الحكومة الأيرلندية، ومزيد من المعونة يعني المزيد من الشراب، ومزيد من الشراب يعني مضاجعة صديقك لأكبر عدد من النساء الأيرلنديات. قلت لها: هكذا دائماً الإنجليز، مخربون، واستغلاليون.

لم ترد على تحامُلي الذي أعلم أنه لا أساس له من الصحة، وأنه مجرد انطباعات شخصية مرتبطة بعدم راحتي لهذا الرجل لا أكثر ولا أقل، وتعاطفي مع "فريدا" وحالتها الإنسانية.

قلت لها: اهتمي بصحتك وإن أردتِ نقوداً، فلا تقلقي، فردت قائلة:

شكراً، أنعم الله عليك، لقد أثلجت صدري بهذه الزيارة، لا تقلق سأعود إلى العمل، وسألف لك الزهور كما كنت معتادة أن أفعل دائماً. سكتت برهة ثم قالت: أعتقد أن ربيكا لن تخرج هي أيضاً.

قلت: أنتِ أجدع من ربيكا، ربيكا مشغولة بأولادها وزوجها، فضحكت قائلةً: أعتقد أنـها تريد منه طفلاً آخر. قلت: لا بأس. فضحكت.

استأذنت، نزلت الدرج، نظرت عالياً، وجدتـها تقف في شرفتـها تطل عليَّ، ونظرة حزن ووداع في عينيـها، وانقبضت.

-

* * *

36

شعرت بالندم لتركي منزل "أدنا"، فقد كنت أعيش فيه وكأنه منزلي، وأدركت كم كانت رقيقة وحنوناً، وأنني لم أفهم سلوكها منذ البداية، فهي وحيدة، وإن كان لها أبناء، فهي تريد أن تعيش حياة حرة، وعندما يكبر الأبناء يجب أن يستقلوا، وإن احتاجوا إليها فإن منزلها مفتوح لهم.

افتقدتُ الأشجار التي كانت تحيط بمنزل "أدنا"، وكأنها كانت تحميني من الأرواح الشريرة، ومن إحساس الوحدة والغربة. افتقدت الحانة التي تعمل بها الفتاة الرقيقة التي كنت أزورها كلما أنهيت عملي أو جامعتي كل مساء لتريح ابتسامتها وروحها النقية ثلوجة المشاعر بداخلي.

* * *

كنت أشتري زهوري من "فريدا" و"ربيكا" أسبوعيًّا ؛ حيث أحتفظ بها في مكان بارد وخاصة عندما حل الشتاء ضيفًا ثقيلاً؛ لأنهن لم يعدن يخرجن كثيراً مثلما كُنَّ يفعلن أيام الصيف ؛ حيث كنت أشتري زهوري يوماً بيوم. المرة الأخيرة التي لقيت فيها "فريدا" كان يوم سبت ، وكانت تقف على كوبري أوكونل ترتب زهورها؛ حيث نهر الليفي يبدو وكأنه بحيرة من الرماد المتجمد ،

والريح تأتي من كل مكان، والسماء كعادتها تنزف. رأيتها وكأنها آتية من جهنم المثلجة. كانت "فريدا" ترتدي بدلة رياضية صفراء اللون تزامنت مع لون بشرتها وملامحها المرهقة. تمسح مياه المطر على وجهها. أعطيتها المظلة لتحميها، ولكنها رفضت متعللة بأنها معتادة على هذا الطقس، ولكنني أصررت أن أعطيها لها.

قلت: نحن الرجال أصلب منكن أيتها النساء.

لكنها استنكرت هذا القول، وعللت بأن هذا ما تصوره لنا أوهامنا ؛ فالمرأة أقوى بكثير من الرجل، لكن الرجل وسطوته وتاريخه الطويل من استعباد المرأة هو الذي أكد هذه الأفكار. كنت أتعجب من مدى الوعي الذي تتحدث به هذه المرأة البسيطة، وأقول: إن هناك الكثير من الفتيات في الشرق لا يفكرن أبداً في القهر الواقع عليهن، ولا يسألن عن سبب وجود مثل هذه التقاليد الخانقة التي يمارسها الرجل معهن منذ قديم الأزل!

* * *

في حجرة صغيرة في شارع "نلسون" في الحي الشمالي من "دبلن" .. أجلس وحيداً، حجرة متواضعة بها مدفأة تعلوها مكتبة أضع عليها كتبي، وسرير يحضن الحائط تعلوه نافذة زجاجية عالية خالية من الستائر، فتظهر السماء الزرقاء وبرج الكنيسة العالي، والذي تعشش به بعض الطيور التي أصبحت صديقة لي في وحدتي، وكابينة حمام في نهاية حافة الفراش، وموقد كهربائي، وحوض للاغتسال في أحد الجوانب الأخرى للحجرة. تمر الساعات

الطويلة ويتغير لون السماء من الزُّرقة إلى السواد، ولا يتوسط القمر السماء مطلقاً، وتغيب الطيور ولا تظهر إلا في الصباح.

أجلس وأكتب قصائد رائحتها الحنين وإحساس بالغربة. أكتب "سهام" في مئات من القصائد غير الموزونة، والتي تصلح أن تكون قصائد نثرية في ديوان مُصنَّف على أنه كتابة شابة، يشبه تماماً كتابة جماعة الجراد، يصدر في مطبوعة غير دورية مثل "الكتابة الأخرى".

خارج الحجرة يقع ممر طويل ضيق يؤدي إلى بقية أدوار البناية، في الدور الثاني يسكن شاب تونسي وصديقته الباكستانية. في البداية اعتقدت أنها هنديه، ولكنها قالت لي ذات مرة عندما قابلتها في سوق شارع مور مصادفة إنها باكستانية هاجرت عائلتها إلى بريطانيا بعد انفصال الهند عن باكستان وولدت هى في إنجلترا، وهذا كان واضحًا من لكنتها الإنجليزية السليمة. ، ثم أحبت هذا التونسي وسافرت معه إلى أيرلندا ، ولأنهما كانا متزوجين حديثًا أهديتهما زهور "الليليم" ففرحا بها كثيرًا، ووعداني بأنني سأتناول معهما العشاء، ولكن لم يحدث.

أما الشقة العلوية لهما، فيسكنها المغربي الذى دلنى على هذا السكن و يقطن معه أخوه.

أما الفتاة الأيرلندية الجميلة، والتي اعتقدت لأول وهلة أنها أمريكية، فهي تشبه ممثلات هوليود؛ حيث عينها الزرقاء القاتمة، وبشرتها الجميلة، وملابسها المصنوعة بعناية كانت تقطن الطابق الأخير.

كنت أنتظر حضورها دائمًا، وعندما أسمع صوت فتح الباب أهرول تجاه الممر؛ لعلِّي أجدها، فأتبادل معها بعض الكلمات القليلة.

ذات مرة تحججت بأنني أتحدث في الهاتف، وكانت هي تريد الاتصال، فانتهزت الفرصة لمزيد من المعرفة، فأخبرتني أنها تدرس في جامعة ترينتي كوليج، واستغربت أنني أدرس بها أيضًا، وقالت إنها رأتني في المكتبة أكثر من مرة، ولكنها عندما فوجئت بي أمام بار "زنزبار" أبيع الزهور لم تتحدث إليَّ، وعبرت بنظرة من عينيها عن الدهشة. قالت: هل أنت بائع ورد أم طالب بعثة؟

* * *

هواجس الغربة تملأ روحي شوقًا لوطني. أحلم بعودتي إلى القاهرة. أفرح في البداية، ولكني عندما أقابل أختي في المطار أحزن. لماذا لم أكمل مدة رحلتي في "دبلن"؟ أسأل عامل المطار: ألا توجد طائرات متجهة إلى "دبلن" الآن. فينظر في تذكرتي ويقول باستياء: تذكرتك عودة فقط وليست ذهابًا، يجب أن تدفع ثمن تذكرة أخرى حتى تتسنى لك العودة إلى "دبلن". أُفتش في جيبي، لا نقود ولا جواز سفر، ولا أجد غير حقيبة. وعندما أقترب منها لأحملها تتحول إلى كفن ؛ فأنادي بخوف ورهبة على بعض الحاضرين لنحمل الكفن إلى المقبرة، فلا يُجيبني أحد.

أنهض من نومي حزينًا، أفتح عيني فأجد برج الكنيسة خاليًا إلا من بعض الطيور التي تتحدى برودة الجو، ولكنها ما تلبث أن تهاجر إلى أعشاشها حيث الدفء والالتصاق بالمحبوب.

أخرج من باب غرفتي، أتصل بسهام فى القاهرة، لا أخبره ا
من أنا. أسمع صوتها فقط، أدخل حجرتي مرة ثانية، أفكر في غسيل ملابسي، أحمل سلة الملابس وأضعها في الغسالة الأوتوماتيكية، يواجهني جاري الشاب الذي يعيش مع صديقه، يتفادى النظر إلى عيني، مع أني لا أتهمه بشيء .. عندما رآه صديقه أمره بالدخول. لم أحاول أن أستفسر عن هذه النظرة، ولكني أدركت أنه يغار، فهو لا يتركه دقيقة واحدة يخرج بمفرده، حتى عندما يصلان إلى المنزل لا يتجه إلى باب البناية إلا إذا كانا معًا. لست مهتمًّا به، بل هو مجرد حب استطلاع لمعرفة الآخرين هو الذي يقودني إلى هذا الشغف. قال الشاب التونسى زوج الباكستانية: إن لم يخرجا من هذه البناية فستنهار بنا حتمًا كما فعل الله بسدوم و عمورة، فالله لا يحب الدار الظالم أهلها.

قلت له ذات مرة: نحن لسنا في الجزائر ولا في القاهرة، هذه بلادهما، والله سيخيب ظنك؛ لأننا طيبون، ونعيش في البناية نفسها، فالله ليس ظالمًا ليأخذ العاطل مع الباطل.

37

جارتنا التي تقطن في البدروم أخبرتني أن الرجلين متزوجان منذ أتت إلى هذه البناية.هي حضرت حفل زفافهما في الكنيسة، وكان أول زواج من نوعه في أيرلندا ، ولكنها تكن لأحدهما كرهًا لاعتياده سرقة ملابسها الداخلية التي تنساها في الغسالة. تخيلت المنظر كوميديًّا ساخرًا، عندما يرتدي رجل ملابس نسائية. جارتي هذه متزوجة من إفريقى لا أعرف ما جنسيته، ولكني أعتقد أنه من زامبيا. كنت أخاف عينه في البداية عندما يقف بجوار الباب ليتحدث في الهاتف؛ حيث لم يكن لديه هاتف في حجرته فكان يلجأ إلى ردهة المنزل الذي يوجد به هاتف. يتحدث الإنجليزية بلكنة إفريقية، كنت لا أحب صوته العالي. مرات كثيرة أردت أن أفتح باب غرفتي، وآمره أن يخفض صوته، ولكني كنت أتريث وأقول: "أنت والأيرلنديون عليه." وأقول أحيانًا: إفريقي، ومن عشيرتنا، ولا تحكم على البشر من جلودهم، اهدأ. هكذا كنت أحدث نفسي لأكبح نيران الثورة، ومفهومي عن الغربة.

* * *

دخلت المقهى أحمل زهوري، لا أعرف ماذا أفعل بها فقد فشلت في مقابلة "فريدا"، وأحسست بقيمة ما تفعله من أجلي. أنا

هكذا دائمًا. أقدر المرأة بعدما تتسرب مني، ولا أشعر بوجودها إلا في حال الفقد.

أتساءل: هل كل الرجال كذلك؟

ربما كان هذا هو السبب الرئيس لهجران المرأة للرجل بعدما يفشل في احتوائها، تهدد أولاً، فلا يبالي، ثم يقول: تهديد نساء، ثم تتغير المرأة، ثم تختفي تمامًا، وتنجح في الهروب والتحليق بعيدًا عن أفق الرجل.

رائحة البن والشيكولاتة تعبقان المكان. رواد المقهى كل منهم يحمل مشروبه ويضعه على الطاولة.

منظر "السجق" يجعلني أشعر بالاشمئزاز، ورائحته تستفزني. دفء المكان والموسيقى المنبعثة من أركان المقهى تبعث على الشجن والاسترخاء. بعض العشاق يجلسون بالقرب مني، أتساءل: لماذا أنا وحيد هكذا؟ ولماذا أهرب من التجربة؟

هربت من "سهام" ولم أدافع عن حبي،
وهربت من "سيمون" ولم أستمر معها،
أنا الآن رجل يغرق في الخيبات والحنين.

صوت المغنية وهي تنتحب وتبكي الحبيب الذي رحل يذكرني بحالي:

الموت هو الفراق،
واللقاء هو الميلاد،
و هذه الشموع التي تبكي غيابك
هى أيضًا نورك الذي سيسطع

يوم تعود .
فعد سريعًا قبلما أذوب
و بظلم الكون .

أن تسمع موسيقى حزينة، وأن تمشي تحت المطر، وأن تنتابك هواجس الموت مبكرًا، وأن تخاف أن تتسرب منك المحبة، وأن تهجر من يحبونك ، وأن تغار ولا تصرِّح ، وأن تذهب إلى الأماكن الموحشة والمهجورة.

هذه هي المحبة، هذه علامات أنك رومانسي.

* * *

جاري المغربي "عدنان" يقرع بابي كثيرًا، ويحب جلستي، ويزورني، ذات مرة بكى في حجرتي وهو يسمع أغنية الشاب خالد "وهران". قال أمي تنتظرني منذ أن رحلت، ولا أعلم إذا كانت حية أم لا، موسم جمع العنب الآن، أعتقد أنها تحتفظ بنصيبي منه، حتى أرجع.تذكرت والدتي التي قالت: أحتفظُ بنصيبك من المانجو في الثلاجة، فقلت له: كل الأمهات حانيات.وستعود وستجدها منتظرة، وربما تحمل معها عنقود العنب. مسح دموعه وضحك. شكوت أن هناك آلامًا في ظهري وساقي من أثر الوقوف أمام البارات لبيع الزهور. قال: انتظر. خرج ثم عاد بعد برهة يحمل قارورة، قال: هذا زيت الزيتون سيشفيك بعد أن تدلك به جسدك، إن به نور الله وروحه، فأخذ يدهن به رقبتى ، فاستسلمت لحركة أنامله القوية ونور الرب.

* * *

ذهبت ربيكا وفريدا في رحلة قارب حول البحر الأبيض المتوسط (تركيا وإسرائيل) وستنتهي بسيناء. كانتا تتوقان لهذه الرحلة كثيرًا، وقالتا إنهما تريدان أن تريا العالم وتتعرفا على جغرافيته، وآثاره وطباع البشر، وذكرت ربيكا أنها لو أكملت تعليمها لأصبحت مدرسة جغرافيا، وقالت: أليس جميلاً أن ترسم خرائط للعالم بيدك ، وتقلِّص هذا العالم ليصبح خطوطًا ونقطًا ؟ ثم ابتسمت قبل سفرها بأيام وأرسلت قبلة لي في الهواء، وقالت بصوت يملؤه الحنان والدلال إنها تريد أن تقترض بعض الجنيهات؛ لأنها تريد أن تكمل إجراءات الرحلة، وتريد أن تشتري بعض الحاجات لأبنائها أيضًا من إسطنبول، فترددتْ أن تصارحني وخافت أن لا أقرضها، ولكني وافقت في النهاية، لأننى كنت مَدينًا لهن ببعض النقود التي كنت قد اشتريت بها زهورًا ولم أسددها.قلت لها: و كيف ستسافر فريدا و هى حامل فردت هى : فى شهورها الأخيرة ولا خوف عليها . و العموم لو فقدت الطفل يبقى خيرً ا لا نريد المزيد من الإنجليز فى بلدنا.

افتقدتها كثيرًا، واضطررت إلى أن أشتري الزهور من تجار آخرين، ولم تكن معاملتهم مثلها. عندما عادت قالت "ربيكا" إنها أحبت "شرم الشيخ" جدًّا؛ لأن المياه نقية جدًّا، والخدمة ممتازة، وأنت تشعر فعلاً أنها أرض مشى عليها الأنبياء، وذكرت موسى كثيرًا.

ثم قالت: الرجال المصريون مُجاملون ويعاملون المرأة بإجلال، ثم اتجهت نحو الليفي وقالت: إن لم أكن متزوجة لمكثت

هناك طويلاً. ثم حكت عن عامل السرفيس الذي ارتبطت به، وكانت أحيانًا ترفض أن تخرج للبحر لتتبادل معه بعض الجمل، وأنها كانت تتعمد إغراءه لتشعر بتوتره، وقبل سفرها بساعتين ، وأثناء وجود فريدا على الشاطئ ، كادت تمارس معه الحب، لولا أن شعورها بأنها تخون زوجها عطَّل اكتمال الفعل وانسحبت منه .

قالت إنها لم تتصور مصر بهذا الجمال، وهذه الحرية لدرجة أن النساء يكشفن عن أثدائهن أمام الرجال على الشاطئ، وأنها تشفق على هؤلاء الرجال. ثم قالت: في المساء كنت أراقب القمر على البحر وهو يقبِّل الموج، وكدت أصدق أنهما عاشقان، وقالت: ربي يسامحني، فعندما أكون في الفضاء والصحراء وبجوار البحر، أشعر أنني بدائية تمامًا ، وأن غرائزي هي التي تحركني. عامل السرفيس هذا لم يكن فيه أي شيء يميزه، غير أنه رجل اشتهاني، وتعمدت إغراءه، فعندما كان ينظف الحجرة كان جهاز التكييف لا يعمل بكفاءة، فطلبت منه أن يفحصه، وتعمدت أن أقترب منه جدًّا، ثم بدأ ينظر لي، وبغريزة الأنثى عرفت أنه يريدني، وكذلك كانت رغبتي أيضًا، ولكني قاومته حتى النهاية. ثم صمتتْ، وقالتْ: إن المرأة المتزوجة يجب أن تحافظ على العهد المقدس، وأن تتسم ببعض الحياء.

فقلت: واضح .. قديسة والله .

قالت فريدا مُقاطعةً: هذا هو حظها دائمًا، تقع في الرجل الصحيح، أما أنا فدائمًا أتعرف على أنذال Bullocks. فهذا الإيطالي لم يكن صالحًا لشيء سوى الرقص والحديث عن

المعارض التشكيلية التي شاهدها على كل بقعة في الأرض، غير أنه أتى مصر خصيصًا ليشاهد وجوه الفيوم ؛ حيث ستعرض في معرض خاص في شرم الشيخ، ثم أضافت إنه لم يقبِّلها حتى في جبهتها، وكان له اهتمام خاص بالجسد والعري، سواء في الرجال أو النساء، وأنه له قدرة على تحديد الصحة النفسية للبشر بالنظر إلى صدورهم وسيقانهم.

أما "ربيكا" فقالت إنها كرهت إسطنبول كثيرًا، وتعجبت من عدد الجوامع الكثيرة والمآذن التي هناك، وأخذت تقلد صوت الأذان: الله أكبر .. الله أكبر. وقالت : إن عدد المسلمين يفوق عدد المسيحيين، وإنني كرهت البازارات الكثيرة التي تحتوي على كل شيء، بدءًا من التوابل حتى أجهزة المحمول، وإنها سوق كبيرة، وإن أحد الرجال الأتراك قد تحرش بها في أحد الحوانيت، وأغلق عليها الباب وأخذ يقبِّلها، لولا أن فريدا أنقذتها في آخر لحظة. أما تل أبيب فقد كرهتها تمامًا، ولم تفهم مغزى وجود مثل العدد الهائل من الدبابات في الطرقات والأزقة. وقالت :إن وجوه الناس هناك مكفهرة، وإنها شعرت بالخوف منهم، ولم يبتسم في وجهها أحد، وكلما مرت في مكان رأت رجالاً مسلحين، ودائمًا تهرول سيارات الإسعاف في الشوارع . لم أجد الوقت أو الطاقة لأشرح لها باستفاضة ماهية الصراع العربي الإسرائيلي، وأن إسرائيل دولة حرب ومستعدة له، فهي تريد أن تأخذ ثأرها من مدبري الهولوكوست كما تدَّعي، وأيضًا تريد وطنًا، حتى لو كلفها ذلك

بحورًا من الدماء والفلسطينيين. فتسألت فريدا: أين فلسطين على الخريطة؟ أهى في أوروبا؟

* * *

دموع السماء.

Deora De ,

The Tears of God

38

لم يرتدِ معطفه القرمزى
لأن الدم و النبيذ أحمر
وهما يلطخان يديه.
وعندما وجدوه مع القتيلة
السيدة المسكينة التى نحرها كان فى مضجعها
أوسكار وايلد: ملحمة سجن ريدنج.

ذهبت "فريدا" ولم تعد. قالوا إنها ماتت أثناء إجرائها عملية الإجهاض ؛ ذهبت لترضي غرور آخرين، كانت تحلم بطفل آخر، حتى جاء هذا الطفل عن حب، حبها للإنجليزي هذا ... لم تكن تحب زوجها الأيرلندي. تذكرتها وهي تضع يدها على بطنها وتنظر إلى نهر الليفي، بعدما لمَّحت لها "ربيكا" أنها تعيش في الحرام مع رجل آخر غير زوجها. ولأول مرة امتزجت دموعها مع مياه ه هذا النهر القديم الأزلي ، الذي يحمل في أسراره أحزان وأفراحهم هؤلاء البشر الذين مروا على هذا النهر الذي دائمًا تقف بجواره تبيع زهورها، ودائمًا لا تعجبها رائحته. هذا الملاك الصامت الذي استمتع العالم بظلمه له.... هذه البائعة الفقيرة، المُطارَدَة دائمًا من

البوليس، من طفولتها حتى شبابها، تركت طفلتين وطفلاً صغيرًا. أتخيل ابنتها الصغيرة تبكيها ليلاً، وفي صباحية وفاة أمها ستأمرها جدتها لأبيها بعدم الذهاب إلى المدرسة اليوم، وأن تخلع زيها، وتذهب إلى السوق لتشتري الزهور لتبيعها في المساء للعشاق والأحباب.. ستذهب وهي راضية أو غير راضية، فلن يكون هناك فرق يقتنع مع المارة أو المشترين بضياع طفلة، وانكسار حلم، وموت البراءة؛ فهي الآن يتيمة.

* * *

قالت "سيمون" وهي تغادر إلى "أوما" إن سفرها وغناءها هي وفرقتها مناسبة لتقول إن العالم ممكن أن يجمعه الحب لا الحرب، وإن السلام هو بذور السعادة لهذا العالم، وإن فرقتها خير دليل على ذلك، والفن قادر على حل جميع الأزمات حتى مشكلة الأرض. قلت لها: لا تذهبي ؛ فالشمال منطقة خطرة. فقالت: لا تخف، فإنني سأعيش طويلاً. ثم أخذت تذكر حوادث كادت تفقد فيها حياتها: كيف أنها سقطت في الماء وهي تلهو وحيدة على كوبري صغير يصل بين ضفتي قناة في قريتها في" ويكلوا" وهي لم تتعد الثالثة، ومرة ثانية عندما انزلقت على خشبة المسرح وهي تؤدي حركة راقصة واستلقت على ظهرها شهرًا كاملاً، وكيف كادت تموت في مرة ثالثة بعدما سقطت من على عجلاتها أثناء نزولها تلاًّ منحدرًا في ليلة ممطرة، وكيف نجت منها بأعجوبة، وأن إيمانها بما تفعل سيضمن لها النجاة.

محطة القطار لم تكن مزدحمة إلا من بعض الركاب وأفراد فرقتها، وألقت الفتاة الإنجليزية ذات الشعر المجعَّد نظرة باردة ظهر تأثيرها في "سيمون"، ثم تمتمت: "قذرة". ثم نسيت بعد أن اقتربت منها كثيرًا فاحتضنتني وقبَّلتني. ثم هرولت تجاه القطار وهي تنظر إلى الخلف، وبعدما اختفت شعرت بالخواء والتعب، واليأس. شعور يراودني كثيرًا بعدما أترك المرأة. وأحيانًا يراودني الشعور بالحنين والانهزامية. احترت في تفسيره كثيرًا. وعندما بدأ يتكرر، قررت أن أقلل وجودي بين النساء.

* * *

قالت رئيسة القسم: لا نستطيع أن نمد لك زيارتك العلمية أكثر من ذلك، لقد رفض العميد وقال: لقد جاء ليبيع الزهور ، ويتشاجر مع أهالينا ، ويزوِّر نقودنا، ويرافق نساءنا ، وبالتأكيد سيشوه صورتنا في كتاباته عندما يعود. هذا الكائن لم يأتِ للبحث العلمي بل لصعلكة تصلح خبرة لرواياته.ثم قالت بتأثر: أعتقد أن هذا كافٍ. أرجو أن تكون قد حققت الهدف المنشود بهذه الزيارة لبلدنا. أعلم أنك عانيت كثيرًا، ولكن كان هذا اختيارك منذ البداية. لو كنت مكانك لما تحمَّلت هذه المشقَّة والمخاطرة. حمدًا لله أنك نجوت ببدنك، وأرجو أن تتعلم من أخطائك. ثم خفضت من صوتها قليلاً وكأنها تهمس: حياتك هنا سر كبير، ولك الحرية أن تتحدث عنها إن شئت يومًا ما. ولكن يجب أن تعلم أننا أحببناك وأعطيناك الفرصة. فجأة وهى تتحدث تذكرتُ ابنها عند أول زيارة لي في بيتها، عندما تحدث عن الجنيّة التي تسكن جبال ايرالندا ،

وتساءلت : هل جلبت لي النعيم أم الشقاء ؟ أصابني الدوار وكدت أسقط. أردت أن أقول لها إنني مظلوم، وإنني لم أنتهِ بعدُ من بحثي وسأشعر بالخيبة إذا عدت وتركت دراستي وإنه ليس مهمًّا إن عانيت أم لا، المهم أن أحقق حلمي، وحلم أسرتي وأساتذتي.
ولكنها كانت عازمة على توصيل رسالة الجامعة لي. علمت بعد ذلك أن سارى هى التى وشت بمهنتى الى الجامعة و حادثة التزوير،ربما لتنتقم من سيمون و ربما منى.

* * *

حلم

في منزلي قبضوا عليَّ

وقالوا لي: تأتي لتقتل نساءنا ، و تستبيح أعراضنا، ثم قيدوا يديَّ.

وغموا عيني بضمادة،

وقادوني إلى الحافلة، وأجلسوني بالقوة،

كنت أقاوم أيديهم القاسية الباردة،

وعندما دخلت قسم البوليس، قالوا: لماذا قتلت بائعة الزهور ؛ المرأة الفقيرة. هل سرقتها؟ هل كنت تكرهها إلى هذا الحد .. أم خفت أن ينفضح أمرك بعلاقة السِّفاح التي بينكما، لماذا قتلتها؟

كانت مسكينة تريد أن تربى ابنتها المريضة التي تغير دماءها كل ستة أشهر.

قلت: لم أقتلها. لقد قتلتموها بقسوتكم وبخلكم عليها، وإهمالكم لها. لم أقتلها،ربما قتلها صديقها الإنجليزي، هذا الذي ابتزها وخانها طوال فترة إقامته معها،أو ربما قتلها زوجها السابق، ولكنني لم أقتلها ..لم أقتلها.. لم أقتلها.

لقد كنت أحبها.

* * *

39

أوما 1998

وكأن الناس قاموا من قبورهم! أصوات وصراخ، رأيت ذلك في التلفاز: أشلاء وجثثًا لأطفال وسيدات وشيوخًا وشبابًا. تركز الكاميرا على فردة حذاء ملطخة بالدماء، وجه طفلة تنزف وبجوارها دميتها المحترقة، قدم مبتورة ترقد بجوار شاب. لماذا يقتل الناس بعضهم البعض ، لماذا نتعطش لتحطيم بعضنا؟ لماذا تتكرر أسطورة قابيل وهابيل كل لحظة في الكون؟ إن لم يكن القتل بالسكين، فبالنظرة أو بالكلمة أو بالديناميت. فكم من اغتيالات تتم بالكلمة، ما يحدث في فلسطين هو ما حدث في أوربا، كما أن الضحكات تتحول لصراخ، وكم من أجساد جميلة تتحول إلى أشلاء وجيفة! قالوا: إن الجيش الأيرلندي الجمهوري وراء هذه الفعلة.، فهل هذا صحيح؟

هل هذا إرهاب، أو دفاع شريف عن الوطن والأرض؟ الحرب من أجل البقاء. الجيش الأيرلندي الجمهوري يدافع عن حقه في سيادة دولة أيرلندا، وإبعاد إنجلترا عن الحكم والهيمنة. هل تفجير قنبلة في حافلة، أو سوبر ماركت، أو أمام مدرسة، أو كنيسة، أو

جامع، سيرهب المحتل؟ الفلسطينيون يفعلون ذلك من أجل تحرير القدس، ومن أجل إنشاء وطن آمن لهم، حماس وحزب الله وكتائب تحرير الأقصى تعترف بالشهادة من أجل الوطن، أن يموت فرد ويستشهد أفضل من أن تموت أمة كاملة. الإرهاب أم الدفاع الشريف عن الوطن! لا توجد ساحة ولا جبهة للقتال، إذاً فلتكن حرب عصابات. المحتل لديه رؤية أخلاقية في موضوع الشهادة، فهو بمنطقه لا يعترف بها ويراها إرهاباً، والمحتلون لهم رؤية مغايرة؛ لأنهم يفقدون الأمل في الحوار، إذاً فليكن العنف. ولكن، ما ذنب هؤلاء الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء والشباب؟ وما ذنب هؤلاء المحتلين الجوعى المرضى المذلولين؟ أليس هذا محيراً؟!

* * *

40

قتلت "سيمون" في حادث إرهابي في مدينة أوما في شمال أيرلندا ، في مقاطعة تيرون ؛ إثر انفجار سيارة مفخخة قام بها الجيش الأيرلندي الجمهوري المنفصل (RIRA)؛ لاعتراضهم على اتفاقية بلفاست. ماتت مع ثمانية وعشرين قتيلاً آخرين.

دفعت ثمن حبها للسلام. ماتت غدراً، نزفت دماءها على أرض لم تعرف السلام منذ وط أها الإنجليز. وتوفيت في مستشفي فيكتوريا الملكية Royal Victoria Hospital.

أخبرتني بذلك صديقتها "لورا" التي كانت تعمل في مستشفي ميثا مزر Meath Mother، والتي قابلتها أكثر من مرة معها في الفرقة، وأيضاً في معهد الفيلم الأيرلندي. قالت والدموع تجري على وجنتيها: "إن الانفجار حدث في شارع "لور ماركت " أثناء وجودها هناك بعد انتهاء العرض المسرحي".

وذلك عندما ذهبت إلى السوق لتشتري بعض الإكسسوارات للفرقة من ملابس مطرزة بالحرير والساتان؛ لتقوم الفتيات بارتدائها أثناء العرض، وهن ينشدن أغنيتك التي علمتها لهن "الحنة الحنة يا قطر الندى"، فقد كانت تريد الفتيات يبدين وكأنهنَّ جنيات ألف ليلة وليلة، كانت تريد أن تحتفي بك في تابلوه من

الشرق. ثم صمتت، وقالت وهي تنتحب: إن الانفجار قد تسبب في قطع أحد شرايينها، ونزفت كثيراً، ثم أخرجت من حقيبتها لفة. ، وسلمتني إياها قائلة: أوصتني سيمون أن أعطيها لك إن رأيتك. وقالت: إنها هدية عيد ميلادك، وإنها عندما رأت منك إهمالاً في الفترة الأخيرة قررت أن ترسلها لك عن طريقي، فقد كانت تُحرج من أن تقابلك أثناء عملك. عندما فتحت الهدية كانت كتاباً به أشعار الأغاني الشعبية الأيرلندية وأسطوانة ومعهما كارت به قلوب تنزف، ويحضن الكارتَ خطابٌ .

قالت فيه: تذكرني دائمًا، حاولت أن أسعدك بكل الطرق، ولكنك دائماً ما كنت تقاومني، وكأن عواطفك مسجونة بداخلك، ولكن ليس مهمًّا، سأظل أحبك دائماً. اعلم أنك ستقول إنني خلقت بداخلك تعاسة كبيرة بحجم الأرض، ولكني لست مسئولة كليًّا عن ذلك، أنا حاولت أن أحبك وليس لديَّ يقين إن كنت تحبني أم لا! ولكن أنت مهم جدًّا في حياتي، حتى إن لم نتبادل القبلات أو نمارس الحب بشكل منتظم. يكفي أنني معك، ويكفي أنني أنظر في عينيك وأشعر دفء يديك. لا تنس ينِي. أعلم أنك ستعود إلى القاهرة، وأعلم أنك ستفتقدني، وأعلم أنك يومًا ما ستكتب عني أو ستأتي إلى "دبلن" لتبحث عني؛ ربما ستجدني ، أو ربما سأكون في إحدى قبائل إفريقيا أو في ولاية من ولايات أمريكا، ولكن اليقين الوحيد الذي لديَّ أنك ستوحشني، وأنك ربما ستتذكرني. أعلم تمامًا أن كلاًّ منَّا يبحث عن الحب، وعندما يجده يظل متمسكًا به حتى ولو كان حلمًا، وحتى لو ضاع منه، فإن يرهن نفسه لهذا الحب سنوات

وسنوات، ويمكن أن يهجره الحب والمحبوب، ولكنه يظل متعلقًا به. وهناك الحب الأول ، والحب من طرف واحد ، ودائمًا نفضِّل هذين النوعين من الحب؛ لأنهما صورة مثالية، وفكرة راقية عن مفهوم الحب، تمامًا مثل فكرة تعلُّق الإنسان بالله. فكرة أزلية وأساسية في حياة البشر، وإن كفر بعضهم بوجوده ،فإنهم يظلون يتذكرون ويتحسرون لحظة القرب ونعمة الإيمان التي هي مفقودة الآن.

أعلم أنك تتمثل بصورة الحب المثالية تمامًا كتمسكك بفكرة الإيمان؛ لأنك حقًّا مُحِبٌّ .ومؤمن حقًّا.

* * *

لماذا ذهبت هناك؟ ولماذا ماتت؟ ولماذا لم أمنعها من السفر؟

ولماذا هي بالذات؟ لقد قتلتها. كان من الممكن أن أقول لها : لا تذهبي، وكانت ستوافق وتذعن لرغبتي كما كانت تفعل دائماً. لماذا قتلوها؟ هي لم تفعل شيئاً. هي لم تمشِ في مظاهرة، ولم تعارض في يوم من الأيام!

مغنية تحب الفن والسلام! لقد تركت خطيبها؛ لأنه يحب العنف ويمارس القتل، وأحبتني لأنني كاتب ومسالم! أنا الذي سلمتها لهم، أنا الذي شاركت في هذه المذبحة الجماعية، أنا الذي أجبرتها علي الرحيل وعلى الموت. أنا القاتل. لماذا لم أبادلها الحب؟ لماذا لم أعطف عليها؟ تكبَّرت عليها وقلت: ريفية ومتحررة، وعشت في وهم الحب من سهام. هل هذا هو النبل الذي تتحدث عنه؟ هل هذه هي الرجولة؟

أشك. أنت جبان، وخائف ومتوتر، ومجنون. أنت متردد، والمتردد ليس رجلاً ولا إنساناً.

تقرأ "الموت في فينيسيا" لـ "توماس مان" وتتعجب من مصير البطل، وترتعد أن تقابل النهاية والموت نفس يهما بهذه الطريقة في "دبلن". وتدفن في هذه الأرض الغريبة ، ويتحد جسدك مع هذه الطينة الباردة التي لا تنقطع عنها الأمطار والثلوج؛ حيث سيفتقد جسدك حرارة طينة نهر النيل، ودفء شمس (طِيْبة) التي تحتفظ بالأجساد إلى حد الخلود.

من مات غريباً مات وحيداً، ومن عاش غريباً مات ألف مرة, هكذا قرأت في التراث، ومن مات في غير وطنه حرم جسده على النار مهما كانت ذنوبه، ما أجمل هذه الأحاديث التي رواها بالطبع جامعو الحديث! بالطبع لم يكونوا من أهالى مكة أو المدينة، بل من بلاد الروم والفرس وآسيا ؛ حيث افتقاد الوطن والبعد عنه ه ما الشهادة و الغربة بعينها.

* * *

الرحيل.

هل المحبة تقتل؟ ومن مات بها، هل هوأيضاً شهيد؟

يحمل حقائبه الثقيلة، وكأنها ذنوب البشر جميعاً لا عطر فيها ولا ثيابَ جديدة، بل هي كتب كثيرة ذات حروف غريبة، لن يقرأها أبوه ولا أمه، ولا حتى أخواته. يحملها وكأنها صخرة عملاقة تثني عوده وقامته. لا أحد يمد له يد العون إلا على بعض العجائز اللاتي

أرسلن إليه نظرات من الرثاء، واعتذارً ا عن عدم قدرتهن على مساعدته.

أظلمت الدنيا، وسقط المطر، وتشبَّع الطقس ببخار الماء، وأصبح الضباب كنافذة يطل منها على الدنيا. وبدت مباني جامعة ترينتي كأنها قلاع تعشش عليها طيور خرافية، وداخل أبراجها يظهر دراكولا بعيونه اللامعة وأسنانه البارزة، وهطلت الأمطار بشدة، وعصفت الرياح فظن أنه الطوفان، وبحث عن السفينة فلم يجدها! وأصبحت عيونه زائغة لا تركز في شيء. ومرَّ أمام بصره وداخل مخيلته: الليالي الأولى لوصوله "دبلن"، المنازل التي قطن فيها وطُرد منها، الأصدقاء والقلوب الرقيقة التي تعرف عليها، سيمون، أدنا، فريدا، ماريو، ربيكا، أبو علم ،رئيسة القسم، جوانا... الكل يمر أمامه.

وفجأة أصبح الظلام هو الطريق الطويل الذي يدخل فيه، وأحاطه دخان كثيف، وسمع من بعيد صوت طائرة تزوم فاتجه ناحية المطار بخطى خائفة ومترددة.

عشت وحيداً هناك في بلاد بعيدة، والرياح تكاد تلقي بك إلى البحر حيث تتخطفك الأمواج. لا تشرق الشمس أبداً. وتسمع صوت ارتطام الأمواج بسطح البحر الهائج فتخاف، تمشي وتمشي ويتملكك الرعب، وترتعد أطرافك من الوحدة والبرودة. تسقط الدموع من عينيك كطفل تائه فقدَ أخته الكبيرة التي كانت تمسك بيديه منذ لحظات قليلة ، وذهبت لتجلب له الحلوى من المتجر

القريب، ثم فجأة وجد نفسه وحيداً إلا من الذكرى والخوف من الفقد.

لماذا كان الرحيل؟ ولماذا كرهت "دبلن" وطقسها ومطرها وأهلها؟ ولماذا تركت الأشجار وحيدة ، والطرقات مبللة؟ لماذا تركت الجنيَّات فوق النوافذ والرهبان في الأديرة؟ لماذا تركت الكنائس والجوامع والمعابد والحانات والبارات والزهور ورائحة القهوة والشاي وقوالب السكر؟ لماذا تركت المكتبات والكتب العتيقة؟ لماذا تركت الشوارع الحميمة والمتعرجة؟ لماذا تركت القلاع والقصور والستائر التي تخفي الأسرار وراءها؟ الثلوج والرياح وراءك، والشمس والجفاف أمامكم لماذا خفت من الوحدة؟ لماذا سئمت الحرية؟ أكانت الغربة شبحاً سيبتعلك ويقتلك؟ فهربت ونجوت بنفسك ، أم خفت أن تموت في غرفة رخيصة في إحدى البنايات القديمة على سرير به آثار سوائل الشهوة الوضيعة وعرق الليالي المحمومة؟ لم تنتهِ من كتابة رسالتك، ومع ذلك قررت الرحيل، قلت: سأنجو بنفسي وألقي بالصخرة عن أكتافي، ولن أهبط الجبل لألتقطها كما فعل "سيزيف" في الأسطورة اليونانية القديمة. لملمت أشياءك بسرعة. اشتريت حقيبة كبيرة تشبه سفينة نوح، وجمعت بها كل كتبك وملابسك القديمة الباهتة، لم تشترِ هدايا لأحد، وقلت: سأغادر فورً ا. دفعت فاتورة الكهرباء وأجرة السكن ولم تسلم على جارتك الأيرلندية، ولا على المغربي، ولا على الشابين المجاورين لك في السكن.

هربت بذنبك، خفت أن تخسر نفسك وربك، وأن يموت والدك وأنت بعيد، وخاصة بعد ما أخبرتك أختك أن والدك يُحتضر في غيابك كل ليلة، وينادي عليك بصوتٍ عالٍ حتى تأتي إليه وكأنك يوسف، وهو يعقوب.

ثلاثة أيام في مطار "دبلن" تنقل حقائبك الثقيلة التي تملؤها الكتب. شركة الطيران تريد منك ثروة طائلة لكى تنقلها لك، وعندما تخبرهم أنك "طالب بعثة" يقولون: هذه مشكلتك. وعندما تقول إنك سترمي بكتبك في نهر الليفي القذر ، يلعنونك ويقولون: أهذا جزاء الإحسان إليك؟ وهل هذه كلمة (شكراً) لدعوتنا لك في بلادنا ؟ هذا هو قدر أيرلندا لا تلقى من الأحبة غير الجحود والنكران! ولكن موظفة من مكتب طيران "آير لنجس" ترأف بحالك وتساعدك على نقل حقائبك بمبلغ زهيد: علبة شوكولاتة (كلمة السر). هي تحب المصريين لأنها تعرفت على"سائق تاكسي" عند زيارتها لمصر، ففي فترة قصيرة جعل لحياتها معنى وأشعرها بأنوثتها، فأنقذتك بعد ثلاثة أيام على أرضية مطار "دبلن" وكاد البوليس يقبض عليك بتهمة التسول أو ربما (أعمال أرهابية). وها أنت رجعت، ولكن لم تكن كما ذهبت، والكل أدرك ذلك وقالوا: كسب العلم وذهب عقله.

* * *

41

القاهرة:2005

قال لي زوجها السابق سامح:

سهام ممثلة تريد أن تلعب أدوارًا مختلفة، ربما هذا بسبب التعددية التي تعاني منها، ومن الحيرة الوجودية التي تصاحبها في حياتها، من الازدواجية التي تعطل حياتها: الروح والجسد، الشهوة والإبداع، صراع أبدي، الأرواح التي تلبسها تجعلها منقسمة إلى شخصيات عديدة.

ونصحني بألا أفكر فيها ؛ فانشغالها بنفسها يمنعها من أن ترى سوى ذاتها. هي تحترق ذاتيًّا وستتلاشى يوماً بيوم، فقلت له: إنك تتجنى عليها.

ثم قال وهو ينظر إليَّ بتمعُّن: افتتانك بها يعميك عن رؤية الحقيقة، ويسد آذانك عن سماع وسوستها، أعتقد أنك نرجسي مثلها.

ما يقوله صدق .لا أعلم لماذا أستدعيها في كل لحظة أقابل فيها امرأة جديدة! شعرها، عيناها المثبتتان في الفراغ النهائي، برغم العدسات اللاصقة التي تضعها لا تستطيع أن تراني. شعرها

الثوري الذي يرفض كل حيل القصعة. قامتها الكليوباترية. كل شيء فيها يأتي بحضور أثناء اقترابي أو مغازلتي لأي أنثى.

أثناء حديثه قلت لنفسي: إنها تخاف مني، لا تريد الاستسلام، وأنا أيضاً كذلك، خلَّفْنا تاريخًا من المعاناة والتخبط.

تنهد سامح وقال: حمدًا لله أنني تخلصت منها سهام تعاني من (البارانويا)، جنون العظمة والذات. أعتقد أنها تصلح حالة نفسية تدرس في أقسام التحليل النفسي، ربما لو عاش فرويد لخصص محاضرة كاملة من محاضراته لتحليل ذاتها. قلت لنفسى: كاذب ومجنون، وزادني حديثه رغبة فيها، وقلت: مجروح ومهزوم وناقم .

لماذا أهرب منها؟ لقد ارتضيتها كربَّة إلهام، هل أريدها شخصية روائية فقط، أستدعيها كلما شحت النساء في كتاباتي؟ هل أتجنى عليها بارتباطي بها؟ عندما تراني دائماً بين الأصدقاء تهرب مني، تتجنب الحديث معي، رأيتها أكثر من مرة تتحدث إلى أشخاص كثيرين، رجالاً بخاصة، لا يشبهونني مطلقاً تسلم لهم يديها أحياناً ووجنتيها. أما نحن فلم نتصافح غير مرة واحدة، في هذه المرة كانت يدها دافئة أرسلت من خلالها إلى قلبي و روحي شوقاً وحنيناً إليها لا يزالان يشبعانني حتى الآن.

في هذه الفترة كانت سهام وحيدة بعدما طلقت من زوجها الأول الذي صار صديقاً لي بعد ذلك، لا أعلم لماذا تصادقنا، وما الذي ربطنا ؟ ربما لأسمع منه عنها، ربما أستغله، أحياناً أكره نفسي على لعبة التواطؤ هذه. هو الآخر ك ان يتلذذ بالحكي عنها،

وعن مساوئها، أحاول بدهاء أن أستشف إن كان لا يزال يعشقها أم لا، ولكنه دائماً ما يقول إنها قد حوَّلت حياته جحيماً وسدت عليه أبواب الإبداع في القاهرة. يعتقد أن الناس يستمعون إليها أكثر، ويتعاطفون معها؛ فهي أنثى جميلة، تعرف تماماً كيف تجذب الناس وتسرق تعاطفهم، ألم أقل لك إنها لاعبة ماهرة؟ ربما تكون مصابة بعصاب، هكذا حلل أحد الزملاء في عالم الأدب شخصيتها بعدما قام ببحث مستفيض عن كتاباتها ، وملاحظتها على خشبة المسرح، وخصص فصلاً كاملاً من كتابه لتحليل التوترات النفسية لبطلاتها، وطبَّق عليهن نظريات فرويد في الجنس، وأيضاً يونج وأقاويله عن ظل الرجل وظل المرأة، وقد توصل إلى أن شخصيتها تتأرجح بين محاولتها تأكيد شخصيتها كأنثى عن طريق الاستعراض الجسدي في كتاباتها وهوسها بالكتابة عنه، وما بين رغبتها في تقمص "أنا" الرجل حيث سيحقق لها المزيد من الاستقلالية والسيطرة ووأد تاريخ من عبودية المرأة للرجل.

أحياناً كنت أتساءل: لماذا يخبرني بأدق أسرارها معه؟ ولماذا دائماً يحاول هدم محرابها وقدسيتها لديَّ؟ ربما يعلم أنني أهواها! أتساءل: أهو يغار مني أم منها ؟ أيندم أنه تزوجها؟ فهو دائماً يتحسر ويقول : إن الخطيئة تفتح دائماً باباً للعقاب . فلذة الجسد أعلنت عن وجودها بالتجسد وربطته بسهام إلى الأبد ،بطفل يحمل اسمه وتعبيرات عينيه، ويحمل من سهام جسدها، وطاقاتها وتوترها.

لن ألومك على حياتك، وما تفعلينه بها.

البسي هؤلاء الرجال أو اخلعيهم كما تفعلين مع ملابسك الأنيقة والزهيدة، فأنت أكثر حرية من الريح التي تتحكم فيها العناية الإلـهية.

ولن أطالبك بأيّ التزامات، فأنت لست حقيقة، بل خوف، أنت الخوف المتجسد أمامي، وخلفنا تاريخ طويل من الإحباطات، وعدم الفهم الوجودي، وتوترات نفسية و جسدية بسنين العمر اللانـهائية التي عشناها معاً في هذه الحياة أو في غيرها.

لقد جعلتِ مني أضحوكة في عيون الآخرين الذين يعتقدون أن الحب من طرف واحد هو صفة البشر الضعفاء. ولكن هل الحب هو اكتمال جسدي فقط ؟ نعم ، للجسد مهمة في توليد إدمان وجود الآخر، وبخاصة وقت الحاجة الغريزية، ولكن في اعتقادي أن هذه المشاعر الهشة الرقيقة التي تتعلق بالروح يكون سرها أخطر وأعظم.

42

القاهرة بعد عامين

وأنت تحوم في شوارع القاهرة بعدما عدت من "دبلن" رأيت "سهام". كانت تجلس في مقهى ريش، أمامها فنجان من القهوة وجريدة أخبار الأدب ورواية "الجميلات النائمات" لكو اباتا. كانت تنظر إلى النادل النوبي الأسمر فيأتي إليها، فتطلب فنجاناً آخر من القهوة. عندما رأتك من وراء الزجاج آتياً من ممر مقهى زهرة البستان أشارت إليك فدخلت. لم تُبالِ بنظرة الخواجة "مجدي" صاحب المقهى وحارسها الأمين. جلست ونظرت إليك. كنت، أنت يا معتز، مضطرباً وخائفاً ولم تنم منذ شهور. سألتك عن أحوالك وعن كتاباتك وطلبت منك المسرحية المونودراما "السجانة" التي كنت قد كتبتها لها منذ فترة ، فقلت وأنت زائغ العينين، مهتز الصوت إنها هى سجانتك. وسألتها: لماذا تفعل بك هكذا وهي تعلم تماماً أنك تحبها؟ ولماذا تقهرك بإهمالها لك، ولماذا تذهب دائماً للرجل الخطأ والخطر؟ ثم سألتها عن ذلك الصحفي صوت الحزب الحاكم ومنبره و عن الزواج الجديد، كيف تذهب إليه وتتركك ؟ أنت لم تفعل شيئاً في الحياة غير أن تحبها وتخلص لذكراها، حتى في

أيرلندا كانت هي المقصد والسبيل، وهى الطريق لتحقق حلمك ، وأيضاً الغمامة التي منعتك من التورط في محبة أخرى جديدة . وها أنت عدت ووجدتها في حرم رجل آخر ومعبده، تتلو فيه الترانيم وصلوات العشق المحموم، ومخمورة وسكرى من رحيق وطعم هواه. قلت ويداك ترتعشان و يزداد نبضك: بالتأكيد كنتِ تدركين أنني أحبك، وأنني مخلص لك ، ولكني فقير ومُعدَم وخجول بسبب تربيتي وحيائي.

قالت: هو يحتاج لي أكثر منك. لقد اعترف لي بحبه وغمرني بعطفه وكرمه عندما كنت وحيدة ومشوشة، قدم لي يد العون، وأعطاني وظيفة لم أكن أحلم بها، وعرض عليَّ منزلاً مناسباً بعدما تُهتُ في عشوائيات القاهرة، وخاصة بعد وفاة زوجي الأول الذي كان يكفل ابنى ، وبعدما طردتنى أسرتى لخروجى عن طاعتهم وعدم قبولهم نمط حياتى المستفز على الأقل بالنسبة إليهم، أشعرني ضعفه بقوتي، وتحمَّلت فكرة الارتباط برجل غير قادر على أن يعيش وحيدًا أكثر من ذلك. لا تحسب أنني نفعية، ولكني أعتقد أنني أحببته، لم أكن أفهم نظراتك في هذه الفترة القصيرة، وما أدراني أنك تحبني .هو سبقك واعترف وقدم قرابين الوصال، أما أنت ربما أخذت تتأملني كمُلْهِمة. أنا لحم ودم، وهناك رغبة تسري في جسدي مجرى الدماء في شراييني. ربما أكون مخلوقة أرضية ولست سماوية مثلك، أعتقد أنها طبيعة المرأة، ألا ترى أنها تنجب وتعمر الأرض، ثم ضحكت وقالت: خير دليل دورتها الشهرية التي تذكرها دومًا أن لا تنسَ وظيفتها الأساسية ألا وهي الأسرة. قالت:

لم يستقر حملي بسبب تدهور نفسيتي وأحوالي؛ فقد بدأ شعري في التساقط، وأصبحت لا أطيق الطعام في معدتي لشهور عديدة. لم يكن يفهم ما بي، وكان يعتقد أن هناك رجلاً آخر، أو ربما قد مللت العيش معه، فقد تنازل أكثر عن كبريائه وأغدق عليَّ بالهدايا، وأكثر من مُحاباته لي ولأهلي. نعم ،كنت أتذكرك في أوقات كثيرة، وخاصة عندما أمُرُّ بالمعادي كنت أفتقدك كثيرًا. وأضحك أحياناً، وأقول: عايش مع الشقراوات الآن، ويغرق في الخمر والانطلاق. كما ترى أنني غير سعيدة الآن، والخلاص هو الانفصال.

ثم تنهدت وكادت الدموع تجري بخفة على جانبي لواحظها، أعتقد أنك لم تكن مستعداً للاعتراف، كذبت عندما قلت إنني لم أفهم نظراتك، الفطنة موجودة لديَّ، كم تمدحني دائماً، ولكن شعرت في لحظة من اللحظات أنني لست امرأتك وأنك غير مستبعد الدخول في علاقة، وأنك منغلق على ذاتك. كنت أعرف أنه من الصعب اختراقك، نحن النساء نشعر هذا في الرجل، وهذا ما يحدد مسافة اقترابنا وسرعتنا في التشبث به. أنا أيضاً لي لحظات من الجنون، بالتأكيد لن تكون سعيدًا معي. تعلم أنني في لحظات كثيرة أفكر في الانتحار، وتراودني فكرة الموت كثيرًا، وأرغب في أن ألقي بجسدي من شرفة منزلي أو أدفعه أمام سيارة مسرعة، ولكن عندما أنظر إلى القمر الذي تتحدث عنه دائماً أتفاءل. القمر له تأثير السحر في مزاجي. وأرى في لحظات الظلمة بداخلي قمراً مكتملاً منيرًا يلتصق بك. بالطبع أنت لست أفضل الرجال ولا أقواهم ولا أكثر فحولة. لا تغضب ولا تندهش وتقول :منطلقة ومجربة، ولكن

الفطرة والتلصص على الرجال الشهوانيين علَّماني الكثير. ولكن أنت أفضل بروحك ورِقَّتك، وحتى ضعفك الذي يشبه ضعفي كثيرًا. إنسانيتك جعلتك مقدسًا عندي. هو لم يكن يغار منك مطلقاً، ولكنه لم يكن يفهمك، ولم يكن يعرف مدى نورانية علاقتنا، وأن الجسد ليس متورطاً بيننا ولا الشهوة على الإطلاق في التصاقنا الإنساني. أنت توأمي المماثل في كثير من الأوقات. ولكن سأقول لك شيئًا، ثم رشفت من قهوتها وأخذت تنظر إلى خطوط البن الداكنة في الفنجان وكأنها تقرأ الطالع وقالت بانقباض: من الأفضل أن تبدأ من جديد مع امرأة جديدة وحاول أن تنساني، أنا لست بالمرأة التي تناسبك أو تناسب أي رجل، أعتقد أن عالمي هو الفن أو السفر. ثم وضعت راحتها فوق يديه الباردة . فجأة لم يشعر معتز بشيء: صور مهزوزة لكتاب كبار، لوحات فنانين، طاولات، كتب فوق مكتب يملؤه التراب، سيارات تمرق في شارع طلعت حرب ،طفايات سجائر، غثيان، ضربات قلبه تتزايد، اختناق ثم سقوط مدوًّ. وفتح عينيه فكان وجه الخواجة "مجدي" يطمئنه بعد أن أفاق من إغمائه، وينصحه أن يستريح في منزله قليلاً، وأن ينسى تمامًا هذه المرأة التي كان يجلس معها.

43

زفـاف معتز.

بدلة سوداء "تكسيدو" وقميص أبيض من ماركة " فردي " ورابطه عنق وصديري ووردة ورقية في ياقة البدلة, تبتسم وتتهيأ وتأخذ وضع العريس أمام باب المزين، تبدو نظيفًا جدًّا، ناصع البياض بتأثير ليلة الحناءِ ؛ حيث جاء إليك أصدقاؤك وطلبوا منك الاغتسال والتطهر، فنزلت المغطس فغرقت في مياهه الساخنة, وسكبت عليك قارورة شامبو (سانسلك) و(شور جيل)(هربل أسنس), وأخذت تحك جسدك باللوف ؛ معتقدًا أنك تغسل ماضيك وحبك القديم لسهام. وحلقت شعر عانتك بعد أن كدت تفقد وتنسى أنك ذكر، ودخل عليك أصدقاؤك فرهبوا الموقف، وضحكوا وقالوا: ربنا معها، ماذا تفعل المسكينة مع هذا؟ فنهرتهم وأمرتهم بالخروج ورششت عليهم الماء.

أمرتك والدتك أن تتزوج, وقالت إنها تريد أن ترى لك ذرية قبل وفاتها، وإن الأهل والجيران يعيرونها بعدم زواجك حتى الآن ، وقالوا إن لم يتزوج معتز فسيُجَنُّ أو يُخصَى. فوافقت أن تتزوج قريبة لك "علياء". لم ترها منذ أن كانت طفلة تعرفت إليها في

زفاف أحد أقاربك فأعجبتك، كانت تشبه الأيرلنديات, جميلة وتسبقك في الطول، رشيقة ووجهها ملائكي وناعم، وعيونها بلون خضرة الجبال في أيرلندا قلت: لم لا! الحلال طيب. والبدايات الجديدة دائمًا حميدة .

خرجت علياء من صالون التجميل, كانت تبدو مثل الأميرات الهاربات من الحكايات الأسطورية, مثل سندريلا و"سنووايت"، وغيرهن. كانت رائعة الجمال وشديدة الحضور والبهجة، اخترتها من بين العديد من النساء، أو ربما هي التي اختارتك. كانت من الريف وقالت: تاريخك ليس مهمًّا, المهم حاضرنا معًا. وقلت: بريئة وليست لها خبرات فتيات المدن. وكانت مخلصة في حبها وتمسكها بك، وبعد فترة شعرت بالضجر والألم لأنك تزوجت علياء لتكفر عن ذنبك في هجرك لسيمون دون سبب واضح، وعدم اعترافك لسهام بحبك دون إبداء الأسباب. وكنت أنت خائفًا ومتوترًا ومشدودًا. كان الجميع فرِحين، وكانت هي تمسك بذراعيك لتتباهى وتتشجع بك، وكنت أنت تائهًا وغير متزن. تفكر في أشياء غائبة, أشياء حاضرة. في سيمون وسهام, فيما بعد الزواج. تساءلت: من هذه التي تمسك بي؟ ومن هؤلاء الذين يحيطون بى؟ الفرح ، نعم إنه الفرح ، والزفاف الميمون، وقبلة على جبهة العروس, وخاتم زفاف, وعصير شربات أحمر اللون, بلون الحب والرغبة والدماء التي تلطخ منديل المحرم ، دليل البكارة. وفستان أبيض تَعَرَّش "دَنْتِلَّه" على ساقيك وكأنه آت من شجرة في الجنة

باسقة الفروع والأوراق، وبشر يرقصون ويهللون, ويتنافسون لكى يأخذوا صورة بجانبكما.

وأنت لا تدرك شيئًا تشاركهم الرقص بحركات بهلوانية ، وتغني نغمة مختلفة تمامًا على إيقاع الموسيقى ، ويكاد يُغشى عليك . أما هي فتذهب لترقص مع صديقاتها وأقاربها والرجال الآخرين وأنت تنظر لتستوعب ماذا يحدث. زواج في أقل من شهر. الحب لكي يُعْتَرف به يجب أن يكون بعد ثلاثة أشهر، تمامًا كالجنين لكى تدب فيه الروح والحياة. أقل من شهر ليس كافيًا لأن تعرف أحدًا معرفة قريبة من اليقينية. ومثلما كان التعارف سريعًا كان الانفصال سريعًا، فبعد انتهاء الرغبة تعود الرهبة والوحدة والجفاء. شعرت أنك سقطت في بئر بإرادتك، وأنك كنت كبش فداء لمجتمع حاولت أن تتمرد عليه، ولكنك فشلت، غيرأنك يا "معتز" قررت أن تكون أنت مرة ثانية "معتز"، فقررت الانفصال والابتعاد تمامًا، وعشت لفكرة الفن والكتابة. علياء لم تكن تفهم لماذا الانفصال ؟ ولم تكن تعي التغيرات ولا التعقيدات بداخلك، كانت بسيطة وكانت صغيرة وكانت بريئة، وغير مدركة لك ولا لتاريخك الذي صنعك وقهرك وشوهك.

وأغلقت هاتفك المحمول، وقلت ستبحث عن سهام ثانية أو شبيهة بها، ولكن "علياء" ليست هذه المرأة التي تريدها، ولكنها لم تفهم تمامًا مثل سيمون وسهام فأصبحت أكثر عصبية وأكثر هستيرية وأكثر حزنًا. قالت: أنت لا تفهم شيئًا عن المرأة ، وقالت إنها ليست صغيرة ولا بريئة كما تدَّعي. وطلبت هى الأخرى

الانفصال ، ولم تتقابلا ، وبعثت بوكيل عنها هو والدها ليطلقها وحدث. وعدت لوهمك القديم تبحث عن المرأة الحلم لم تكن سهام فقط، ولكن كان شيئا آخر لم تجده وسقطت.... وكان الجميع يدرك ما أَلَمَّ بك، ولكنك كنت الوحيد الذى لا يرى وكأن لعنة قد حلت بك وكأن طاقة شديدة أفسدت عقلك وما بداخلك وتهت في أحلامك وذكرياتك ونسائك. حدث هذا بعد رجوعك ، ولكنك فقدت إحساسك بدورة الشمس والقمر والأرض، وتهت في عالم من اللازمن واللا وجود.

44

تنساب عربة الزمن مكللة بالزهو والحياء. صلصلة عجلاتها المدوية لا يسمعها أحد. والآذان لا تسمع إلا ما ترغب فى سماعه. .. ولكن العربة لا تتوقف والدنيا زوج خئون.

نجيب محفوظ: الحرافيش.

منذ أن عدت وتركت دبلن وأنت في اضطراب شديد، توتر دائم، طنين يسد آذانك، وساوس وتمركز لفكرة وحيدة تسيطر عليك لأيام عديدة بأن هناك شخصا ما سيقتلك، تشوش وحملقة في لا شي ء وعيون زائغة بها بريق الجنون، وحروف تكون كلمات غريبة ومخيفة كلما قرأت كتابًا أو صحيفة، وأصبحت تخاف الحروف بعدما كانت حرفتك الكلمات. لا تكمل الحديث مع قريب أو حتى الغرباء الذين تعشقهم، أصبحت تخشى الناس، مؤرق الجفن مسهدًا ليالى طويلة ، وتنام أيضًا أياماً عديدة، أصبح الفراش هو المرأة التى لا تفارقها، أهملت مظهرك وأطلقت لحيتك كأنك تخاف شفرة الحلاقة أن تمس جلدك الثلجي وترهب مقص الحلاق أن يمس شعرك، فبدا مظهرك كأهل الكهف المكرمين موتى ولكن أحياء. أهملت عملك وكدت تفصل لولا طيبة أصدقائك ورئيستك في

العمل أليست هى التى أرسلتك في هذه الرحلة.؟... لا كتابة ، لا صحافة ، لا أصدقاء ، لا أقارب ،لا هواتف ، لا مساس ، وكأنك السامرى بعد نسف عجله. لا نساء لا رجال، أصبحت تهاب كل شيئ، حتى الجوامد وكل ما يتنفس من بشر وحيوان ، أو ينتح من الشجر الكثيف الذى أصبحت تراه أشباحًا تطير ليلاً مثل البوم والغربان تخاف أن يتخطفك. الذهن شارد ، والجسد واهن ، والعقل غائب، والابتسامة ذهبت وباتت الدموع والنواح هما سمر الليالى. كاد فؤاد أمك ينفطر وتذهب روحها كمدًا عليك، وفشلت أسرتك في أن تقنعك بأن كل ما تراه وتسمعه أوهام. يتساءلون فيما بينهم : أهو الجنون؟ أهو الموت، أم هو المس ؟. الجن. القرين.. المستقبل أصبح وهمًا، والماضى أصبح غولاً مخيفًا وحاضرً ا في كل لحظة جنون. والرجوع إلى طبيعتك أصبح مستحيلاً وه اأنت تعيش مع فريدا وربيكا وأدنا ومستر مارك وسهام وذات الرداء الأسود وسيمون والرومانيين والمغاربة والجزائريين والمطر والخمر والطين والريش وأبراج الكنائس وبوابات ترنتى كولوج والخيالة والمكتبات ومكتب البريد ومقهى بوليز ونهر الليفي والفئران والغرق في أرض المطر.

خيالات وأشباح تسكن سقف الحجرة، تتشبث بأعمدة الفراش ، تبكى وتموء وتصرخ ، تخاف الضوء ، وتخاف النجوم ، وتتضخم الحروف وتتداعى المعاني ، وتخلق أوهامًا بداخلك تشعر أنك تقع في بئر سحيق ة، وأن الطير تتخطفك ، وأنك مسجون في شق ثعابين ، وأن حيات تلتف حول رقبتك وجسدك وتخاف من أبيك

وحركته ليلاً ، وتراه عجوزًا ومخيفًا وترتعد من عين يه الذابلتين، تصرخ وتتوارى من الخلق ، ولا تستطيع أن تواجه أَحدًا تخاف رائحة البشر وعرقهم وملمس أيديهم، تهرب منهم، من نظرات الشفقة ومن الرهبة منك، لا تريد الذهاب إلى طبيب نفسى، يأتي إليك أخ وك بالطبيب فتهرب منه ، يبكى أخوك ويقول إنك شمس العائلة ومستقبلها فلا تخذلهم بتيهك ، وإن الحياة حلوة. فيعطيك الطبيب مهدئات: بروزاك، زنكس، زبراكس، ترتعش وتغيب ، ويزداد نبضك وتتسارع دقات قلبك، وتروح بعيدًا في ملكوت الرب حيث لا جناح عليك، و تصيبك نوبة هياج فيلطمك أبوك على خدك ويضربك بمنسأته التى يتعكز عليها فتهيج وتصرخ فتأخذك والدتك إلى الحمام و تصب على رأسك وجسدك الماء البارد في ليالى يناير، وعندما لا تهدأ تضربك بالعصا فتسقط على أرضية الحمام مغشيًّا عليك وتخرج من جسدك كل سوائلك. في النهار تسحف تزحف نحو الدولاب ، تختفي في ملابسه ، وفي المساء عندما تهاجمك الخيالات وتغلى رأسك وتزداد الوجوه قتامة ، لا تطيق جسدك فتتجرد من ملابسك وتريد أن تهرول عاريًا تجاه مجرى السيل لتلقى بنفسك به ، فتسرع أختك وابنتها لتوارى سوءتك بحجابهما وتجري في ليالي الشتاء الباردة، في شوارع "دجلة" بالمعادي؛ شعرك طويل وذقنك يصل إلى صدرك تنظر في عيون القطط والكلاب فتخاف منك وتجري منها وتسقط على الأرض وتكاد تسحقك عجلات السيارات. وتقف في شارع 250ساعات طويلة تخاف أن تتحرك أو تعود إلى منزلك ، فتأتي ابنة أختك

وتأخذك من يديك وتذهب بك إلى المنزل لتنام أيامًا طويلة لا تعلم مداها.

ابنة أختك التي ظلت بجوارك شهورًا عديدة وتركت دراستها بسبب تدهورك وغياب عقلك ، وكانت تبكي هي أيضًا عندما يضربونك لكي تفيق وتقول : "حرام عليكم" وتدافع عنك بكل قوتها ، وتقول : "نفسه تعبانه شوية " وكانت تطبطب عليك وتمسح لك دموعك وتضع كفيها الحانيتيْن على ظهرك فتشعر بالدفء والطمأنينة كان بها حنان العالم ورحمة الأمهات. وعندما تشكرها بعينيك الدامعتين فتقول لك :ألم تحضنني بعد ما تركني أبي وذهب لامرأة أخرى .... ألم تعالجني وأنا صغيرة ؟ ألم تعلمني القراءة والحياة؟ ألم تحضر لي قصصًا وحكيت لي حكايات كثيرة ؟ فتحضنها بقوة. وتهدهدك...... كما كنت تفعل معها في المهد ، و تغنى لك :

واحد اتنين سرجي مرجي
إنتى حكيم واللا تمرجي
أنا حكيم الصحيه
العيانة أديها حقنه
والمسكينة أديها لقمه
نفسي أزورك يانبي
ياللي بلادك بعيده

ويبكى الجميع حالك، فيأتى الشيخ ليقرأ على رأسك و" النجم إذا هوى" أو "كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس" ولكنك لم تأكل الربا ولم تنافق فقط أحببت، فيقول الشيخ: ممسوس ومحسود فتعبق الحجرة برائحة بخور "العود" الذى أحضره لك أخوك من محل عطارة بمكة المكرمة بجوار الحرم ، ويسقيك عسل نحل "السدر" النقى الذى أحضروه لك من جبال اليمن المقدسة ويطلب منك أن تقرأ آيات بينات عند شربه فتتقيأه فيعلم أن روحك تائهة وليست موجودة، فيأتي القس والشماس فيغسلانك بالماء والزيت المقدس ويقرآن شيئًا من الإنجيل ليطردا الشرير ، وينجيك من التجربة و تأتى عمتك ذات مائة العام فترقيك وتتمتم وهى تمسح بيديها الدافئتين على شعرك وتنظر إلى والدتك التى تبكيك دمًا: دخلت اللئيمة فى دار المسكينة ، شتت الشتات و قلعت النبات و عمرت القبور .

قلت لها: رايحه فين يا شلقه يا بارقه .

قالت: رايحة للى حبا ولى دابا و لى لا يعرف أمه من أبه .

ثم تسكت و تتثاءب و تقول: والله محسود و فى واحدة بص ت ليه و تقول : هو اللى فيهم، ثم تكمل رقيتها من دون أن تلتفت لأحد:

قلت لها :

حلفتك بعهد الله و الخاين مايخون الله .

لا تؤذّ عيلِ فى قماطه ، و لا لبنًا فى أثدائه ، و لا خيّالاً فى مشواره

عين المرة فيه شرشرة
عين الراجل فيها مناجل
عين البنت فيها بنج.

ثم تبلل أصابعها و تمسح بها جبهتتك ، و تبصق على شمالها و هى تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، و من إبليس اللعين.

وتظل الخيالات تتلاحق ، وصراخك يعلو ولا ينقطع ، ويموج عقلك بالماضي والحاضر والمستقبل ، ويذوب كل ذلك في لحظة ، وتتطاير بعيدًا نحو السحب التى ربما يومًا ما ستسقط على أرض المطر.

45

بعد مائة و ثمانين يومًا:

ماتت الحاجة "فوزية" جارتك وصديقة والدتك التي كانت تصنع لك حساء المشروم (عيش الغراب) والتي لم تجرح يومًا والدتك و لم تسألها عن سبب عزلتك وانطوائك حتى عندما كانت تسمع صراخك ليلاً، لم تكن تتطفل عليكما في النهار ، وتسأل عن سبب هذا الاضطراب الذي أصابك. ماتت بعد صراع مع مرض الفشل الكلوى، كنت تراها تذهب لتغسل إكسير الحياة وتتعجب كيف تواصل تفاؤلها برغم الألم وقرب نهاية الأجل، رأيتها تموت ولمحتها وهى ممددة على الأرض أمام منزلكم، لا حراك وجسدها مسجى، وعيونها زائغة، وجاءت سيارة الإسعاف لتأخذها بعيدًا، تذكرتها فجأة عندما نظرت إلى شجرة التوت التي زرعتها بنفسها أمام المنزل، وأوصتك بأنه كلما رأيت الشجرة تقرأ لروحها الفاتحة. إذن الموت قريب جدًّا وحقيقة.ولكن الحياة أمامك ، إذن أنت عائش.

تقف بجوار النافذة ، تميل بجبهتك على إطارها المعدني ، شعرت ببرودته عندما لمس جلدك. في الخارج مجرى السيل

وأبراج سجن طره ..حيث ترى خيالات الجنود من بعيد ، وشجر الزيتون الباهت القابع في المزرعة ، وتلمح فرسان الخيالة يتجولون في المكان، وتسمع صوت البوق فتضطرب ، وليس ببعيد مدافن السجناء. ترى حشودًا كل يوم صباحًا ومساء يحملون نعش نساء ورجال وأطفال ونساء ثكلى يتشحون بالسواد ورجالاً منكسي الرءوس، والنعش أحيانًا يتباطأ، وأحيانًا يطير إلى مثواه الأخير . هنا الموت كل يوم. في الشارع يجلس البواب وزوجته يتسامران ، تخاف من نظراتهم، وتتراجع إلى الوراء قليلاً تهز رأسك يمينًا ويسارًا، وتفرك أصابعك ، وتحرك أقدامك بتوتر من تأثير المهدئ تلمح شجرة التوت وقد نمت براعمها بشكل كثيف في الشهور السابقة، لم تكن بها أوراق فقد اغتال الشتاء كسوتها. فرحت قليلاً فقد كنت تتابع نمو أوراق الشجر في الأيام الماضية فتفاءلت وقلت : جاء الربيع ، ربما تكون حياة أخرى وبداية جديدة . ملت برأسك للخارج قليلاً لتلمح الشجرة كلها سمعت صوت أمك يناديك وتقول: إنها ستكون سعيدة لو خرجتما معًا؛ فاليوم الجو صحو ، ومشمس والدفء يسكن الكون، ربما تذهب لحى البرابرة أو حارة اليهود بالموسكى أو منطقة المهندسين فهي تريد أن تشترى "نجفة" جديدة ؛ لأنها ملت هذا المصباح الرخيص والضعيف ، وأنه لجميل أن يشتروا من صديقك المتخصص في بيع التحف والنجف. تتذكره فعلاً شاب ظريف وكريم فتقول : لمَ لا! وتساعدك في ارتداء ملابسك عندما تراك تبتسم وتسأل: أليس من الأفضل أن تحلق ذقنك ليشاهد الناس هذا الوجه الجميل وهذه الابتسامة

الرائعة؟ فتوافق بعد تردد، ثم تمشط لك شعرك كما كانت تفعل معك وأنت طفل صغير، وتدهن شعرك بجل فتبدو فعلاً جميلاً في المرآة ، وترى وجهك وكأنك الطفل الذي سقط من نافذة منزله وهو صغير وأنقذ وتغيب تمامًا صورة أخيك حسين وتخرجان معًا، وتنطلقان نحو الشارع وهى تمسك بيدك وأنت تمشى معها ببطء وروية.

* * *

ها أنت تحررت من سهام تمامًا أو هيئ لك، وها أنت تعيش الآن مع امرأة أخرى بعد عودتك من "دبلن"، ولكنك لا تستطيع أن تخفي حبك وشغفك القديم بسهام الأمثولة، والحلم، تقول حنان المرأة التي تنوي الارتباط بها لتخرجك من الوحدة والجنون إنك لا تزال تهوى "سهام"، هي عرفت ذلك عندما حكيت عنها كثيرًا، وكتبت عنها في روايتك الجديدة ل تتطهر منها . في مرة ناديتها بسهام، فقالت إن اسمها "حنان"، وهي فعلاً كذلك، وقالت: ستتعود على اسمي عندما تحبني، وعندما تحبني ستنسى "سهام"، وسيكون اسمي هو عالمك. هي تبذل أقصى طاقتها لتشعرك بهذا الحب، وها أنت ترفض أن تحتل امرأة أخرى مكان سهام حتى في اللحظات التي تكون ملتصقًا بها تمامًا . تشعر أن هناك انفصالاً، هي شعرت بذلك ولكنك قلت إنه إحساس وجودي اصطحبك منذ أن كنت طفلاً وحيدًا. ولا تصل لنقطة الذوبان أو التلاشي في الآخر، ثم فلسفت إحساسك عندما كبرت. إنه الاغتراب الذي تحدث عنه الفيلسوف "ألبير كامو" وهو عدمية الوجود والشقاء الإنساني، وأحيانًا تفسير القرآن أن الإنسان خلق وحيدًا

وسيموت وحيدًا أيضًا. حنان تقول: خلق الله حواء لتقتل هذا الإحساس داخل آدم، ولكن آدم لا يريد أن ينسى، هو يريد أن يستمتع بالنعيم بمفرده، ودائمًا يتهم حواء بأنها سبب السقوط الذي أدى إلى النار والجحيم، مع أنها ارتضت أن تكون معه في أي مكان دون فارق. المهم أنهما معًا، هي دائمًا مع معتز، الآن تخرج معه إلى وسط المدينة، تحضر معه ندوات أدبية وتشجعه على أن يقرأ قصصه للجمهور، تهتم بأغلفة رواياته واختيار الأنسب منها، تهديه الكتب التي يحب أن يقرأ ها ويضن على نفسه بشرائها، تختار له ربطات عنقه، تساعده على اختيار ملابسه وتطلب منه أن يكون أنيقًا كما كانوا يقولون عنه في الماضي، تطلب منه أن يطيل شعره قليلاً، وأن يخفض وزنه حتى يتحرك بسهولة، ويتفاعل أكثر. قالت له إن حياتها بدأت معه، وإنها سترضى منه بالقليل في المعيش وفي الحب، وإنها ستجعله يعثر على ضالته المفقودة، وإن لم يستطع بمفرده فستحاول معه، وإنها ستسمح له بمساحة كبيرة ليتحرك فيها لكي يحصل على خبرات للكتابة والإبداع، وإنها ستنجب له طفلاً يرث عقله الجميل. وقالت إنها ستعوضه عن سنوات الحرمان والتيه، وطلبت منه أن يلمس شعرها ويدها لكي يحس بها وبوجودها، وأنها حقيقة وليست وهمًا، وأن يسمح لروحها أن تدخل في مجاله ليحدث التوافق، وحتى إن لم يفعل ستنتظر وتنتظر حتى النهاية لتحصل منه على الحب المنشود. ثم قالت إنها ستوفر له كل سبل الراحة وإنها ستطلب ميراثها من أبيها لكي تساعده على الحياة الكريمة، وإن أراد فستفتح له دار

نشر خاصة به لينشر كتبه التي تخفيها الحكومة في المخازن وتمنعها من الوصول إلى القارئ، وإنها تحلم أيضًا أن تبني "شاليه" على بحيرة "قارون" المكان المحبب لهما ليعيشا فيه معًا ، ويستطيع أيضًا أن يكتب، وإنها ستحاول جاهدة لو حصلت على المال أن تشتري له شقة في الإسكندرية تطل على البحر في منطقة محطة الرمل المكان الذي يعشقه ؛ حتى يستيقظ من نومه والبحر أمامه فيتفاءل ويكتب.

وسيتمشيان على الكورنيش، وسيفاجئهما انطلاق الموج تجاههما وهو ينشر زبده ورذاذه عليهما في ليالي فبراير الباردة، وسيكون هذا منظرًا جميلاً: الموج يضرب بقوة وحنان صخور الشاطئ مثل الرجل والمرأة في فعل الحب ولحظة الانطلاق، وستهرب هي ناحية صدره ليخبئها بين ذراعيه، وستمسح هي الماء عن وجهه، وسيجفف بأصابعه شعرها ويحتضنها، وسينعشهما هواء البحر النقي الرطب، ولن يُباليا بالماء الذي يغرق الأرصفة وأحذيتهما،وسيجدا ن قوقعتين فيهمسا ن فيهما بأمنيتيهما: هي ستهمس أن تبقى معه إلى الأبد و هو سيدعو أن يرزقٍ منها بغلام جميل مثلها، ثم ي لقِيإهما في البحر، وسينظران سويةً تجاه القلعة المضيئة هناك، وستمسك يديه وتقبِّل راحتيهما بعطف، وسينظر إليها بحنان وسيقبِّل جبهتها بسرعة، وتلاحظ أنه ينظر إلى الفلك البعيد الذي تتلألأ أضواؤه في الظلمات، وسيبتسم لهما المارة والعشاق والشباب، وربما يتلصص عليهما المحرومون.

ثم يعبران الكورنيش فيفاجئهما الهواء ويتطاير ذيل معطفها فتلحقه بيدها، فيلقي بكوفيته الصوف حول رقبتها، فتشعر كأنك أبوها وحبيبها. وسيأخذها إلى مطعم "إيليت " ومطعم "إسكندر" ويأكلان الحلوى في "ديليس"، وسيسمعان الموسيقى وستأخذه لمطعم إيلين ليتناول الصلصة اليونان ية ويرقصان في بار "أتينيوس" وسيبيتان ليلة في أوتيل (كريون) وليلة أخرى في أوتيل سميراميس، وستكون غرفتهما على البحر تمامًا، وسيعيش ويعشقها أكثر، مع أنها تشك في ذلك كثيرًا؛ لأنه يهرب بروحه وجسده منها، ولكنها قالت والدموع في عينيها إنها لن تيأس، فهي حبيبته وإن شاء فستلعب دور العشيقة، ولا تمانع أن تلعب دور أمه التي يحبها كثيرًا إن أراد. وبالزمن سيتحسن وسيكون أجمل عاشق، وأخلص قلب، وأطيب رجل.

* * *

كانت خراطيم المياه، ورشاشات الجنود موجهة تجاه المعتصمين والمتظاهرين من حركة كفاية و 6 إبريل.كانت أغنية عبد الباسط حمودة "أنا مش عرفنى" تغطى على موسيقى "الجندول" لعبد الوهاب مع صوت تنويه إذاعة أغاني إف .إم.

وقفت مذهولاً لما يحدث: لقد تغيرات الأحوال ولم يعد هناك الهدوء النيلي للشعب، بل أمواج محيطية تجتاح المصريين. منهم من يطالب بالتغيير، ومنهم من يطالب برئاسة جديدة، ومنهم من يطالب بالانتعاش الاقتصادي و العدالة الأجتماعية و الحرية مع الخبز ، ومنهم من يطالب بخروج قوات التحالف من العراق

وبتأسيس وطن للفلسطينيين ووقف بناء المستوطنات الإسرائيلية على أرضهم. تداخلت المطالب مع تشابك قوات الأمن مع المتظاهرين العزل ، وأظهرت الشرطة قسوتها و جبروتها بكل إتقان و تفانٍ فدخل معتز وسط الجماهير يهتف معهم غير مبالٍ بهراوات الشرطة و شعر ان حواسه تعود إليه، ولكنه كان يبكى بكاءً مريرًا على مافات...

* * *

ستراه حتماً الآن مختلفًا تماماً، ربما يركب سيارة حديثة الموديل تجلس بجواره زوجته وابنه؛ يدخلان مكتبة مدبولى، ثم يعبران الطريق إلى جروبي .على جانبى الطريق كانت هناك ملصقات لانتخاب الرئيس القادم :صور لجمال مبارك عليها علامة" X" و أخرى لأيمن نور والبرادعى وعمر سليمان وأسامة الغزالي حرب، وصور كثيرة لرجال ونساء لم يسمع عنهم مطلقًا ، إلا صورة لشخص كان يفتقده وسيفتقده دومًا لأنه كان بمثابة أبيه. سيقابلك معتز ويضحك أو ربما يعبس في وجهك ليس مهمًا، المهم أن تراه، وتفرح لأنه مازال حاضراً بينكم حتى لو لم يكن هو تماماً الذي سافر وعاد..

نهاية محتمل أن تكون بداية .

ملحوظات:

-تمبل بارTemple Bar هو أسم مكان فى قلب دبلن ،ايرلندا.
- بعض المعلومات الجغرافية و التاريخية مأخوذة من موسوعة ويكيبديا.. وخاصة عن كتاب الكلز و تطوير منطقة تمبل بار.
- كثير من الأشعار فى هذه الرواية من خيال المؤلف و أيضًا ترجمة الأغانى و مقاطع الشعر و أقتباسات الروايات.

1- Mr. Bloom stood at the corner, his eye wandering over the multicoloured hoardings... Leah tonight :Mrs.Bandman Palmer .Like to see her in that again. Hamlet she played last night. Male impersonator .Perhaps he was a woman Why Ophelia committed suicide. James Joyce :Ulysses Bodley Head edition London ,1937 p.93.

جيمس جويس: ع ولس ،ترجمة: محمد لطفى جمعة ،المركز القومى للترجمة ،القاهرة 2007ص.211

2- I am no longer young ; and my heart through weary years of mourning over the dead , is not attuned to mirth. Moreover ,the walls of my castle are broken ; the shadows are many, and the wind breathes cold through the broken battlements and casements. I love the shade and the shadow, and would be alone with my thoughts when I may. Bram Stoker: Dracula, Brandon, Ireland 1992, p. 27.

3- "The world is entire ,and I am outside of it,crying "oh save me ,from being blown forever outside the loop of time". Virginia Woolf , The Waves, Wordsworth Classics edition, London ,2000,p.11

4- D.H. Lawrence :The Rainbow,Wordsworth Classics: London,1995.

5- برت إم هرو: كتاب الموتى الفرعونى، عن بردية آنى بالمتحف البريطانى .ترجمها عن الهيروغليفية السير :والس بدج.والترجمة العربية والتعليق د. فيليب عطية. مكتبة مدبولى – القاهرة 2000ط2.

6- ....But I feel
Far otherwise the event: not death, but life
Augmented, opened eyes, new hopes, new joys,
Taste so divine that what of sweet before
Hath touched my sense flat seems to this and harsh.
On my experience, Adam, freely taste,
And fear of death deliver to winds.

John Milton Paradise Lost,Penguin popular Classics ,London-1996. lines 984-990

جون ميلتون :الفردوس المفقود، ترجمة الدكتور: محمد عنانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة2002 .

7- الدكتور مصطفى كامل الشيبى :شرح ديوان الحلاج ، منشورات الجمل، كولونيا ،ألمانيا: 2007.ص277

8- أبو نواس : ديوان أبى النواس ، تحقيق: إسكندر آصاف ، دار العرب للبستانى، القاهرة: 1992

9- He did not were his scarlet coat,
For blood and wine are read ,
And blood and wine were on his hands,
And when they found him with the dead,
The poor dead woman whom he loved,
And murdered in her bed

Oscar Wilde: The ballad Of Reading Goal.

المؤلف:

د. بهاء عبد المجيد

- حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب الأيرلندي المكتوب باللغة الإنجليزية.

- حاصل على درجة الماجستير فى الشعر الإنجليزى المعاصر وخاصة فى كتابات تيد هيوز .

- يعمل مدرساً للأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس.

- يقوم بأعمال الترجمة والنقد الأدبي و هو باحث فى الأدب المقارن.

- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "البيانو الأسود" "دار الثقافة الجديدة " عام 1996.

- رواية "سانت تريزا " "دار شرقيات للنشر" عام 2000، ثم طبعة ثانية من الدار للنشر القاهرة 2008.

- روايتا "النوم مع الغرباء وجبل الزينة وقصص أخرى" دار ميريت للنشر 2005 القاهرة، ثم طبعة ثانية لرواية جبل الزينة من الدار للنشر 2007.

- رواية النوم مع الغرباء طبعة ثالثة الدار للنشر 2010.

- عضو اتحاد الكتاب ، و عضو نادى القلم الدولى ، وأتلييه القاهرة.

-ترجمت روايتا: سانت تريزا والنوم مع الغرباء إلى الإنجليزية عام 2010 بدار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة وقام بالترجمة د.شب روزيتى، جامعة بنسلفانيا فى الولايات المتحدة الأمريكية.. .

معظم شخصيات هذه الرواية من خيال المؤلف، وأى تشابه
مع الواقع
هو محض صدفة بحتة وهذا لرفع الحرج.